أُصابع الندم

د. فاروق العمر

رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية

قائمة المحتويات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١	المقدمة	
٢	قائمة المحتويات	
٣	توطئة	
٤	ماهو الندم	
٥	قيل عن الندم	
٦	أصابع الندم	
٧	فوائد الندم	
٨	الوهم والندم	
٩	التوبة والندم	
١٠	والجواب ببساطة	
١١	النصيحة والندم	
١٢	نصيحة السر	
١٣	النصائح الضائعة	
١٤	النصيحة الخاطئة والندم	
١٥	التسرع والغضب والندم	
١٦	الطلاق والندم	
١٧	المحبة والندم	
١٨	العنوسة والندم	
١٩	شباب اليوم والزواج	
٢٠	الحب الحقيقي	
٢١	عقوق الوالدين والندم	
٢٢	التعاطي والندم	
٢٣	المراجع	

مقدمة...

جاءت فكرة نشر هذا الكتاب تلبية لاتصالات وردتني من متابعين للبرنامج الذي أعددته وقدمته لإذاعة دولة الكويت في أواخر عام ٢٠١٢ والذي استمر زهاء الثلاثة أشهر . وقد طلب مني بعض الأخوة أن أدون حلقات البرنامج في كتاب حتى يقرأون بعض ما فاتهم من حلقات هذا البرنامج.

وأتمنى أن يجد القراء المتعة والفائدة في هذا الكتاب الذي حاولت أن أجعله مختصراً ومركزاً بقدر الإمكان حتى يحقق الغرض من نشره.

والله الموفق

توطئة ...

برز على مدى التاريخ حكماء وعلماء ذوو بصيرة وتبصر في الأمور ،ولكن هؤلاء المتميزين كان حظهم تعيساً إذ لاقوا من الاستخفاف والاستهتار بآرائهم و مرئياتهم مامن شأنه أن فت في عضدهم فأصبح كثير منهم موضع استهزاء أو استخفاف من الآخرين . ولم يدر الآخرون أنهم لو أخذوا برأي هؤلاء البعيدي البصر والبصيرة لتفادوا أخطاراً حاقت بهم ولعظموهم وأعلوا من شأنهم ،ولكن للأسف يصدق على هذه الأقوام المثل القائل" المرء عدو ما جهل" ،وبعض هؤلاء المستخفين بالنصائح المسداة لهم يعضون بعد ذلك أصابع الندم ،على مافاتهم من أمرهم ، ولكن بعد أن كان السيف قد سبق العذل.

وربما التجأ من عضوا أصابعهم ندماً في البداية إلى من لا حكمة ولابعد نظر عنده بسبب المجاملة أو الانبهار بزخرف القول أو الأهواء، معرضين عن رأي حكمائهم وعقلائهم وأهل الخبرة والمعرفة ومن عركتهم الحياة جانباً دون أن يلقوا لنصائحهم بالاً ، وهذا الأمر ينطبق على الحالات الفردية التي ينزلق إليها الأفراد . كباراً وصغاراً . من الذين صاحبوا رفقاء السوء ،فارتكبوا حماقات ضارة بهم وبأهلهم ولم يجنوا من وراء ذلك إلا الحسرة والندامة ، كما ينطبق ذلك على المؤسسات التجارية التي أضاعت أموال مستثمريها بسب عدم حسن اختيار مديريها ومستشاريها ولم يستمعوا لنصائح الخبراء الموثوق برأيهم .ونفس الأمر ينطبق على الفرق والتجمعات العرقية والمذهبية والسياسية التي اختزلت مصلحة المجتمع في **مصلحة مجموعتها الضيقة** رغم نداءات بعض عقلائها بلم الشمل والتكاتف .

أما الأخطر من ذلك فهو أن تعتمد دولة ما على الرأي الفردي أو حتى الجماعي الذي لا يستند اختيار أفراده على أسس من الخبرة والحكمة وسداد الرأي متناسية أن الإعتماد على ذوي الرأي والحكمة والخبرة يمكن الدولة من التأقلم مع الظروف المحيطة بها بشكل أفضل في السلم والحرب واستشراف المستقبل والوصول إلى أفضل الحلول لمشاكل الدولة القائمة أو إدارة الأزمات التي تواجها تلك الدولة.

والاعتماد على هذه النخبة المفكرة التي وهبت نعمة الحكمة لايعني انتقاصاً من شأن الآخرين العاملين في الدولة ، لأنه لا يصلح أن يكون جميع الأفراد حكماء ومفكرين دون وجود من يستمع إلى تلك الأفكار النيرة لتطبق على أرض الواقع استناداً إلى رأي هؤلاء الحكماء الحصيف وخبرتهم ، ، فوظيفة الحكماء الأساسية في هذه الحياة هي الهداية للرأي السديد والقرار الرشيد،ووظيفة غيرهم هي تطبيق ما هو في أذهان هؤلاء الحكماء والمفكرين والعلماء والمجربين على أرض الواقع ، كالقيام

بمهن أخرى كالدفاع عن الوطن أوالزراعة أوالصناعة وغيرها من الأمور الإدارية التي لاتستقيم أمور الدولة بدونها ، فكل له مجال عمله الذي يبدع فيه ، وهم جميعاً يتعاونون في بناء الدولة والمحافظة عليها، ولايصلح أن تختلط الأمور فيوسد الأمر إلى غير أهله.

ماهو الندم

إن للندم مفهومه وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية والسلوكية حيث يشعر الفرد بضرورة محاسبة ذاته ومراجعتها عما ارتكبت من سلوكيات أو أفعال .

و الندم Remorse عبارة عن ألم نفسى ناتج عما ارتكبه الفرد من فعل أو اقتراف معصية أو فاحشة ، أو أى أمر غير اخلاقي منهي عنه .

والندم هو أحد الأعراض العامة للذنب وينتج عن صحوة الضمير التي تشعر الفرد بالأسف والحسرة والرغبة فى التوبة أو التعويض عن الأذى الذي ألحقه الفرد المذنب بنفسه أو بغيره ،حتى وإن لم يتسبب هذا الفعل بأذى أو ضرر للآخرين على أرض الواقع.

والندم حالة شديدة الإجهاد، ترهق العقل والروح لكنه يصبح ذو فائدة اجتماعية ونفسية إذا استطعنا إدارته بمهارة

وشعور الإنسان المؤقت بالندم يجعله يتأمل التجربة ويفكر في الخيارات الأخرى التي كان يمكن أن يتجه إليها وبذلك يكتسب مهارة التعلم من أخطائه حتى يستطيع العقل ان يدرك الصواب من الخطأ فلا نكرر نفس الخطأ مرة ثانية وإلا مضت أيامنا ندما على ما فات ن جدوى.

ومهما كان الانسان على قدر من الاتزان النفسى ورجاحة العقل ، فإنه فقد تقع منه بعض الاخطاء أو قد ينتابه شعور بأنه ارتكب خطأ ما نحو ذاته أو نحو الآخرين. فإذا أذنب ذو الضمير الحي فإنه يعانى من الشعور بالندم والازدراء والوحدة والاشمئزاز من النفس والغضب والوساوس القهرية وعدم الثقة بالنفس والقلق .

والشعور بالندم معناه وخز الضمير الحي داخلنا ..فالشعور به حصانة ومناعة حتى لا نقدم ع ما قد يشعرنا بالندم أما بالنسبة للظلم فـ الله سبحانه وتعالى قد حرمه ع نفسه ..فكيف بنا أن نظلم أو نُظلم أعوذ بالله أن أظلم ..أو أُظلم ..شعور جدا مؤلم وقد يكلفنا الكثير أما الخيانة.. فهي والعياذ بالله خصلة

ذميمة وصفة من صفات المنافق الشعور بها مؤلم لأنك لا تستطيع تحمله من شخص قد أئتمنته ع حياتك ..ولا تستطيع أن تدني نفسك من العمل به وتخونه.. لابد وأن تترك شعوراً قاسٍ لكن تتفاوت نسبة الألم من حيث قوة الشخص وتمكنه من قدراته وصبره وفهمه للحياة ولتمكنه من العلاقات التي يقيمها وع إختياراته للاشخاص في حياته..لكنني أرى الندم أخفها كوني أراه من زاوية وخز الضمير الحي..

وهذا على النقيض من ذوي القلوب الغليظة الذين يخطئون فلايشعرون بالذنب حتى عند ارتكاب الآثام والافعال غير الأخلاقية وغير القانونية المضرة بالغير ، ولذلك فإن الذنب عادة ما يستثار لدى الافراد الذين يأسفون أو يندمون على ما ارتكبوه من سلوكيات وليس عند عديمي الضمير أو المغسولة أدمغتهم بمفاهيم خاطئة. سواءً كانت تلك الأفكار سياسية أو دينية أو أيديولوجية .أما عند البشر العاديين فإن الشعور بالندم ضرورة تهذيبية كي لايكرر الفرد أخطاءه بحق نفسه أو بحق الآخرين .

ومعنى أن تندم هو أن تعترف بأن هناك فرقاً بين الكيفية التي جرت فيها الأمور والكيفية التي كان بإمكانها أن تجرى لو أنك قمت باختيار شيء آخر.

قيل عن الندم

انا لا أنـدم علـى مـن ظننتـه صـديقاً خـذلنى
ولا أنـدم علـى مـن ظننتـه حبيبـاًفهجـرنى
بـل أنـدم علـى مـن ظننتـه عـدواً فسـاعدني

تحاور ثلاثة أصدقاء حول الإحساس الأكثر ألما والأشد قسوة على النفس هل هو الندم ام الظلم أم الخيانة ؟

فقال الأول : إنه الندم فقسوته على النفس لا توصف وتتمنى لو تعود بك الأيام للوراء حتى لا تفعل ما فعلت وحتى لا تقول ما قلت ،وكم يأخذ منا أياما نحاول فيها معالجة أنفسنا من هذا الإحساس المؤلم.

وقال الثاني : بل الظلم لأنه أشد إيلاما للنفس، فالندم إحساس داخلي بينك وبين نفسك إذا تصالحت معها ذهب عنك لكن الظلم إحساس بينك وبين غيرك تحتار نفسك كيف تقنعه انه ظلمك! وكيف ترفع الظلم عنك حتى تنسي نفسك هذا الإحساس المؤلم.

وقال الثالث : إنهاالخيانة لأنها الأقسى على النفس فمعها تحس بالندم والظلم معا تندم على ثقتك السابقة فيمن خانك وتشعر بظلمه لك عندما خانك ،إنه صرخة مكتومة لا تجد طريقا للخروج من نفسك فأي عتاب لا يرضيها وأي كلام لا يكفيها .

وقد قرأت أن أحد العلماء قال بأنه عثر على دلائل بأن أجزاء الدماغ المسؤولة عن التفكير والمشاعر تصبح نشطة عندما يمر الإنسان بحالة الندم، وهناك منطقة تسمى orbitofrontal cortex OFC، وهي منطقة في الفص الجبهي تقع فوق مدار العين ، ويقول إنها قد تكون مسؤولة عن مهمة مقارنة النتائج الحقيقية، مع البدائل المتصوّرة.ربما لأن مسوحات الدماغ أظهرت زيادة في نشاط منطقة (OFC) عندمايشعر الناس بحالة الندم.وقال بأن المرضى الذين حدثت لهم أضرار في هذه المنطقة من الدماغ،لا يشعرون بالندم، ولا يتعلمون من تجاربهم.

أصابع الندم

ليس من شيء أقسى على النفس عند ذوي الضمائر الحية من الندم، خاصة إذا كان هذا الفعل ترتب عليه ضرر بالآخرين.ويصعب أن يجد الواحد منا أي ارتباط بين الأصابع والندم ولكن ربما كان ذلك الارتباط بسبب أن اليد في الاغلب هي التي ترتكب الخطآ ،ولهذا يقولون عض على اصابع الندم .وربما يحدث ذلك بسبب أن الندم ليس شيئاً ملموساً ولايمكن عضه فيعض المخطئ أصابعه عوضاً عن ذلك .

وربما لأن من طبيعة بعض الناس العض على اصابعهم وهم نادمون ، فتعمم هذا المفهوم على النادمين الآخرين فسميت هذه الحالة بحالة العض على أصابع الندم

ولكننا أقرب مايتبادر إلى أذهاننا . كمسلمين . عن عض أصابع الندم صورة العض على اليدين تعبيراً عن الندم والتي وردت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا) [الفرقان:٢٧-٢٩].

والآية في حد ذاتها تحكي حالة هذا الذي ندم يوم لا ينفع الندم حيث يصور الله تعالى ذلك اليوم الذي يعض فيه الظالم المشرك بربه على يديه ندما وأسفا على ما فرط في جنب الله ، وكفر به طاعة منه لخليله الذي صده عن سبيل ربه بعد أن كاد يؤمن ، ويقول ذلك الظالم لنفسه : يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلا يعني طريقا إلى النجاة من عذاب الله ، (وقوله) يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، والشائع أنه عني بالظالم عقبة بن أبي معيط ، لأنه ارتد بعد إسلامه ، طلبا منه لرضا أبي بن خلف ، وفي هذه الحالة شمل العض اليدين كلها من الأنامل والأصابع وغيرها، تعبيراً عن شدة ما هو فيه من ندم لم يترك جزءاً منها يمكن عضه ندماً وحسرة على ترك الخير الذي شاهده وعاينه واقترب منه إلى شر ذهب به إلى سوء السبيل، وقد ورد نفس التعبير عنهم في الدنيا وجاء التعبير القرآني بأكثر من صورة ندم في هذا المقام..

قال تعالى: (هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) [آل عمران:١١٩].

ومن كلمات التعبير عن الندم كلمة يا لَيْتَنِي: يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (28) ،وهي كلمة تدل على تمني ما فات مثل قوله تعالى: (يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله) [الزمر:٥٦]، ليدل على استبعاد حصول ما يتمناه لفوات الأوان أو غير ذلك، وهذا يؤدي إلى مزيد الحسرة لأنه اكتشف . بعد فوات الأوان . أنه في وقت ما أدرك هذا الخير وتعرف عليه ثم تركه وأعرض عنه ومعنى ذلك أيضا قوله تعالى: (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) [يونس:٥٤]. وقوله تعالى: (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ

لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) [سبأ:٣٣]. وقوله تعالى (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) [البقرة:١٦٧]، والحسرة أشد من الندم.

هذه هي أحوال كل ظالم يوم القيامة، وليس له إلا الندم والحسرة، وحديث القرآن الكريم عن الظالمين كثير، وبيانه لندمهم وتمنيهم الفداء كثير أيضا، نشير إلى بعض ما ورد فيه مثل قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [يونس:٥٤].

ومن كلمات التعبير عن الندم كلمة يا لَيْتَنِي: يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ،وهي كلمة تدل على تمني ما فات مثل قوله تعالى: **(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ)** [الزمر:٥٦]، ليدل على استبعاد حصول ما يتمناه لفوات الأوان أو غير ذلك، وهذا يؤدي إلى مزيد الحسرة لأنه اكتشف . بعد فوات الأوان . أنه في وقت ما أدرك هذا الخير وتعرف عليه ثم تركه وأعرض عنه ومعنى ذلك أيضا قوله تعالى: **(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)** [يونس:٥٤]. وقوله تعالى: **(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا)** [سبأ:٣٣]. وقوله تعالى **(كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)** [البقرة:١٦٧]، والحسرة أشد من الندم. **وعند قراءة القرآن الكريم نجد تأكيداً على تعبير يا لَيْتَنِي** كما في قوله تعالى: **(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا)** [الأحزاب:٦٦]، ، وقوله تعالى: **(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)** [الفجر:٢٤]. دلالة على الحسرة والندامة وتمني العودة للحياة ثانية ليتفادى ماهو فيه من عذاب في النار.

والمقصود بالظلم في آية سورة الفرقان هو الكفر وذلك بين من سياق الآيات، ولكن مفهوم الظلم لايقتصر على الكفر بالله ولكنه يشمل كل ظالم حتى فيما دون الكفر، والدليل على ذلك حديث المفلس وهو حديث مشهور.

هذه هي أحوال كل ظالم يوم القيامة، وليس له إلا الندم والحسرة، وحديث القرآن الكريم عن الظالمين كثير، وبيانه لندمهم وتمنيهم الفداء كثير أيضا، نشير إلى بعض ما ورد فيه مثل قوله تعالى: **(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [يونس:٥٤]. (فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) [الروم:٥٧].

والمقصود بالظلم في آية سورة الفرقان الكفر وذلك بين من سياق الآيات، ولكن مفهوم الظلم لايقتصر على الكفر بالله ولكنه يشمل كل ظالم حتى فيما دون الكفر، والدليل على ذلك حديث المفلس وهو حديث مشهور.

وعند قراءة القرآن الكريم نجد تأكيداً على تعبير يا لَيْتَنِي كما في قوله تعالى: (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) [الأحزاب:٦٦]، ، وقوله تعالى: (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) [الفجر:٢٤]. دلالة على الحسرة والندامة وتمني العودة للحياة ثانية ليتفادى ماهو فيه من عذاب في النار.

أما عادة عض الاصابع فلا يقتصر على الندم وحده ، بل تتعداها إلى الغيظ يقول الله تعالى: **(هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)** [آل عمران:١١٩].

فوائد الندم

ركزت إحدى الدراسات على فوائد الندم. وقدمت كولين سافراي الباحثة في جامعة فيكتوريا وزملاؤها في جامعة إلينوي، في نتائج الدراسة المنشورة في مجلة «موتيفيشن أند إيموشين»، أدلة على أن الناس يضعون الندم في منزلة عليا. وفي احد جوانب الدراسة وضع مشاركون في واحد من الاستبيانات، الندم في مرتبة محبّذة، وأشاروا إلى أن شعورهم بالندم قادهم إلى فهم أحداث الحياة، ومكنهم من إيجاد بلسم شاف لأخطائهم التي وقعوا فيها.

http://www3.0zz0.com/2011/12/04/21/152313739.jpg

إن شعورنا بالندم هو الذي يجعلنا نتعلم من الموقف فلا نخطئ مرة ثانية نفس الخطأ لأنه حالة شديدة الإجهاد ترهق العقل والروح لكنه يصبح ذو فائدة اجتماعية ونفسية إذا استطعنا إدارته بمهارة !!وشعور الإنسان المؤقت بالندم يجعله يتأمل التجربة ويفكر في الخيارات الأخرى التي كان يمكن أن يتجه إليها وبذلك يكتسب مهارة التعلم من أخطائه أما إذا استسلم الإنسان للندم بحيث انغمس في تأنيب الذات وتقريعها فلن يصيبه إلا الكآبة والإحباط.

فلاتقل ما فائدة الندم يومئذ!وما قيمة الأسى والاعتراف بالخطأ بعد الاسراف فيه؟ لاتقل لا قيمة لشيء بعد فوات الأوان. لاتقل أين الأخلاء الذين أظهروا في الدنيا المودة ؟ أين إبليس ذو الوعود المعسولة المكذوبة.؟ ولكن قل هناك رباً أسأله العفو والمغفرة ، فالكل يتخلى عنك ويخذلك لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح الذي امتن الله تعالى عليه بقبوله. ولا يشفع إلا لمن أذن الله تعالى له ورضي عنه.

فإذا بدر منك خطأ تندم عليه فلا تقف عند لوم النفس ولا لاتقل ما فائدة الندم!وما قيمة والأسى والاعتراف بالخطأ بعد الاسراف فيه؟لاتقل لا قيمة لشيء بعد فوات الأوان. ولاتتحسر أو تتحسري على اصدقاء أوصديقات السوءأو أين الأخلاء الذين أظهروا في الدنيا المودة ؟ لقد غرك إبليس إبليس ذو الوعود المعسولة المكذوبة وارتكبت ماارتكبت .؟ ولكن قل هناك رباً أسأله العفو والمغفرة ،بعد أن تخلى عنك من أغروك لتعلم أنه لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح الذي امتن الله تعالى عليه بقبوله. ولا شفاعة إلا لمن أذن الله تعالى له ورضي عنه.

الوهم والندم

ونحن نعيش في أجواء الندم لابد أن ننتبه إلى مايمكن تسميته بالندم الوهمي الذي يعتري الانسان دون أن يكون قد ارتكب خطأً فاحشاً بحق نفسه أو بحق الآخرين .هذا الشعور بالندم الوهمي قد يعرقل تفكير الفرد ويجعله يضخم الأخطاء كما هو لدى مريض الاكتئاب ، حيث يعتبر الندم أحد العوامل المكونة للذنب. والذنب أحد المكونات الاساسية للاكتئاب والذى يعد بدوره من أكثر الإضطرابات النفسية شيوعا فى العالم.وأحياناً لايخفف عن ذلك الشعور تقديم الاعتذار للآخرين وإنما تستمر المشاعر السلبية نحو الذات، ومن ثم فإن الضيق الناتج عن هذا التقييم السلبى للذات قد يعيق الفرد عن التعامل بصورة طبيعية مع الواقع. ويجب علينا أن نعلم بأن كل إنسان طبيعي، إذا قام بارتكاب خطأ تتولد لديه مجموعة من المشاعر المؤلمة كالشعور بالذنب واللوم والأسف والخزى والاكتئاب والقلق الاجتماعى والغضب وجلد الذات والخوف والحرج والخزى والذل والشك والوسواس القهرى . والحزن، والضيق والاشمئزاز من النفس والفزع والخوف والازدراء والكره والسخط ووهن العزيمة. وإذا استسلم الإنسان للندم وبالغ في ذلك الشعور ينغمس في تأنيب الذات وتقريعها ،وفي هذه الحالة فعليه أن يبدا صفحة جديدة ، وإلا فإن الكآبة ستصيبه ولن يتخلص من الكآبة والإحباط.

وقد كشفت نتائج بعض الدراسات المسحية التى قام بها احد الباحثين على عينات من طلاب احـــدى الجامعـــات الامريكيـــة تبـــين أن ١٦,٩% مـــن أفـــراد العينـــة يعـــانون مـــن النـــدم . وكتب أحد المتخصصين الأميركيين في علم النفس كتاباً شيقاً بعنوان فلكل منهما طريقته المختلفة في فهم الحياة.. للكلمات معان مختلفة بين الرجل والمرأة، وكذلك الإشارات والمشاعر والأحاسيس، فكل منهما يفهمها بصورة مختلفة.وقال واصفاً هذه الحالة بأن "الرجال من كوكب المريخ والنساء من المشتري»، بمعنى أن الاختلافات بين الجنسين أكبر مما يعتقد البعض،و أدخل البروفيسور في علم النفس ديفيد أموديو من جامعة نيويورك تعديلاً غير عادي الى تلك المقولة، إذ أشار في محاضرة ألقاها أمام طلبة جامعة تكساس في أوستن إلى أن الأبحاث التي أجراها، أو أشرف عليها، أثبتت أن الرجال إذا كانوا من كوكب المشتري فالنساء حتماً من كوكب الشعور بالندم.

وفي عرضه للكتاب قال الأستاذ فضل سالم : "روى مؤلف الكتاب حكاية سيدة جاءت إليه تقول: "أعيش الشعور بالندم منذ وعيت هذه الدنيا ..أندم لأني لم أكن أتصل كما يجب بوالدتي.. أندم لعدم تلبية دعوة صديقة عزيزة لحضور حفل زفافها.. بل انني أندم لأني صفقت الباب على قدم شقيقي الصغير قبل أن أكمل السنوات الخمس من عمري.. حاولت ألا يستنزفني الشعور بالندم على أخطائي، لكن هذا الشعور كان يعاود التربع وسط دماغي بين الحين والآخر، خاصة حين أغمض عيني أملاً بالنوم والراحة بعد عناء يوم كامل" ومضت السيدة قائلة انها أصبحت في الفترة الأخيرة تعيش تحت هاجس الخوف من أن تنسى مناسبة لدى صديقة أو زميلة، فقد باتت حريصة على عدم تكرار أخطاء الأمس.. بل ان هذا القلق امتد في السنوات الأخيرة إلى الرسائل الإلكترونية التي باتت حريصة على متابعتها أكثر من مرة كل يوم حتى لا يفوتها الرد على رسالة بعث بها صديق.وتختم تلك السيدة الحديث عن هذا الشعور بالقول ان الإرادة القوية التي تتمتع بها توفر لها ما يكفي من دروس الماضي لتتعلم منها خاصة بعد أن قرأت دراسة علمية تقول ان المرأة «مصمَّمَة» على أن تتعود الندم.

يعود المحاضر لشرح ماهية الشعور بالندم فيقول انه شعور داخلي ينتاب الإنسان حين يعتقد أنه أساء الى الغير بالقول أو الفعل.. إنه شعور مزعج أو على الأقل غير مريح بالنسبة لغالبية الناس وليس جميعهم، وبالتالي يدفعهم لمحاولة استرجاع ما قالوه أو فعلوه وهو أقرب إلى المستحيل.

ويضيف قائلاً ان رد الفعل لدينا هو الشعور بالتعاطف مع أولئك الذين أسأنا إليهم بالقول أو الفعل، حتى لو لم نكشف للآخرين حقيقة مشاعرنا. وإذا ما قبلنا تحمل المسؤولية عما حدث يتحول الشعور بالتعاطف إلى وجع حقيقي وهذا هو الندم.

يقول المتخصصون إن الندم نوعان: ندم عاطفي والآخر أخلاقي.. والأول هو مجرد شعور نظري قد يسيطر على المرء حتى لو لم يرتكب ذنباً.. أما الأخلاقي فهو الندم الحقيقي لأن المرء في هذه الحالة يلوم نفسه، بل يمكن أن يصل الأمر إلى درجة أن يجلد نفسه بسياط التقريع. وقد يجتمع النوعان وهنا تكون محاسبة الذات وإصدار الأحكام القاسية.وخلال العقود الماضية انهمك المتخصصون في فهم وتحديد الأهداف النفسية للشعور بالندم أو الشعور بالذنب، وكما تقول مجلة " ساينس ديلي Science Daily"

فبعض المتخصصين يعتقدون أن المشاعر العقابية تدفع من يشعر بالندم إلى الانسحاب من المجتمع على أمل تجنب تكرار الخطأ الذي ارتكبه، في حين يعرب آخرون عن اعتقادهم أن الشعور بالندم قوة إيجابية تحافظ على المعايير السليمة والأخلاقية للمجتمع.

ويؤكد البروفيسور أموديو أن الخط الفاصل بين نوعي الشعور بالندم غير واضح تماماً، لكنه يؤكد في الوقت نفسه أن الشعور بالندم يرتبط بالرغبة في الانسحاب من المجتمع والابتعاد عن الناس. وقد تتاح للبعض فرصة تصحيح أخطائهم لكن الأمر وبغض النظر عن نوع الندم أو أسبابه يعتمد على جنس الفاعل.. رجل أوامرأة.

وفي بحث مستفيض أجري في أسبانيا عام ٢٠١٠ جرى استطلاع آراء ثلاث مجموعات من الناس.. ١٥٦ مراهقاً و٩٦ شخصاً تتراوح أعمارهم بين ٢٥ عاماً و٣٥ عاماً.. أما الفئة الثالثة فلمن تجاوز الأربعين ولم يكمل الخمسين وكانت تضم ١٠٨ أشخاص. وحرص القائمون على الدراسة أن تكون كل مجموعة مؤلفة من الرجال والنساء وبأعداد متساوية.السؤال الموحد لجميع المشاركين هو: ما الموقف الذي يثير في داخلك الشعور بالندم أكثر من غيره؟ وتبين في النهاية أن النساء في الفئات الثلاث تملكهن الشعور بالندم أكثر من الرجال، إلى درجة أن أحد المشاركين في البحث قال ان النساء مدمنات على الندم والشعور بالذنب.

ويختم الباحث الأميركي محاضرته بالقول ان الإنسان ما لم يكن مريضاً في عقله أو يتصف بالعدوانية، فمن المستحيل أن يعيش حياته من دون أن يؤنبه ضميره بين الحين والآخر على ما فعل ضد هذا أو قال ضد ذاك.ويضيف قائلاً :" لسنا ملائكة، فكثيراً ما نفعل أشياء يجب ألا نفعلها، ونقول أشياء لا يجوز أن نقولها.. نؤذي الآخرين ربما من دون قصد.. ننسى أشياء يجب ألا تغيب عن بالنا.. وبغض النظر عن التفاصيل فالدرس الذي يجب علينا أن نتعلمه هو أننا بشر، والشعور بالذنب أو الندم صفة بشرية، لكن المهم أن نتعلم من أخطائنا ومن أخطاء غيرنا لأننا لن نعيش حتى نجربها كلها.

قالوا عن الندم :

انـا لا أنـدم علـى مـن ظننتـه صـديقاً فخـذلني
ولا أنـدم علـى مـن ظننتـه حبيبـاً فهجـرني
بـل أنـدم علـى مـن ظننتـه عـدواً فسـاعدني

تحاورثلاثة أصدقاء حول الإحساس الأكثر ألما والأشد قسوة على النفس هل هو الندم ام الظلم أم الخيانة؟

فقال الأول : إنه الندم ، فقسوته على النفس لا توصف وتتمنى لو تعود بك الأيام للوراء حتى لا تفعل ما فعلت وحتى لا تقول ما قلت ،وكم يأخذ منا أياما نحاول فيها معالجة أنفسنا من هذا الإحساس المؤلم

وقال الثاني : بل الظلم لأنه أشد إيلاما للنفس، فالندم إحساس داخلي بينك وبين نفسك إذا تصالحت معها ذهب عنك لكن الظلم إحساس بينك وبين غيرك تحتار نفسك كيف تقنعه انه ظلمك!وكيف ترفع الظلم عنك حتى تنسي نفسك هذا الإحساس المؤلم

وقال الثالث : إنهاالخيانة لأنها الأقسى على النفس فمعها تحس بالندم والظلم معا تندم على ثقتك السابقة فيمن خانك وتشعر بظلمه لك عندما خانك ،إنه صرخة مكتومة لا تجد طريقا للخروج من نفسك فأي عتاب لا يرضيها وأي كلام لا يكفيها .

قال أحد المتأملين :

و لما قسا قلبي و ضاقت مذاهبي

جعلت رجائي دون بابك سلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته

بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجود و تعفو منة و تكرما

فإن تنتقم مني فلست بآيس

و لو دخلت نفسي بجرمي جهنما

و لولاك لم يُغوى بإبليس عابد

فكيف و قد أغوى صفيك آدما

و إني لآتي الذنب أعرف قدره

و أعلم أن الله يعفو ترحما

ولذلك يجب علينا عدم الاستسلام للشعور بالندم إلى مالا نهاية،بل يجب أن يكون شعور الإنسان بالندم مؤقتا بحيث يجعله ذلك الندم يتأمل التجربة ويفكر في الخيارات الأخرى التي كان يمكن أن يتجه إليها وبذلك يكتسب مهارة التعلم من أخطائه ،أما إذا استسلم الإنسان للندم بحيث ينغمس في تأنيب الذات وتقريعها فلن يصيبه إلا الكآبة والإحباط. كما أن الناس يشعرون بالراحة عندما يندمون على خطأ ارتكبوه وفهم أحداث الحياة، وإيجاد بلسم شاف لأخطائهم التي وقعوا فيها.

والادمان على لوم النفس بسبب أو بغير سبب يمكن أن يصل بالشخص إلى أن يجلد نفسه بسياط التقريع. ومحاسبة الذات وإصدار الأحكام القاسية.والانسحاب من المجتمع على أمل تجنب تكرار

الخطأ الذي ارتكبه، دون أن يحول ذلك الندم إلى قوة إيجابية تحافظ على المعايير السليمة والأخلاقية للمجتمع

فمن المستحيل أن يعيش الانسان حياته من دون أن يؤنبه ضميره بين الحين والآخر على ما فعل ضد هذا أو قول ضد ذاك.ونحن لسنا ملائكة، وكثيراً ما نفعل أشياء يجب ألا نفعلها، ونقول أشياء لا يجوز أن نقولها.. وربما نؤذي الآخرين من دون قصد.. وننسى أشياء يجب ألا تغيب عن بالنا.. ولكن الدرس الذي يجب علينا أن نتعلمه هو أننا بشر، والشعور بالذنب أو الندم صفة بشرية، لكن المهم أن نتعلم من أخطائنا ومن أخطاء غيرنا لأننا لن نعيش حتى نجربها كلها.

ولابد على كل انسان التعامل مع شعوره بالندم لا أن يظل مسجوناً في زنزانته .صحيح أن الندم عبارة عن شعور مؤلم بعد القيام بتصرف أو عدة تصرفات تجعل الإنسان يتمنى أن لم يفعلها.

وصحيح أن الندم هو اتجاه المرء إلى داخل نفسه ليهرب من مواجهة تبعات فعل أو قول قام به بحيث تجده يتمنى أنه فعل أو قال شيئاً في موقف مر به ، أو أنه لم يفعل أو يقل شيئاً كان ينبغي عليه التصرف بشأنه بشكل مخالف في ذات الموقف.

كثيرا ما نقع في أخطاء نعض عليها أصابع الندم على عمل أخفقنا به أو فرطنا فيه, أو ذنب اقترفناه أو حماقة ارتكبناها في حق أنفسنا او غيرنا تقودنا للشعور بالحزن والكآبة .. لكن يجب أن لانقف عند الشعوربالندم والألم والحسرة ، بل يجب أن ننقذ أنفسنا من اليأس وأن نوجه الشعور بالندم لصالحنا دون أن نسمح له بأن يبدد جمال حياتنا ,ويؤثر على مستقبلنا.

ثم يجب أن يسأل كل منا نفسه ماذا عساني أن افعل ؟هل سأعيد الماضي أم هل سأقضي بقية حياتي أبكي عليه وأعيش بين طياته والتحسر على أخطائه .؟

صحيح أنه ليس من السهل علينا أن ننسى الماضي ولكن علينا ألا نسمح له أن يسيطر على حاضرنا .. فنفقد الحاضر بريقه وجماله وتألقه ونفقد المستقبل بفرصه السانحة.

التوبة والندم

يتساءل البعض قائلين:لماذا يعتبر الندم شرطا من شروط التوبة فى حين ان الندم الاسلام لا يحث عليه؟، بمعنى أنه عند وجود المعصية فيمكننا أن نتحتج بالقدرولاننندم على شيء قدره الله علينا!

ويحاولون تفسير الأمور على هواهم وايجاد المبررات لاستمرارهم بالغي والضلال ويرفضون الندم على مافعلوا ويفعلون جملة وتفصيلا حتى يعيشون بلا ألم ولاهم ولاندم على ماقترفته أيديهم ،وهؤلاءيتساءلون بمكر : لماذا نتوب ولماذا الندم ولماذا نعتبر الندم شرطا من شروط التوبة في حين ان الاسلام لا يحث على الندم، ويحاولون لي عنق الكلمات فيقولون ألم يقول النبي ﷺ : (ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا , ولكن قل قدر الله وما شاء فعل , فإن لو تفتح عمل الشيطان) متخذين من قول النبي لاتقل لو أني فعلت....حجة على عدم الندم على الذنوب والمعاصي والآثام .

لا بأس أن نندم على أخطائنا ندما يردعنا عن تكرار الخطأ وليس ندماً يحبطنا ويثبطنا ويحزننا، علينا أن ننظر لأخطائنا على أنها تجربة مرت تعلمنا منها دروسا كثيرة لو لم تحصل لما تعلمناها ,فقد يكون الندم على ما مضى دافعا لإصلاح المستقبل .

فلنحـــــاول عقد صلح مع أنفسنا وأن نسامحها على كلما اقترفت وأن نبدأ معها صفحة جديدة تتجاوز فيها أخطاء الماضي .ولنحاول أن لانقف عند فشل الماضي بل نستشرف المستقبل ونتذكر انه ليس عيبا أن نخطئ بل العيب ان نستمر في خطئنا وأن ندرك بأن الماضي ماهو ألا درس للحاضر وأن الرجال الذين حاربو الاسلام زمنا وروجوا لعبادة ألاوثان وسبوا الرسول علية افضل الصلاة والسلام وآذوه كثيرا هم انفسهم من نشر الاسلام وفتح المدن وقاتل وقتل في سبيل الله ,هم انفسهم من اقام صرح الاسلام عاليا باذن الله لم يعرقلهم الندم على الماضي وذكرياتهم السيئة،بل كان الندم دافعا لهم ليكفروا عن اخطائهم وليتقانوا ويخلصوا.

ولنتذكر أنه لازال هناك فرصه مادامت الشمس تشرق والقلب ينبض والذنب يغفر والحياة تسير لازال هناك فرصة مادامت الصحائف لم تطوى والاقلام لم ترفع . والاعمال لم تختم والحسنات يذهبن السيئات.... لازال هناك فرصة .. لنصلح المكسور ونمحي الذنوب .. ونعيد المياه الى مجاريها

قال أحد المتأملين

و لمـــا قســـا قلبـــي و ضـــاقت مذاهبـــي
جعلـــت رجـــائي دون بابـــك سلمـــا
تعاظمنـــــي ذنبـــــي فلمـــــا قرنتـــــه

بعفـــوك ربـــي كـــان عفـــوك أعظمـــا
فمـــا زلـــت ذا عفـــو عـــن الـــذنب لـــم تـــزل
تجـــــود و تعفـــــو منـــــة و تكرمـــــا
فـــإن تنتقـــم منـــي فلســـت بآيـــس
و لـــو دخلـــت نفســـي بجرمـــي جهنمـــا
و لـــولاك لـــم يُغـــوى بإبليـــس عابـــد
فكيـــف و قـــد أغـــوى صفيـــك آدمـــا
وإنـــي لآتـــي الـــذنب أعـــرف قـــدره
وأعلـــــم أن الله يعفـــــو ترحمـــــا

ويتساءل البعض قائلين:لماذا يعتبر الندم شرطا من شروط التوبة فى حين ان الاسلام لا يحث على الاستمرار في الندم إلى مالا نهاية دون التحرك لتعويض مافات ،كما أن الإسلام لايجد عذراً لمن يتحجج بقول المبرر لفعله الخاطئ بأن مافعله كان قدراً من الله ،بمعنى أنه عند وجود المعصية أو ظلم الآخرين ،فإن ذلك الشخص يتحجج بالقدر ويحاول تفسير الأمور على هواه وايجاد المبررات لاستمراره بالغي والضلال ويرفض الندم على مافعل ويفعل جملة وتفصيلا حتى يعيش بلا ألم ولاهم ولاندم على مااقترفته يداه،وهؤلاءيتساءل بمكر : لماذا لأتوب؟ ولماذا الندم؟ ولماذا نعتبر الندم شرطا من شروط التوبة فى حين ان الاسلام لا يحث على الندم،؟هذا الشخص وأمثاله يحاولون لي عنق الكلمات فيقولون ألم يقول النبي ﷺ : (ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا , ولكن قل قدر الله وما شاء فعل , فإن لو تفتح عمل الشيطان) متخذين من ذلك الفهم لقول النبي "لاتقل لو أني فعلت"حجة على عدم الندم على الذنوب والمعاصي والآثام .

والجواب ببساطة :

أولاً :لوسألت أي واحد من هؤلاء بشكل مفاجئ : هل ندمت على شيئ فاتك في الدنيا في أي يوم من الأيام؟ لقال لك بلاتردد نعم مما يدل على ان الندم مكون أساس في وجدان الناس . فلم يريد هؤلاء الندم على كل شيء إلا ارتكابهم للذنوب المعاصي والآثام .

ثانيا : إن المقصود من قول رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم هو النهي عن الندم على المصالح المكتسبة كالخسارة في التجارة مثلاً أو الزواج فهذا الندم في أمور الدنيا .... ولذلك جاءت الاحاديث التي تحث على عدم الندم لتعني عدم الندم من تفويت مصلحه دنيوية فقط حيث ان المصالح كلها تندرج تحت باب الرزق وقال النبي ﷺ في الرزق ان نفسا لن تموت حتى تبلغ اخر رزقها فحينها لا يكون هناك معنى للندم. وليس المقصود بالحديث الشريف عدم الندم في أمور المعاصي والواجبات.

هذ النوع من الندم على المصالح الدنيوية يصرف الإنسان عن الندم الحقيقي لأن هذا الندم على المصالح الدنيوية يؤدي إلى الحيرة والقلق والتوتر والانشغال عن ذكر الله وهذا ماقصده رسولنا الكريم (ص) ، أما الندم على ارتكاب ذنب أو على ظلم شخص ما ، فهذا أمر آخر يوجب تطهير القلب من بعض سواد الذنوب ،والجزء المتبقي من سواد هذه الذنوب في القلب ، يطهره الاستغفار والتوبة والصلاة والحسنات ،ولذلك لا يجوز الخلط بين ندم القلق والحيرة ، و بين الندم المطهر للقلب من سواد الذنوب والندم على فعل ذنب أو ظلم أحد ، هو من علامة الإيمان .

أما الظالم غير السوي فهو الذي لا يندم بل يتلذذ بالذنب، ولا يجوز أن نقول عن معصية (قدر الله وما شاء فعل) لأن الله العظيم لا يقدر فعل الذنوب لكن الله يعلم في علمه السابق لكل وقت ، أننا سنفعل هذا الذنب في يوم كذا وفي مكان كذا قال الله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنبوهم) والتوبة لابد ان تكون عن معصية والمعاصى شر كلها فلا يصح عندها ان نقول قدر الله وما شاء فعل لان فى هذا نسبة للمعصيه لله ولكن الخير من الله والشر من انفسنا وان كان كليهما تقديره. فالندم هو الإحساس بالذنب , والإحساس بالحزن من فعله وهذا يختلف تماما عن الندم على أمر من أمور الدنيا عند اختيار قرار أو فعل أو طريقة خاطئ، يوجب حيرة ، قلق وتوتر وانشغال عن ذكر الله وهذا ماقصده رسولنا الكريم (ص).

يقول نبينا الكريم "الندم التوبة " بمعنى آن مشاعر الندم مقترنة بسلوك ايجابي وهو التوبة التي هي النية والعزم بعدم تكرار ما اعتبرناه خطأ لا يمكن تصحيحه.

والتوبة لابد ان تكون عن معصية والمعاصى شر كلها فلا يصح عندها ان نقول قدر الله وما شاء فعل لان فى هذا نسب المعصيه لله ولكن الخير من الله والشر من انفسنا وان كان كليهما تقديره فالانسان

فاعل مختار لاعماله وان كانت مشيئته تحت مشيئة الله ،ولذلك يندم الانسان على فعل الشر عندما يتوب لانه لا يكون هناك معنى لتوبه لو لم يندم حيث ان ندمه حال التوبه يعنى اعترافه انه وضع شيء في غير محله .

فإذن المقصود من عدم الندم هو عدم المبالغة في الندم على المصالح التي تندرج تحت باب الرزق الذي وصفه النبى ﷺ ،فقال فى الرزق "ان نفسا لن تموت حتى تبلغ اخر رزقها "فحينها لا يكون هناك معنى للندم.ولكن هؤلاء لايستمعون لقول نبينا الكريم "الندم التوبة " بمعنى آن مشاعر الندم مقترنة بسلوك ايجابي وهو التوبة التي هي النية والعزم بعدم تكرار الخطأ.

أما المكاسب الدنيوية فالإسلام لايريد منك أن تذهب نفسك حسرات عليها لأنه عندما يحاصرك الإحساس بالذنب ويتردد في بالك كثيرا لو لم افعل كذا ؟أو لو أني فعلت كذا او لو أني لم أفرط وكنت متيقظا أكثر لكان ذلك أفضل ولكانت الظروف أحسن.. فهذا من وساوس الشيطان ليحزنك ويجعلك تعيش تعيساً وهذا ماعناه الحبيب عليه أفضل الصلاة والتسليم وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان .

ثانياً: إن هؤلاء العصاة فاتهم أن المقصود من قول رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم "ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا , ولكن قل قدر الله وما شاء فعل , فإن لو تفتح عمل الشيطان" هو النهي عن الندم على المصالح الدنيوية المكتسبة، كالخسارة في التجارة مثلاً أو الفشل في الزواج ، فهذا الندم في أمور الدنيا .... ولذلك جاءت الاحاديث التى تحث على عدم الندم لتعني عدم الندم على تفويت مصلحه دنيوية فقط ، حيث أن المصالح كلها تندرج تحت باب الرزق وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الرزق ان نفسا لن تموت حتى تبلغ اخر رزقها فحينها لا يكون هناك معنى للندم. وليس المقصود بالحديث الشريف عدم الندم في أمور المعاصي والواجبات.

هذ النوع من الندم على المصالح الدنيوية يصرف الإنسان عن الندم الحقيقي لأن هذا الندم على المصالح الدنيوية يؤدي إلى الحيرة والقلق والتوتر والانشغال عن ذكرالله وهذا ماقصده رسولنا الكريم (ص) ، أما الندم على ارتكاب ذنب أو على ظلم شخص ما ، فهذا أمر آخر يوجب تطهير القلب منه ، أما الجزء المتبقي من سواد هذه الذنوب في القلب ، فلا يطهره الاستغفار والتوبة والصلاة والحسنات ،

ولذلك لا يجوز الخلط بين ندم القلق والحيرة ، و بين الندم المطهر للقلب من سواد الذنوب والندم على فعل ذنب أو ظلم أحد ، هو من علامة الإيمان .

أما الظالم غير السوي فهو الذي لا يندم بل يتلذذ بالذنب، ولا يجوز أن نقول عن معصية (قدر الله وما شاء فعل) لأن الله العظيم لا يقدر فعل الذنوب لكن الله يعلم في علمه السابق لكل وقت ، أننا سنفعل هذا الذنب في يوم كذا وفي مكان كذا قال الله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنبوهم) ،والتوبة لابد ان تكون عن معصية والمعاصى شر كلها فلا يصح عندها ان نقول قدر الله وما شاء فعل لان فى هذا نسبة للمعصيه لله ولكن الخير من الله والشر من انفسنا وان كان كليهما تقديره. فالندم هو الإحساس بالذنب , والإحساس بالحزن من فعله وهذا يختلف تماما عن الندم على أمر من أمور الدنيا عند اختيار قرار أو فعل أو سلوك طريق خاطئ، لأن ذلك النوع من الندم يسبب الحيرة ، قلق وتوتر وانشغال عن ذكرالله وهذا ماقصده رسولنا الكريم (ص).

يقول نبينا الكريم "الندم التوبة " بمعنى آن مشاعر الندم مقترنة بسلوك ايجابي وهو التوبة التي هي النية والعزم بعدم تكرار ما اعتبرناه خطأ لا يمكن تصحيحه.

والتوبة لابد ان تكون عن معصية والمعاصى شر كلها فلا يصح عندها ان نقول قدر الله وما شاء فعل لان فى هذا نسب المعصيه لله لكن الخير من الله والشر من انفسنا وان كان كليهما تقديره فالانسان فاعل مختار لاعماله وان كانت مشيئته تحت مشيئة الله ،ولذلك يندم الانسان على فعل الشر عندما يتوب لانه لايكون هناك معنى لتوبه لايصاحبها أو يسبقها ندم لأن الندم يعنى اعترافه انه وضع شىء فى غير محله .

فإذن المقصود من عدم الندم هو عدم المبالغة في الندم على المصالح التي تندرج تحت باب الرزق الذي وصفه النبى ﷺ ،فقال فى الرزق "ان نفسا لن تموت حتى تبلغ اخر رزقها "فحينها لا يكون هناك معنى للندم.ولكن هؤلاء لايستمعون لقول نبينا الكريم "الندم التوبة " بمعنى آن مشاعر الندم مقترنة بسلوك ايجابي وهو التوبة التي هي النية والعزم بعدم تكرار الخطأ.

أما المكاسب الدنيوية فالإسلام لايريد منك أن تذهب نفسك حسرات عليها لأنه عندما يحاصرك الإحساس بالذنب ويتردد في بالك كثيرا لو لم افعل كذا لكان كذا !أو لو أني فعلت كذا لكان كذا !او لو أني لم أفرط وكنت متيقظا أكثر لكان ذلك أفضل ولكانت الظروف أحسن!.. فهذا من وساوس الشيطان

ليحزنك ويجعلك تعيش تعيساً وهذا ماعناه الحبيب عليه أفضل الصلاة والتسليم "وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان"

يقول الرسول الكريم عليه افضل الصلاة والتسليم لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم.

فالمقصود هو عدم الاستسلام للشعور بالندم إلى مالا نهاية،وأن يكون شعور الإنسان بالندم مؤقتا بحيث يجعله يتأمل التجربة ويفكر في الخيارات الأخرى التي كان يمكن أن يتجه إليها وبذلك يكتسب مهارة التعلم من أخطائه أما إذا استسلم الإنسان للندم بحيث ينغمس في تأنيب الذات وتقريعها فلن يصيبه إلا الكآبة والإحباط. كما أن الناس يشعرون بالراحة عندما يندمون على خطأ ارتكبوه و فهم أحداث الحياة، وإيجاد بلسم شاف لأخطائهم التي وقعوا فيها.

والادمان على لوم النفس بسبب أو بغير سبب يمكن أن يصل بالشخص إلى أن يجلد نفسه بسياط التقريع. ومحاسبة الذات وإصدار الأحكام القاسية.والانسحاب من المجتمع على أمل تجنب تكرار الخطأ الذي ارتكبه، دون أن يحول ذلك الندم إلى قوة إيجابية تحافظ على المعايير السليمة والأخلاقية للمجتمع

فمن المستحيل أن يعيش الانسان حياته من دون أن يؤنبه ضميره بين الحين والآخر على ما فعل ضد هذا أو قول ضد ذاك.ونحن لسنا ملائكة، وكثيراً ما نفعل أشياء يجب ألا نفعلها، ونقول أشياء لا يجوز أن نقولها.. وربما نؤذي الآخرين من دون قصد.. وننسى أشياء يجب ألا تغيب عن بالنا.. ولكن الدرس الذي يجب علينا أن نتعلمه هو أننا بشر، والشعور بالذنب أو الندم صفة بشرية، لكن المهم أن نتعلم من أخطائنا ومن أخطاء غيرنا لأننا لن نعيش حتى نجربها كلها.

ولابد على كل انسان التعامل مع شعوره بالندم لا أن يظل مسجوناً في زنزانته .صحيح أن الندم عبارة عن شعور مصحوب بالحزن والعار، والخجل، والاحباط، والانزعاج، أو الشعور بالذنب بعد القيام بتصرف أو عدة تصرفات تجعل الإنسان يتمنى أن لم يفعلها.

وأن الندم هو اتجاه المرء إلى داخل نفسه ليهرب من مواجهة تبعات فعل أو قول قام به أو لم يقم وا به وتجدهم يتمنون أنهم فعلوا أو قالوا شيئاً في موقف مروا به ، أو أنهم أو لم يفعلوا أو يقولوا شيئاً في ذات الموقف.

كثيرا ما نقع في أخطاء نعض عليها أصابع الندم على عمل أخفقنا به أو فرطنا فيه, أو ذنب اقترفناه ، أو حماقة ارتكبناها في حق أنفسنا او غيرنا تقودنا للشعور بالحزن والكآبة ..

لكن يجب أن لانقف عند الشعوربالندم والألم والحسرة ، بل يجب أن ننقذ أنفسنا من اليأس وأن نوجه الشعور بالندم لصالحنا دون أن نسمح له بأن يبدد جمال حياتنا ,ويؤثر على مستقبلنا.

ثم يجب أن يسأل كل منا نفسه ماذا عساني أن افعل ؟

هل سأعيد الماضي أم هل سأقضي بقية حياتي أبكي على الماضي والعيش بين طياته والتحسر على أخطائه

صحيح أنه ليس من السهل علينا أن ننسى الماضي ولكن علينا ألا نسمح له أن يسيطر على حاضرنا .. فنفقد الحاضر بريقه وجماله وتألقه

لا بأس أن نندم على أخطائنا ندما يردعنا عن تكرار الخطأ .. وليس ندماً يحبطنا ويثبطنا ويحزننا

علينا أن ننظر لأخطائنا على أنها تجربة مرت تعلمنا منها دروسا كثيرة لو لم تحصل لما تعلمناها ,فقد يكون الندم على ما مضى دافعا لإصلاح المستقبل

فلنحـــــاول عقد صلح مع أنفسنا وأن نسامحها على كل ما اقترفت وأن نبدأ معها صفحة جديدة تتجاوز فيها أخطاء الماضي .

وأن لانقف عند فشل الماضي بل نستشرف المستقبل ونتذكر انه ليس عيبا أن نخطئ بل العيب ان نستمر في خطئنا وأن ندرك بأن الماضي ماهو ألا درس للحاضر وأن الرجال الذين حاربو الاسلام زمنا وروجوا لعبادة ألاوثان وسبوا الرسول علية افضل الصلاة والسلام وآذوه كثيرا هم انفسهم من نشر الاسلام

وفتح المدن وقاتل وقتل في سبيل الله ,هم انفسهم من اقام صرح الاسلام عاليا باذن الله لم يعرقلهم الندم على الماضي وذكرياتهم السيئه.. بل كان الندم دافعا لهم ليكفروا عن اخطائهم وليتقانوا ويخلصوا .

ولنتذكر أنه لازال هناك فرصه مادامت الشمس تشرق والقلب ينبض والذنب يغفر والحياة تسير لازال هناك فرصة مادامت الصحائف لم تطوى والاقلام لم ترفع . والاعمال لم تختم والحسنات يذهبن السيئات.... لازال هناك فرصة .. لنصلح المكسور ونمحي الذنوب .. ونعيد المياه الى مجاريها يقول الرسول الكريم عليه افضل الصلاة والتسليم لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم

قال ابو العتاهية

الهي لا تعذبني فاني.....مقر بالذي قد كان مني
فكم من زلة لي في البرايا.....وانت على ذو فضل ومن
اذا فكرت في ندمي عليها.....عضضت انامليي وقرعت سني
وما لي حيلة الا رجائي.....وعفوك ان عفوت وحسن ظني
يظن الناس بي خيرا واني.....لشر الناس ان لم تعف عني

السخرية والندم:

إن مايحطم معنويات أصحاب الفكر النير والاستنتاجات المنطقية أو العلمية هو استهزاء الآخرين بهم وبتحذيراتهم أواستخفاف ألئك المستهزؤن بنتائج أبحاثهم أوالسخرية منهم وإشاعة التعليقات اللاذعة التي تحط من شأنهم والتندر بقصص فكاهية يلمزونهم بها ، بينما كان هؤلاء ولازالوا هم من يستحق الإحترام والتقدير لا الإهمال والتهميش . ولاشك أن تلك العادة الذميمة لاتؤثر سلباً على مسيرة العلماء وحدهم ولكنها معول هدم في المجتمع الذي يتخذ من الفكاهة السمجة أداة لإضحاك الآخرين دون مراعاة لشعورمن تمسه سهام كلماتهم الجارحة.

ولكن المصيبة أكبر عندما يتعلق الأمر بالعلماء والمفكرين وبعيدي النظر .وهذا من سوء حظ المستهزئين والمستهزأ بهم لأن العواقب الوخيمة تنزل على الجميع نزول الصاعقة بسبب هذا الاستهزاء والاستخفاف ، ثم يعض ألئك أصابع الندم، ولكن بعد فوات الأوان .

ولم يكن بعيدو النظر هم وحدهم من عانى من استخفاف الآخرين ، ولكن الأنبياء والمرسلين لاقوا من السخرية والعنت والجحود مالم يلقاه غيرهم ، بل إن العلماء التجريبيين الذين تخضع نتائج أبحاثهم للتجربة والبرهان لم يسلموا من الاستهزاء وعانوا من سخرية الناس في بداية حياتهم أو حتى بعد أن أعلنوا عن نتائج أبحاثهم وسنضرب أمثلة لذلك من قصص بعض الأنبياء والحكماء والعلماء.

١ . السخرية بالأنبياء

هناك آيات تتحدث عن الاستهزاء والسخرية بالانبياء(عليهم السلام) من قِبل مناوئيهم، ويمكن تقسيمها الى عدة أقسام:

الأُولى:آيات تخبر عن هذه الحقيقة الاجتماعية والتاريخية المرّة بصورة عامة وتقول بانه لم يُبعث نبي في مجتمع على طول التاريخ الا وقد استهزأ به بعض الافراد في المجتمع كقوله تعالى:

(يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) [يس ٣٠]

(وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ [الحجر ١١].

(وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيّ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) [الزخرف ٧].

الآيات المذكورة من خلال بيان هذه الحقيقة التاريخية القطعية وهي الاستهزاء بالانبياء من قِبل جهلة الناس تذم هذا الفعل القبيح بتعابير مختلفة.

الثانية: آيات تبين العاقبة السيئة والعذاب المعدّ للذين كانوا يستهزئون بالانبياء(عليهم السلام) كقوله تعالى:

(وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُل مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) [الانبياء ٤١].

(وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ) [الجاثية]

وبعض آيات الكتاب تشير الى انّ المستهزئين يتحسرون ويندمون على افعالهم حيث تقول:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ) [الزمر ٥٦].

وبعض الآيات تشير الى الجزاء الحسن الذي أعدّ للمستهزَء بهم ومواساتهم، كقوله تعالى:

(فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ).[المؤمنون ١١٠ و ١١١]

وتشير بعض الآيات الى الجذور النفسية لهذا الاستهزاء بان هذا التعامل غيرالعقلائي وغيرالمنطقي مع الانبياء(عليهم السلام)واولياء الله وآياته ينشأ من السيرة السيئة والتلوث الأخلاقي والعملي وبالتالي سوف يؤدي ذلك الى التكذيب بآيات الله سبحانه والاستهزاء بها كقوله تعالى:

(ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ)[. الروم ١٠].

وتشير بعض آيات القرآن الكريم الى موارد معينة من الاستهزاء بالانبياء(عليهم السلام)، منها استهزاء قوم نوح(عليه السلام)، حيث تتحدث عن انّ النبي نوحاً(عليه السلام) الذي مضى اكثر من ألف عام على عمره الشريف حينما يئس من دعوة قومه بدأ بصنع السفينة لكي ينجو المؤمنون واتباعه بركوبها من العذاب الالهي والغرق، الاّ انّ قومه حينما شاهدوه وهو يقوم بصنع السفينة في مكان لا ماء فيه أخذوا بالاستهزاء به. وقد أخبر الله سبحانه عن هذا الحدث بقوله:

(وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ). [هود ٣٨ و ٣٩].

وكذلك كان الأمر حينما ضحك آل فرعون واستهزؤوا وسخروا من موسى(عليه السلام)، قال تعالى بهذا الشأن:

(فَلَمّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ) [الزخرف ٤٧].

وحينما أشار لقرآن الكريم الى استهزاء كفار ومشركي قريش وعبدة الأصنام في مكة برسول الاسلام الكريم (ﷺ)، فقد قال تعالى في آية:(وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً)[. الفرقان ٤١.

ويخبرنا الله تعالى في بعض الآيات [الصافات والجاثية] بانهم كانوا يسخرون باقوال النبي وآيات الله، و يستهزئون بالمؤمنين وأتباع رسول الله(ﷺ)، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ * وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) المطففين[٢٩ . ٣١.]

فالسخرية منهج الكافرين منذ بعث الله تعالى إلى الناس رسلا وذلك ما حدث به القرآن الكريم النبي محمدا عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ليعرف من تجارب من سبقه من الرسل الكرام طبيعة الخصوم ويستعد لمواجهة مواقفهم ولا يفاجأ بما سيكون منهم ، وبالفعل ،فقد ضلت بالظالمين السبل فقالوا عن الرسول الكريم إنه ساحر وشاعر وكاهن وكاذب ومجنون، وضل عنهم ما دعاهم إليه الرسول الكريم وقدم لهم كل الإثباتات على صحة دعوته، وأهمها القرآن العظيم،

وقد تعددت الآيات الكريمة التي تحدثت عن سخرية السابقين من أنبيائهم ،وجاء هذا الحديث مجملا في مواضع كما جاء مفصلا في قصص الأنبياء ومن الحديث المجمل عن الاستهزاء قوله تعالى :(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين *وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون *كذلك نسلكه في قلوب المجرمين *لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين *ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون *لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون *)(االحجر ١٠-١٥)

بل نجد القرآن الكريم يتحدث بنبرة حزينة عن العباد الذين نسوا ربهم ولم يستجيبوا لمن جاءهم من الرسل يدعونهم إلى الله تعالى بل كذبوهم واستهزؤوا بهم : (يا حسرة على العباد ما يأتيم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (سورة يس ٣٠)

بل إن الكفار لم يستهزئوا بالمرسلين فحسب بل أصاب الاستهزاء آيات الله تعالى ولم يرجوا لله وقارا ولم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا رسوله ولم يخافوا مما أنذرهم به من عاقبة التكذيب :(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) (الكهف ٥٦)

وحدثنا القرأن عن هؤلاء المكذبين الذي وصفهم بالأحسرين أعمالا وما كانوا كذلك إلا بتكذيبهم واستهزائهم بآيات الله ورسله :(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا)

وهناك آيات تحدثت عن استهزاء الأمم برسلها وكان فيها التخفيف عن النبي ﷺ والإنذار للمستهزئين به بالعذاب وإن تأخر عنهم إلى حين ،قال تعالى

(ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) [الرعد ٣٢]

وفي قول الله تعالى (إنا كفيناك المستهزئين) دعوة من الله تعالى لرسوله وللدعاة من بعده إلى ألا يلتفتوا إلى المستهزئين ولا يشغلوا بالهم بهم لأن الله تعالى تكفل بعذابهم. وفي هذا درس لنا حين نواجه الاستهزاء أن نعرض عن المستهزئين ولا نرفع من قيمتهم بالاهتمام بهم والوقوف عند تفاهاتهم وترهاتهم والقيام بحملات تسهم في نشر سوئهم بغفلة وسذاجة أحيانا والأولى أن نسلك في مواجهة السخرية طريق التبليغ والبيان لدين الله (بلغ ما أنزل إليك من ربك)

وأما الكافرون المستهزؤون المعرضون المعاندون فالمطلوب منا وفق المنهج القرآني أن نعرض عنهم ولا نشغل أنفسنا بهم لأنهم قواطع على طريق الدعوة يسعون إلى إشغال الدعاة بأمور توقفهم عن مسير ة الدعوة .

إن الناظر في القرآن يجد حديثا عن المستهزئين وعاقبتهم لكنه لا يجد حوارا معهم في سخريتهم واستهزائهم .

إننا نجد الحوار في القضايا الجادة التي هي محور الدعوة : الإيمان بالله واليوم الآخر والنبوة والبعث وما بعده من حساب ونار وجنة وهذا يستغرق مساحة كبيرة في القرآن الكريم لأنه يمثل قضايا إنسانية مهمة تستحق الوقوف والحوار .

سخرية قوم نوح :

وننتقل إلى قصص الأنبياء لنختار قصة نبي الله نوح لنرى تجليات السخرية في تلك القصة وكيفية مواجهته لها حيث نجد أن سخرية قومه تجلت في أمور منها:

الشك في نبوة نوح ومن ثم الكفر بما جاء به فالوقوف موقف العناد ومناكفة نوح ومن آمن مع ، والتجلي الآخر للسخرية كان في التهوين من شأن المؤمنين الذين لم يكونوا من علية القوم بل من العامة.

كان استهزاء قوم نوح أقرب مايكون إلى العناد والتمسك بما كانوا عليه من عقائد فرفضوا نبوة نوح ولم يرق لهم أن يكون الأتباع من العامة استجابة لتقاليدهم الاجتماعية بعد أن جعلوا أحد شروط إيمانهم هو طرد المؤمنين من العامة وإفساح المجال للملأ ،وقد رفض نوح هذه الطبقية في الإيمان وكان موقفه موقف القوي المهاجم في دفاعه.فكان رد نوح عليه السلام هو رد المبيّن المبلّغ عن ربه المدافع عن من آمن بما أنزل عليه ولم يشغله أمر سخريتهم عن تبليغ الدعوة ولم يقف موقف المدافع بل المبيّن الواثق مما عنده ولذلك رد على ما قالوه ببيان شاف سعى به إلى هدم ما هم عليه من باطل ، فأكد لهم بأنه لا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب ولا يدعي أنه ملك ، أما أمر المؤمنين بالله من أتباعه فهو موكول إلى ربهم لأنه رسول مؤمن بما عنده من بينة ، قال تعالى :(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون *ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين) (هود٢٧-٣١)

ولكننا نجد قوم نوح يصرون على الإستهزاء به مبدين استغرابهم وعجبهم من بنائه سفينة وهم في ديار ليست بحرية وذلك من جهلهم بقدرة الله تعالى ولذلك واجه نوح سخريتهم بمثلها

وجعل مع السخرية المضادة تهديدا بسوء العاقبة

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون *فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)(هود٣٨-٣٩). حتى غمرهم الطوفان ، فعضوا أصابع الندم ولكن بعد فوات الأوان .

إن ما نستخلصه من موقف قوم نوح وسخريتهم ورد نوح عليهم : أن الداعية ينبغي أن يكون قويا في الحق واثقا من دعوته مستمدا العزيمة من ربه وأن يجعل البيان والتبليغ وإقامة الحجة هدفه الأول وأن يقف موقف الهجوم لا الدفاع، وإذ ادافع فهو دفاع القوي لا المهزوم ولا المستضعف وأنه إن وصل مع من يدعوهم إلى طريق مسدود فله أن يرد على السخرية بمثلها ولكن لا ينشغل بها أكثر مما تستحق ويمضي يحقق مراد ربه منه .

قصص من تاريخنا :

بعد أن تطرقنا لموضوع تجاهل الناس لنصائح الأنبياء والرسل ثم عضهم على أصابع الندم لتجاهلهم الهداية وتعنتهم وإصرارهم على الباطل ن سنعود لذكر أمثلة لبعض بعيدي النظر الذين نصحوا أقوامهم فلم يستمعوا لنصحهم فكانت النتيجة هي أنهم عضوا أصابع الندم حسرة على إضاعتهم للنصيحة .

٢ . السخرية من العلماء والمخترعين

لم يكتف الساخرون بالإستهزاء بالرسل والأنبياء أو الحكماء وبعيدي النظر من قومهم ،ولكنهم يستهزؤون ، كذلك ، بالنتائج حتى وإن رأوا ذلك رؤيا العين ، فنجدهم يستمرون باستهزائهم بالعلماء الذين اشتغلوا بالعلم التجريبي ، ولم تشفع لهؤلاء العلماء تجاربهم العلمية التي يعود نفعها على هؤلاء المستهزئين أنفسهم ،وغالباً ما يعض هؤلاء المستهزئون أصابع الندم، ولكن بعد فوات الأون . ونضرب أمثلة

١ . الطبيب الكوبي كارلوس فنلي

كان داء الحمى الصفراء يفتك بأعداد غفيرة من بن وطنه والذي انتقل منه مع قوافل السفن التجارية إلى مختلف أنحاء المناطق الحارة في العالم.

سمع كارلوس فنلي أن بعض أنواع البعوض تنقل الملاريا إلى الإنسان فرأى أن يطبق نفس الفكرة على مرضى الحمى الصفراء ،وقد توصل إلى أن سببه البعوض.وكتب في مذكراته قائلاً :"إن العدوى تتمم عن طريق نقل مادة معينة موجودة في دم المريض إلى عروق الشخص السليم عن طريق البعوض أثناء تغذيته على دم الشخص السليم "ولا يمكنني للأسف أن أخضع تلك الأفكار للتجريب لعدم توفر الأدوات الضرورية لإجراء مثل تلك التجارب." وسخرمنه رفاقه العلماء واستهزؤوا به.

ولكنه ظل مصراً على رأيه دون أن يلتفت إلى نتائجه أحد. وقد شغلت هذه النتائج التي استنتجها عن الحمى الصفراءً كل وقته ،وأهمل عيادته حتى هجرها تماماً وبات يمضي كل وقته في معمله الصغير للبحث والتنقيب ، وأخذ يبحث في الغابات عن كل ما يقع تحت بصره من أنواع البعوض ثم يرجع بها إلى معمله لفحصها تحت عدسات المجهر ويربي بعضاً منها لكي يستشف أطوار نموها . وبعد أن بذل الكثير من الجهد تمكن كارلوس فنلي من الوصول إلى نوع البعوضة التي تنقل عدوى مرض الحمى الصفراء وهي بعوضة الإيدس وأن عمرها يمتد حتى سبعين يوماً وأن أفضل الأجواء لنموها وتكاثرها هي المناطق الحارة الرطبة وعليه فلن يتسنى القضاء على الحمى الصفراء إلا بالتخلص من تلك البعوضة التي تنقل البكتيريا الدقيقة المسببة للعدوى ولم يسمع لنتائجه أحد ن وخاصة ذوي الاختصاص من الأطباء الذين أخذوا يستهزؤون به ولقبوه بطبيب البعوض سخرية منه فضلاً عن التجاهل الواضح من قبل الهيئات العلمية لأفكاره التي يقوم بنشرها في المجلات الطبية المتخصصة .

ولكن في عام ١٨٩٨ اندلعت الحرب بين أسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية وخلفت وراءها عددا كبيرا من الجنود المصابين بالحمى الصفراء وتوفى الآلاف منهم وتبين أن عدد القتلى بمرض الحمى الصفراء يوازي عدد القتلى بالرصاص والبارود إن لم يكن قد تجاوزه ،فأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية بأن بقاءها في أسبانيا مرهون بالقضاء على الحمى الصفراء ، و قامت بتشكيل بعثة طبية من أكفأ الأطباء للسفر إلى كوبا للتعرف على كيفية القضاء على مرض الحمى الصفراء. وعلى الفور وبعد وصول البعثة الطبية الأراضي الكوبية حتى بدأت في تشريح جثث القتلى الذين لقوا حتفهم بالحمى الصفراء باحثين عن الكائن الحي الدقيق المسبب للمرض بين ثنايا الجثث الملقاة أمامهم ،غير أنهم

أخفقوا في الوصول إلى أسباب هذا المرض، ولكن بعضهم أشار عليهم باللجوء إلى إلى طبيب البعوض (فنلي) الذي طالما سخروا منه ، فهرعوا إليه طالبين منه العون والمساعدة العاجلة ، فوجد فنلي في زيارتهم له ما يرد إليه بعضاً من كبريائه بعد طول تجاهل ، وصحبهم الطبيب إلى معمله الصغير وأطلعهم على أنواع البعوض وخاصة البعوضة التي تقوم بنقل عدوى الحمى الصفراء،فتبين لهم صدق نتائجه المهملة واعترفوا بها ، وعضوا أصابع الندم على مابدر منهم ووضعوا أرجلهم على أول طريق حل تلك المشكلة ،ونجحت البعثة في الحصول على مبتغاها وتمت محاربة تلك البعوضة أينما وجدت بردم البرك والمستنقعات ورش الزيت القاتل على يرقات هذا البعوض داخل خزانات المياه، أما فنلي فقد استحق كل الثناء والتقدير على أفكاره التي سخر منها الجميع وكذبها الكافة.

٢ . دي فورست

وقصة أخرى حدثت في مدينة نيويورك ،بعد أن عرضت في إحدى المحاكم الاتحادية بمدينة نيويورك قضية شخص اسمه "دي فورست " في الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٩١٣. وبدأ ممثل الاتهام يتهكم ويستهزئ بمخترع شاب هزيل الجسم رث الثياب، وأخذ يكيل له تهماً انصبت عناصرها على الخداع والنصب والاحتيال على عدد من الأبرياء ليبتز أموالهم في مشروع وهمي لا يصدقه إلا كل عقل ضعيف ، وقد عرض ممثل الاتهام بيده الدليل وهو يلوح به أمام هيئة المحكمة ممسكاً بانتفاخ زجاجي الحجم خفيف الوزن تبرز من داخله الى خارجه بعض الأسلاك التي لا تعني شيئاً في عقول الناس ، وبلهجة يشوبها الاحتقار والتسفيه شارحاً للمحكمة كيف أن المتهم "دي فورست" قد وقّع بإمضائه قرارات غريبة متعمدة التضليل وهي برمتها تشير الى أن هذا الجهاز سوف ينجح في نقل الصوت البشري يوماً عبر المحيط الأطلنطي .

ويستطرد ممثل الإتهام قائلاً "إن المحتال دي فورست قد أقنع بعض المستثمرين السذج بدفع أسهم مالية تتراوح قيمتها ما بين عشرة وعشرين دولاراً في شركة حملت اسمه، وحث ممثل الاتهام هيئة المحكمة أن توقع باسم شعب الولايات المتحدة أقصى عقوبة على هذا الشاب وشريكيه اللذين سانداه في عملية التغرير نتيجة لإدعاءاتهم المضللة للناس

وبالفعل إقتيد زميلا فورست الى السجن أما هو فقد أطلقت هيئة المحكمة سراحه بعد أن لقنته درساً قاسياً ناصحة إياه بأن يتخلى عن التظاهر بكونه مخترعاً ،ويحاول العثور على أي وظيفة عادية يأكل منها قوت يومه.

لم تكن عقول ممثل الاتهام وهيئة المحكمة وكل الناس في ذلك الزمان مهيأة لتقبل فكرة إمكان نقل المكالمات عبر المحيط أو أي مكان آخر دون الاستعانة بأسلاك الهاتف التقليدية واعتبروا فكرة دي فورست أو أنبوبته المتواضعة خبلاً وغباءً لا يستقيم مع فكر صائب وعقل راجح ،ومن أجل هذا كانت تلك المحاكمة الظالمة.

لم يكن هذا الانتفاخ الزجاجي "العديم القيمة" الذي أوشك أن يزج بفورست في السجن –لم يكن إلا أنبوبة "الاوديون" التي ثبت بعد ذلك أنها أعظم اختراع في القرن العشرين وواحدة من الابتكارات المذهلة التي أنتجها عقل الانسان اذ كانت هذه الأنبوبة الزجاجية المتواضعة بمثابة النواة لمكبرات الصوت ، والاتصالات الهاتفية عبر المحيطات ونقل الصور بالموجات ،كما دخلت في صناعة السينما الناطقة ،وفي أجهزة الرادار وغير ذلك من ابتكارات الكترونية عديدة .لقد كانت أنبوبة "الأوديون" بمثابة مصباح علاء الدين الذي سيطر على الالكترون ومنحه قوة جني عملاق.

والواقع أننا قدمنا هذه الواقعة ليس من قبيل رواية الطرائف بل لتوضيح ما جبل عليه الناس من رفض الأمور التي لا تتمشى مع الأفكار التقليدية السائدة في زمانهم.

والتاريخ العلمي زاخر بأحداث كثيرة تعرض لها العلماء وقوبلت أفكارهم بالإنكار أو التعذيب أو السجن أو حتى الموت إعداماً وحرقاً ،وحتماً إننا وسنكون امام مستقبل سيحمل في طياته مفاجآت ضخمة قد لا تستوعبها عقولنا الحالمة وستبدوا اختراعاتنا الحديثة والمتطورة في كل فرع من فروع العلم المختلفة كما بدت أنبوبة الأوديون مثلاً أمام ممثل الاتهام وهيئة المحكمة ،فكما أن هؤلاء لم يستوعبوا فكرتها ولا أهميتها كذلك قد لا نستوعب نحن التغيير الجذري الذي سيطرأ على حياة الناس بعد مائة أو مائتين أو ألف عام

٣ . العالم الإيطالي افوجادرو

ومثال آخر هو العالم الإيطالي افوجادرو الذي يعتبر Avogadro مثالاً عجيباً لسوء الطالع الذي قد يصيب العلماء . فبالرغم من شهرته المدوية في مجال العلوم الطبيعية نظير فرضيته العلمية المهمة القائلة بأن ألأحجام المتساوية من الغازات تحتوي على عدد متكافئ من الذرات ، وكذلك لإسهاماته الكيميائية المتعددة والتي من ضمنها استحداث مصطلح الجزئيات ، إلا أن هذا الكيميائي الذي بدأ حياته العملية بمهنة المحاماة ثم تحول إلى الكيمياء ليصبح أستاذاً جامعياً فيها ، كتب عليه أن يموت شبه

مغمور وأن لا تقبل أفكاره العلمية إلا بعد وفاته بزمن . وفي الواقع فإن فرضياته العلمية لم تقبل إلا بعد أكثر من نصف قرن من طرحها وذلك عندما دافع عنها وأثبتها أحد تلاميذ أفوجادرو الإيطاليين . والسبب في عدم قبول المجتمع العلمي لفرضياته عائد جزئيا إلي إهمال افوجادرو لنفسه، حيث اشتهر عنه اللامبالاة في إجراء التجارب بدقة أو إعطاء بيانات علمية صحيحة.

من سخرية الأقدار أن نذكر أن هذا العالم الإيطالي المنحوس تسبب أيضاً (وإن كان لا يد له في ذلك هذه المرة) في ضياع شهرة عالم أخر هو العالم النمساوي لوشمدت Loshmidt الذي كان أول من حسب بدقة مذهلة عدد الذرات أو الجزيئات في مول واحد من المادة . حيث نسب هذا العدد المُقدر إلى العالم افوجادرو ربما لأن فكرة المول أساساً قامت على فرضيته . وبهذا ظهر الي الوجود مفهوم عدد افوجادرو الذي لم يحسب أساساً إلا بعد وفاة الأخير بتسع سنوات كاملة . وكأن المجتمع العلمي في ذلك العصر أراد أن يكفر عن خطيئة تجاهله لأفكار افوجادرو ولكن على حساب لوشمدت المغمور. . .

٤ . مايكل فراداي

يعتبر مايكل فراداي Faraday واحداً من أهم العلماء في العصور الحديثة . لقد قام أستاذ الكيمياء بالمعهد الملكي البريطاني هذا باكتشاف العديد من المركبات العضوية من أشهرها :

الـ benzene وكذلك إسالة العديد من الغازات وغير ذلك من الاكتشافات الكيميائية. وبالرغم من أنه بدأ حياته العلمية ككيميائي مبدع إلا أن انجازاته و شهرته التي بلغت الخافقين كانت في علم الفيزياء حيث لقب بأبو الكهرباء . فاكتشافاته واختراعاته وقوانينه في الكهرباء والمغناطيسية هائلة جداً حيث كان أول من أنتج تيار كهربائي من المجال المغناطيسي واخترع المولد الكهربائي . لكن العجيب والغريب في حياة هذا العبقري أنه لم يتعلم إلا القراءة والكتابة فقط فقد كان أبناً لأب حداد ومريض لم يستطع إطعامه وإطعام أخوته فضلاً عن أن يعلمه . ولهذا اضطر فراداي أن يعمل منذ الصغر كموزع للجرائد ومن ثم عامل في مكتبة تقوم بتجليد الكتب ولذا أخذ يقرأ كثيراً مما يقع تحت يده وهو ما يزال في ١٤ سنة من العمر، وعندما أعجب بمقال عن الكهرباء في الموسوعة البريطانية قام بإجراء تجارب علمية كهربائية بسيطة في منزله . إلا أن الحدث الأهم في حياته كان عندما عمل كمستخدم وكصبي تحت التمرين في مختبر الكيميائي الشهير ديفي همفري ليتدرج من غسيل الأواني الزجاجية وتحضير المحاليل إلى أن أصبح عالماً شهيراً في العلوم الطبيعية. الغريب أن Humphry كان له اكتشافات هامة جداً في الكيمياء لكن قيل إن أهم اكتشاف قام به هو اكتشافه لفراداي .

٥ . آينشتين

أما آينشتاين عبقري العالم في الرياضيات فقد سمع من السخرية والتحقير ما لم يسمعه غيره من العلماء ، حيث كان معلّمه ينعته " بالحمار "بسبب سقوطه في مادة الرياضيات لثلاث سنين متواصلة ، هذا الحمار غيّر العالم كلّه بنظرياته وقواعده الرياضية ، لم يستسلم للفشل ، ولم يستسلم لكلمات معلمه المحبطة ، ولم يلتفت للضاحكين من حوله والساخرين من طريقة أدائه ، بل شق طريقه حتى جعل العالم كلّه يقف صفا واحد ليصفق لهذه العبقرية المتفردة

لقد كان لهؤلاء المستهزأ بهم انجازات عجز عن تحقيقها حتى الحكام أوالجماعات أو اوالفرق أو أدعياء العلم ، فعملية التغيير تبدأ من فرد سواء كان نبيا أو مصلحا أو عالما أو، مفكّرا حكيما ، وتنتهي بمجموعة تؤمن برسالة النبي ، أو بعلم العالم أو بفكر المفكر ، أو بحكمة الحكيم وتتكامل معه ومع أهدافه النبيلة وأحلامه العظيمة لتحققها ، وكلما زاد عدد المؤمنين بالهدف والغاية زادت نسبة التغيير وزادت نسبة التحقيق .

كان يجب على هؤلاء المستهزئين احترام هؤلاء الأفذاذ الذين أناروا لنا طريق العلم والمعرفة وأن نتعلم منهم حسن التدبير والتروي ، والصبر والحكمة والإيمان بما نريد عمله وتغييره ، الوضوح والنضج القناعة ، ولاشك أنه مرت بنا وستمر بنا قصص واقعية حدثت على مر السنين من خلال الاختراعات او الاكتشافات الجديدة التي لا تتماشى مع النظريات السائدة فتقابل بالتهكم والسخرية، ليس هذا فحسب بل قد يدان صاحب الاكتشاف او الاختراع بالنصب والاحتيال أو الجنون او الكذب .

ومما سبق نريد التأكيد أن نصل إلى أن الناس على مر العصور يحتاجون إلى حكماء يذكرونهم بتجارب الماضي ويستخلصون لهم العبر للتفكير بحكمة يحتاجها الناس لحل قضاياهم وللرقي بمجتمعاتهم والإبتعاد بها عما يدمرها ويقضي عليها حتى لايعضون أصابعهم ندماً على مافرطوا من أمرهم .

النصيحة والندم

يحاول الناصح المخلص أن يحول دون المرء وبين وقوع من ينصحه بالخطأ لكي لا يعض اصابع الندم على ما اقترفت أو ستقترفه يداه ، والانسان النصوح ينصح اذا رأى شخصاً يرتكب خطأ

فيحاول أن يهديه إلى تصحيح هذا الخطأ.وبذلُ النصيحة من أخلاق أنبياء الله ، هذا هود عليه السلام يقول لقومه: وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ] الأعراف:٦٨]، وهذا صالح عليه السلام يقول لقومه: وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّتُحِبُّونَ ألنَّـاصِحِينَ [الأعراف:٧٩]، وهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه: وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءاسَى? عَلَى? قَوْمٍ كَافِرِينَ [الأعراف:٩٣]، وهذا محمد أعظم خلق الله نصح أمته لكمال شفقته ورحمته بهم قال تعالى عنه: لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ [التوبة:١٢٨]. قال رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم" الدين النصيحه" فلما سئل لمن يارسول الله قال "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "صدق رسول الله .

إن مقتضى المحبة الإيمانية أن تبذل النصيحة لأخيك، عندما ترى مخالفةً منه ويقع نظرك على خطأ يهم به ، فتحاول انقاذه مما هو فيه وتبذل النصيحة لأخيك إنقاذاً له من عذاب الله، وأخذاً بيده لما فيه صلاح دينه ودنياه.ولكن للنصيحة ضوابط لتكون نصيحة مؤثرةونافعة وتؤدي الغرض ومنها:

أولاً: الإخلاص في النصيحة، إذ يجب أن يكون الدافع على النصيحة هو الإخلاصٌ لله، وليس الرياءً والسمعة، ولا الإفتخاراً بها، ولا الإستطالة على الخلق،وتحقير من ننصحهم،فيجب أن تكون نصيحتنا نابعة من قلب صادق محب للخير، ساع له.والمخلصون في نصيحتهم هم الذين يضعون النصيحة موضعَها، لا يتحدثون بها، ولا يفتخرون بها، ولكنهم يعتبرونها أمانة بينهم وبين من ينصحونهم، لأن هدفهم وغايتهم صلاح من ينصحونه واستقامة حاله، وحماية عرضه، وليس هدفهم الترفع على الناس والتطاول عليهم.وحتى يكون الناصح مقنعاً ، فإن عليه أن يكون عالماً بما ينصح به حتى لايحرج نفسه أو يحرج غيره في إسداء نصيحة متهورة ، فكم من متصوِّر للخطأ أنه صواب فيدعو إلى غير هدى، وينصح بلا علم، وربما أفسد بنصيحته أكثر مما أصلح.

ثانياً : لا بد للناصح من أن يدرك بأن الناس ليسوا على قلب رجل واحد ،وأن هناك من الناس من يصغى جيداً للنصيحة ويحاول عدم تكرار الخطأ لأنه يعلم أن الانسان خطاء وأن لكل انسان عيوبه التي لايدركها بنفسه ولا حرج من تصحيح ذلك الخطأ إذا نصحه أحدهم بها،ولكن النصيحة الموجهة للمغرورين والمعاندين والمتكبرين عادة ما تكون ثقيلة على انفسهم ويرفضونها ولا يحاولون الاستفاده منها. وقد قال الله سبحانه وتعالى عن ذلك "ولكن لا تحبون الناصحين" (الأعراف:٧٩)

فلذلك على الناصح أن يبحث عن أحسن السبل لتوجيه نصيحته فيدرس حالة من ينوي نصحه قبل توجيه النصيحة إليه حتى يتعرف على أخلاقُه وردود فعله ، ومدى تقبُّله أو عدم تقبله للنصيحة قبل

أن ينصحة.ولأن هدف الناصح يجب أن يكون هو الوصول إلى الحق، وإنقاذ من ينصحه مما هو واقع فيه من الخطأ ، فلابد أن تكون نصيحته نابعة من قلب مليء بالرحمة والمحبة والشفقة وحسن القصد، وأدب وبر وإحسان ومعاملة بالمعروف. لا عن تهكم وترفُّع على الناس.

ولما كانت ردود أفعال الناس مختلفة ،فإن على الناصح أن ينتقي الأسلوب الأمثل في تقديم نصيحته،وأن يحاول الترغيب والترهيب والثناء بما في ذلك محاولة ضرب الأمثلة الماضية والحاضرة.وأحياناً يكون التلميح بالنصيحة أفضل من التصريح بها.. أي محاولة النصح بطريقة غير مباشرة ! كما يفضل الابتعاد عن النقد المباشر واستخدام أسلوب الأمر.. لأن هذا أدعى لقبول النصيحة!.

ولا بد للناصح من من تقديم نصيحته على قدر حال المتلقي للنصح فيروض نفسه على مخاطبة الناس على قدر عقولهم وأفهامهم، والصبر عليهم واحتساب الأجر على الله ، وتحمل ردة فعل من توجه له النصيحة قال الله تعالى: والْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ ءامَنُواْوَعَمِلُواْ ?لصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ(العصر:١-٣)

ولنلاحظ قوله تعالى وتواصوا بالحق أي تقديم النصيحة وتواصوا بالصبربما في ذلك الصبر على ردة فعل من توجه لهم النصيحة .

نقول ذلك لأن هناك من أرادوا الإصلاح دون أن يتحلوا بالصبر فاستعجلوا نتائج نصحيتهم حتى جاءت نتائج نصائحهم عكسية ،وقد روى لي أحد المهتمين بالدعوة في افريقيا أنه كان ينتقل بين الأهالي المسلمين هناك فكان فيجد منهم نفوراً ورفضاً في بادئ الأمرلما كان يهديهم إليه ، فصبر عليهم واستمر في دعوتهم للحق إلى أن ألفوا طريقته السمحة في الدعوة فبدأوا بالتجاوب معه والانصات له . فلما استفسر عن سر ذلك التحول في ردة فعلهم أخبره بعضهم أن من جاؤوا قبله من الدعاة كانوا جفاة غلاظ وليس لديهم صبر على من يدعونهم للحق وكانوا يريدون منهم أن يتحولوا بين يوم وليلة من معتقدات وعادات كانوا هم وآباؤهم يعتقدونها إلى هداة مهديين فرفضوا التجاوب مع هؤلاء الغلاظ رغم صدق نيتهم. قال الله تعالى ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك صدق الله العظيم وفعلاً انفض هؤلاء الأفارقة من حولهم بسبب الغلظة في تقديم النصيحة . وهذا الأمر لايقتصر على أفريقيا وحدها، بل نعيشه مع إخوان لنا يعيشون بين ظهرانينا ينصحون ولكن بالتي هي أسوأ فينفر الناس منهم وتأخذهم العزة بالأثم ويستمرون في خطأهم وعنادهم نكاية بمن لم يحسنوا إسداء النصح لهم ، ولذلك فينبغي أن لا

ننسى أن للكلمة الطيبة وللإبتسامة العريضة سر في قبول النصيحة ،وأن للكلمة اللينة الرقيقة وللثغر الباسم مفعول السحر في قبول النصيحة وأن الناصح يجب أن يكون حكيماً في توجيهه للنصح لأن النصيحة قد لاتؤدي غرضها إن لم تكن نصيحه واعية وسديدة.

ثالثاً : يكون الناصح أحياناً سبباً في عدم سماع نصيحته لأنه ليس قدوة لمن ينصحه ،وربما يرتكب نفس أخطاء من ينصحه فيرد عليه بالقول: انصح نفسك فى البدايه ثم انصحنى بعد ذلك. فيصبح المنصوح ناصحاً ليقول لناصحه : من ينصح يجب ان يكون قدوه لمن ينصحه وهو لايستطيع التغلب على عيوبه. ومثل ذلك الطبيب الذي ينصح المريض بعدم التدخين وهو يدخن ويريد من مريضه الإقلاع عن التدخين مثلاً.

ومع ذلك يجب على من توجه إليه النصيحة أن لايحقر من شان من ينصحه فيقسوا عليه ،ويجدها فرصة للرد عليه فيحمل ذلك الطبيب الناصح مالايحتمل ،فلربما مايفعله ذلك ذلك الطبيب هو الخطأ بعينه ،ولكن ربما أنه أضعف من أن ينفذ تلك النصيحة ويتمنى للغير خيراً قد فاته أوشراً يرجو له اجتنابه , فعلى أي واحد منا التفكيرفي النصيحة أياً كان مصدرها فربما من ينصحك يريد الخير لك ويريدك ان تكون افضل منه ، وربما أنه لم يجد من ينصحه في البداية حتى تورط في آفة لايستطيع الفكاك منها ، ربما هو نادم ولايريد لغيره أن يمر بنفس التجربة .والأصل في الأمر هو أن الله حباك بعقل تفكر به ويجب عليك انت أن تعرف اذا كنت على صواب ام كنت على خطأ ؟أي أن تنصح نفسك بنفسك ، فلا يعلم احد الضرر الذي قد يلحقه الإنسان بنفسه إلا هو.

إن فينا أخطاء، والمعصوم من عصم الله، فلا بد من أخطاء في البشر، ولو تبصَّر الإنسان في نفسه لأبصر عيوبَه وأخطاءه، واشتغل بها عن عيوب الآخرين، كلُّنا خطَّاء، وخير الخطائين التوابون، كلناعرضةٌ للزلل والخطأ والتقصير في الواجب ، إما غفلةً ، أو جهلا ، أو وسهوا، أوبسبب سيطرة شهوات وهوى وجلساء سوء ودعاة ضلال، لعله عرض له أمر ظنَّ أن ما هو عليه حقٌّ والواقع أنه خطأ ومخالف للشرع.

نصيحة السر

إذا نصحت أخاك في السر ووعظته فيما بينك وبينه ، وبينت له خطأ فعله وقوله ، كنت بذلك آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، لأنه ليس من شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون

علانية أو في الملأ ، بل إذا كان في السر كان أدعى للقبول والإجابة ، لأن الإنسان بطبعه يكره التشهير ويعتبر النصيحة أمام الناس فضيحة .. لهذا فإن أول رد فعل له على نصيحة العلن هو محاولة الدفاع عن نفسه، ولقد حث الشرع على النصيحة بالسر، فالمؤمن يستر والفاجر يهتك !لأن الهدف من النصيحة أن يقلع الشخص عن الخطأ ,, وليس الغرض إشاعة عيوبه أمام الأخرين !

قال الشافعي رحمه الله)): من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه (الإحياء).

وقال أيضا – رحمه الله تعالى:-

تعهّدني بنصحك في انفرادي ... وجنّبني النّصيحة في الجماعه
فإنّ النّصح بين النّاس نوع ... من التّوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت قولي ... فلا تغضب إذا لم تعط طاعه

وقال سليمان الخواص: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما فضحه.

وعن عبد الله بن المبارك قال: ان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيُؤجر في ستره ويُؤجر في نهيه، فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره(روضة العقلاء).

وقال مسعر بن كدام– رحمه الله تعالى " رحم الله من أهدى إليّ عيوبي في سرّ بيني وبينه، فإنّ النّصيحة في الملأ تقريع" وقيل له: تحب من يخبرك بعيوبك، فقال :إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم، وإن قرعني في الملأ فلا.

ومن أخلاق السلف قال: كان الرجل إذا كره من أخيه خلقا عاتبه فيما بينه وبينه أوكاتبه في صحيفة..وهذا هو الفرق بين النصيحة والفضيحة فما كان في السر فهو نصيحة، وما كان على العلانية فهو فضيحة وقلما تصح فيه النية لوجه الله تعالى، لأن فيه شناعة، وإذا أردت معاتبة أحد فعاتبه في خلوة،أما إذا عاتبت في جماعة فيكون ذلك توبيخاً يصعب على المرء تقبله ، فالناصح المخلص يسوؤه ما يسوء الآخر ويسره مايسره فإن على الناصح أن ينصح ولا يوبخ بين الملأ. إن في نصيحة العلانية

وتبيين معاصي العباد نوع من الهوان فلنحذر من نشر المعايب والأخطا ء علانية، فلا يقبلوا منه نصيحةً إن نصح، ولا يقبلوا توجيها إن وجَّه؛ لأنهم يعلمون أنمن يفعل ذلك يتاجر بتلك النصيحة، ويريد بها مكانة لنفسه وعزاً لها ، وهو لا يدري أنه بذلك أسخط ربه، لأن الناصح الهادف من نصيحته يتلمَّس الخير ويبحث عن الطرق التي يوصل بها النصح لكي يستفيد ويفيد .فيكون بذلك همُّه هو الإصلاح، لا مصلحته الذاتية، ولا يتخذ من النصيحة وسيلة لتجريح الناس وفضح عيبهم، والسعي بالنميمة فيما بينهم، فيفرق أخوَّتهم، أو يحدث النزاع بينهم، إنما يهدف من نصيحته التوفيق والإصلاح: إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود:٨٨] هكذا يقول شعيب عليه السلام، وهكذا يقول نوح لقومه: وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ [هود:٣٤]، لأنه أدام النصحَ لهم، أخبر الله عنه أنه دعا قومه لله سراً وجهاراً ليلاً ونهاراً، كل ذلك حرص على هدايتهم، وحرص على صلاح قلوبهم، والأمر بيد الله .

إنما على المسلم أن ينصح لله الأفراد والجماعة، وكل على قدر حاله، وكل على حسب منزلته، وأن الأدب في النصيحة والإخلاص فيها وكتمانها وإيصالها إلى المنصوح بالطرق الجيدة، أن ذلك يترك أثراً عظيماً، أما الشماتة بالناس، ونشر عيوبهم، والتحدث عن أخطائهم، وكأنه أعطي أماناً من الخطأ، وكأنه أعطي عصمةً من الزلل، فهذا النوع من الناس لا همّ لهم إلا تجريح الناس، والنيل منهم، أما المؤمن فهو بخلاف ذلك.

ولا بد أن يكون النصح بعيداً عن التشهير والتعيير والشماتة بالمخالف، فإن المعيّر للناس الشامت بهم الفَرِح بعوراتهم المتطلّعَ إلى عيوبهم الحريصَ على أن يرى العيب والخطأ فهذا ليس بناصح ولكنه مسيء وضاره.وهذا النوع من الناس لا يوفَّقون للخير؛ لأنهم لم يقصدوا الخير أصلاً،وإنما اتخذوا النصيحة وسيلةً للنيل ممن يريدون النيلَ منه. ولهذا ترى هذاالشامت وهذا الفَرِح بالعيوب والنقائص ينصح علانية، ويُظهر الأمر أمام الملأ لكي يَحُطَّ من قدر من يظنُّ أنه ينصحه، ولكي يُطْلع الناس على عيوب خفيَت عن الآخرين، فيكون بذلك مسيئاً لا مصيباً، ومفسداً لا مصلحاً، وفاضحاً لا ساتراً، وفي ذلك نوع من الشماتة التي روي عنها بالأثر: ((لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك)).

النصيحة للحكام والمسؤولين :

إن موضوع نصيحة المسؤولين والحكام موضوع تتداخل فيه عوامل كثيرة مثل الديموقراطية وحرية التعبير .. وقد يقصد به البعض التشهير والإساءة ،وويروج في وسائل الإعلام،وهذا منهج خاطئ إذا كان باب الحوار مفتوحاً بلا خوف أو وجل . فالإصلاح والتوجيه، لا يتعارض مع سرية النصيحة للحاكم .

وهذا لايعني التوقف عن النصيحة للمسؤول أو الحاكم ولكن يجب الحرص على أن يكون ذلك النصح بالسر لتبيّان الأخطاء التي ارتُكبت، أوالتقصير الذي حصل،وهذه هي نصيحة الإصلاح والقيام بها واجب، فالنصيحة مع التزام أدب الحوارتؤدي غرضها، وتؤدي الهدف منها، ولهذا يقول الله لنبيه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ] آل عمران:١٥٩]، فالتعامل مع الحاكم له منهجه الخاص البعيد عن النفاق وعن الإذلال في آن واحد ، ومن غير المستحب استنكار واستهجان مايقوم به الحاكم على الملأ ، وعلى رؤوس الناس،

وهذه النصيحة العلنية أمام الملأ ، وعلى رؤوس الناس لها وقع سلبي كبير:

أولا : إذ قد يرى الحاكم أنها نوع من التعيير والتوبيخ أمام الرعية ، وهذا مدعاة لعدم القبول وردة الفعل السلبية ، ولأجل ذلك ذهب البعض إلى أن من علم من شخص من الناس أنه إذا نصح الحاكم ازداد في غيه وأتى بمنكر أعظم منه لم يجز له أن ينكر هذا المنكر ، دفعا للمنكر الأعظم .

ثانيا : أن النصيحة للحاكم في العلن قد يؤديها من غرضه صادق في الإصلاح والتوجيه،وهو مأجور على حسن نيته ، ولكن هناك من يقوم بها لزعزعة نظام الحكم ليستولي هو عليه.

النصائح الضائعة:

بعد أن تطرقنا لموضوع تجاهل الناس لنصائح الأنبياء والرسل ثم عضهم على أصابع الندم لتجاهلهم الهداية وتعنتهم وإصرارهم على الباطل ن سنعود لذكر أمثلة لبعض بعيدي النظر الذين نصحوا أقوامهم فلم يستمعوا لنصحهم فكانت النتيجة هي أن أقوامهم عضوا أصابع الندم حسرة على إضاعتهم للنصيحة .وسنضرب أمثلة من تاريخ العرب لأحداث حذر منها بعض الذين استشرفوا المستقبل بحكمتهم فنصحوا قومهم،ولكن قومهم استخفوا بهم وبنصيحتهم ،فلم يصغوا إليهم .

١ . لقيط بن يعمر الإيادي :

لَقيطِ بنِ يَعمُر بن خارجة الإيادي (٢٤٩ ق.هـ/٣٨٠ م) شاعر جاهلي فحل، من أهل الحيرة، وهو شاعر قديم مقل،واتفق المؤرخون على أن اسمه "لقيط بن يعمر الأيادي" كما أجمعوا على نسبته إلى قبيلة إياد. ولكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك، فالمعلومات التي سجلت عن حياته ضحلة جداً، وبها خلط كبير.

عاش لقيط في مرحلة عصيبة من حياة العرب في الجاهلية، ولا يعرف له الكثير من القصائد ، وكان ذكياً ويحسن الفارسية واتصل بكسرى سابور (ذي الأكتاف)، فعينه كاتباً في ديوانه وأصبح من المطلعين على أسرار دولته ومن مترجميه. وكان سابور قد بلغ من العمر حينئذ سبع عشرة سنة وقد ورث نبوءة عن أسلافه بأن العرب سيكون لهم شأن وسيهددون عرش الأكاسرة ، فسار على درب أسلافه بكراهية العرب ومحاربتهم ومطاردتهم واحتلال أراضيهم حتى لاتصبح لهم قوة ،ولكن إحدى القبائل وهي قبيلة أياد التي ينتمي إليها لقيط كانت تنزل في منطقة سواد العراق، وهي منطقة شمال شرقي الجزيرة العربية الآن،وبدأوا يكونون قوة في تلك المنطقة ،فقرر سابور غزوهم وتشتيت شملهم. ولكن أياد علموا بذلك فعبروا الفرات إلى الجانب الغربي فتبعهم جيش كسرى ليمزقهم إربا ،فاضطرت قبيلة أياد لمواجهة جيش كسرى واقتتلوا معه قتالاً شديداً فانقلب السحر على الساحر وهزمت قبيلة أياد جيش كسرى ولم يفلت من جيشه الا القليل وجمعت أياد جماجمهم وأجسادهم فكانت كالتل العظيم ، وكان إلى جانب المعركة دير فسمي((دير الجماجم)) ، فبلغ كسرى الخبر وغضب غضباً شديداً وأقسم أن يثأر من أياد ويطردهم من السواد وصمم على الخروج إليهم بنفسه وأعد لمحاربتهم سبعين ألف نفر. وكما أسلفنا ، كان لقيط بن يعمر الايادي يعمل كاتباً في بلاطه وترجماناً له ومن العارفين بأسرار دولته فلما علم بما أعد كسرى لقومه خاف أن تأخذ قومه نشوة النصر ويتغلب عليهم الغرور فيستهينوا بعدوهم ولا يستعدوا لحربه، وظل في حيرة من أمره فيما يفعل إزاء هذا الموقف الخطير على قومه ،هل يسكت عن خبر كسرى بما يحمله هذا السكوت من خطر كبير عليهم ؟ ، أم ينقذ قومه من الهلاك وينذرهم بخطر كسرى وجيشه ليتجمعوا ويتأهبوا له ؟ ، وما المصير الذي سيلقاه إن علم كسرى بأمره؟ كل تلك كانت تساؤلات تدور في ذهنه ، ولكن مروءته لم تستطع تحمل وزر دم أهله وخشيته عليهم ، فقرر تحذير قبيلته بطريقة بلاغية مبتكرة حتى لو كلفه ذلك حياته ،وأرسل إليهم بأبيات شعر يحذرهم فيها من خطر كسرى الداهم ،وأرسل القصيدة مع رسول لينذرهم ويخبرهم بقوة عدوهم قال فيها.

سـلام فـي الصـحيفة مـن لقـيط
إلـى مـن بـالجزيرة مـن إيـاد
بـأن الليـث كسـرى قـد أتـاكم
فـلا يشـغلكم سـوق النقـاد
أتـاكم مـنهم سـتون ألفـاً
يزجّـون الكتائـب كـالجَراد
علـى حنـق أتيـنكم فهـذا
أوان هلاككـم كهـلاك عـاد

ولكن قومه لم يعبأوا بتحذيره بينما كانت جيوش سابور تتجه نحو العراق ،ولما اقترب جيش كسرى من قومه دون أن يشعروا بالخطر القادم نحوهم أعاد إليهم كتاباً فيه قصيدة طويلة يخبرهم فيها أن يأخذوا تحذيره مأخذ الجد وبأن جيش كسرى قد عسكروا وتحشدوا لهم وانهم سائرون إليهم وفيها يقول:

بَـلْ أَيُّهَـا الرَّاكِـبُ الْمُزْجِـي عَلَـى عَجَـلٍ
نَحْـوَ الْجَزِيـرَةِ مُرْتَـادًا وَمُنْتَجِعَـا

فوصف المنادى بالراكب المزجي اهتماماً بصفته التي تؤهله لحمل الرسالة؛ لذا وصف بالراكب ولم يقل الساعي ؛ لتضمن الركوب للسرعة، ثم جعل له هدفاً ذاتياً، وهوطلب الحاجة، والرعي لإبله ؛ مما يجعل إيصال الرسالة سريعاً؛ على عجل". (المزجي) في جعله متجهاً إلى الجزيرة بالإضافة إلى أنها موطن قبيلة الشاعر، ففي خصوبة أراضيها، وحسن مراعيها ما يدفع ذلك الراكب إلى الإسراع إليها.

وقوله :

أَبْلِـغْ إِيَـادًا وَخَلِّـلْ فِـي سَـرَاتِهُمُ
إِنِّـي أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَـمْ أُعْـصَ قَـدْ نَصَـعَا

قصد به تنبيه قومه ،ومعنى خلل في سراتهم : السراة هم كبار القوم أي خص أشرافهم بالتبليغ والتحذير لأهميتهم، وقدرتهم على الفعل، واتخاذ الرأي، والقوم من بعد ذلك يتبعونهم.

وقصد بقوله (إنْ لم أُعصَ) هو أنه يطلب من أفراد قبيلته بأن يأخذوا برأيه، . ونصع الرأي أي وضوحه. ويقصد بذلك أوصِّل أيها الراكب الخبر إلى قبيلة إياد فرداً فردا ً، ولكن أبلغ السادة والأشراف بصورة خاصة ، قائلاً: إني أعتقد– إذا لم تخالفوني الرأي– أن فكرة غزوكم قد أصبحت ناصعة وواضحة، فعليكم بها.

وقوله:

يـــا لهـــف نفـــسي إذا كانـــت أمـوركـــم
شـــتّى وأُحْكِـــمَ أمرالنـــاس فاجتمـــعا

يحاول به أن يحذرهم من داء الفرقة، وهو الداء الذي ينجم عنه تقديم المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية، ويكون الباعث على تجاهل آثاره المدمرة ،فقصر النظر وعدم التفكير له أوخكم العواقب. ويعبر عن تخوفه وقلقه الشديد من الاختلاف معبراً عن حسرته وتوجعه إذا واجه قومه التهديد والخطر بالفرقة .

والغرض من قوله (يا لهف نفسي) التهويل، أي (إنْ كان داء الفرقة مستفحل بكم ... فيا للهول ويا للحسرة). وقوله (أموركم شتى) كناية عن صفة تفرق الآراء.وقوله (أحكم أمر الناس مجتمعاً) كناية عن صفة وحدة الرأي عند أعدائهم. وقد وظَّف الشاعر كل تلك الأساليب البلاغية لخدمة فكرة : التناقض بين حال قومه وحال أعدائهم ؛والذي يلخصه بأن أموركم شتى– وأمر أعدائكم قد تم إحكامه فاجتمعوا عليكم لكي يصل من تلك المفارقة إلى تحفيز قومه للاستعداد، بمعنى أنْ كان أعداؤكم يجمعون أمرهم، ويوحدون كلمتهم ورأيهم، وأنتم متفرقة كلمتكم، فيا للهول، وياللحسرة على ذلك الحال !

وقوله :

ألا تَخَـــــافوْنَ قوْمـــــاً لا أبـــــا لكـــــم
أمســـــوا إلـــــيكم كأمثـــــال الـــــدُّبا سُـــــرُعا

معناه أن عدم خوفكم من أعدائكم بهذه الطريقة أمر غريب. والدَّبى هم صغار الجراد.

وصور الأمر وكأن الأعداء (أمسوا كأمثال الدُّبا) (صغارالجراد) كناية عن كثرتهم وسرعتهم وقدرتهم على الإيذاء.فيخاطبهم مستغرباً: كيف تأمنون على أنفسكموالأعداء الذين يعدون لكم جيشاً غزيراً مؤذياً، كأنه صغار الجراد .

وقوله :

فَهُـــمْ سِـــرَاعٌ إِلَـــيْكُمْ بَـــيْنَ مُلْـــتَقِطِ
شَـــوْكًا وَآخَـــرَ يَجْنِـــي الصَّـــابَ وَالسَّـــلَعَا

معناه أن أعدءكم قد أسرعوا ناحيتكم مستعدين .أما الصاب والسلع فهما نوعان من الشجر. وقوله يجني الصاب والسلعا كناية عن إضمار الشر وإعداد السلاح ،فهاهم يسارعون إليكم ، كل منهم يتجهز ويعد العدة لا ستئصالكم.

وقوله :

لا الحـــرثُ يشـــغَلُهم بـــل لا يـــرون لـــهم
مـــن دون بيضـــتِكم رِيّـــاً ولا شِـــبَعا

ويقصد به أن أعداءكم لم تشغلهم عنكم دنيا من زراعة وتجارة ، بل تركوا كل أعمالهم وشواغلهم وتفرغوا لاستباحة ساحتكم وقهركم، هذا وأنتم مع كل هذه الأخطار المحدقة بكم لا زلتم . بسبب قلة إدراككم للمخاطر- مشغولين بزراعتكم حريصين على عمل هنا وعمل هناك ، آمنين بينما كان من المفترض فيكم أن تخافوا مثلما يخاف الناس في مثل هذه المواقف، ولازلتم راضين بالأمر الواقع ومستكينين بينما غيركم ينظرون للخطر المحدق بهم في مثل هذه المواقف نظرة جدية. إنكم ياأبناء قومي لا تحركون ساكناً مع أن الخطر على مرأى البصر منكم وأن عدوكم قد تجهز واستعد لإبادتكم.ويتساءل قائلاً:ما هذا الأمن ؟ ماهذه الدعة والخمول الذي أراكم نائمين فيه ، في وقت تدق حولكم أجراس الخطر

وتشتعل حولكم النيران ، وقد أذنت ساعة الحرب التي لا مرد لها؟!.إنكم تشغلون وقتكم بالكسب دون تفكير بجانب الوقاية من المخاطر المتوقعة ، وحماية هذه المكاسب من العدو الطامع المتربص بكم .
ومعنى الحرث : الزراعة ،ومعنى بيضتكم أي أرضكم وأصلكم

وقوله

وَأَنْـــتُمُ تَحْرُثُـــونَ الأَرْضَ عَـــنْ ســـفه
فِـــي كُـــلِّ مُعْتَمَـــلٍ تَبْغُـــونَ مُزْدَرَعَـــا

يكمل به فكرته في تحذيرهم لينبههم أن عدوهم قادم بينما هم يحْرُثونَ الأرضَ عَنْ بسَفَاهِة في كلِّ مُعْتَمَلٍ تبغُون مُزْدَرَعاً ومعنى المعتمل هو موضع العمل.ومعنى المزدرع هو موضع الزرع ، وذلك كناية عن صفة الغفلة. وكأنه لاهم لهم لهم سوى السعي لإصلاح الأرض طلبهم للمنتوجات الزراعية ، فخلطوا بذلك مايجب أن يهتموا به في أوقات السام والرخاء ومايجب به والأعداء يعدون العدة لإبادتهم..

وقوله :

وتلبســـــون ثيـــــاب الأمـــــن ضاحيـــــةً
لا تفـــزعون وهـــذا الليـــث قـــد جمعـــا

يعني به أن الخطر سيدهمكم وأن لا تفزعون ولا تنفرون ولا تتهيئون . وقد استخدم لقيط عبارة (ثياب الأمن) كناية عن صفة الغفلة ؛ مدللاً عليها؛ بارتداء ثياب الأمن.وتلبَسُون ثياب الأمنِ ضاحيةً أي ظاهرة بدل أن تعدوا عدتكم ،وهذا الليثُ أي كسرى قد جمع جيشه لمحاربتكم .وهو يشبّه العدو بالأسد، يريد بذلك أنْ يهيئَ قومه لملاقاة عدو قوي.

وقوله :

مـــــالى أراكـــــم نيامـــــاً فـــــي بُلَهْنيـــــةٍ
وقـــد تـــرون شـــهاب الحـــرب قـــد سطعـــا؟!

يستغرب فيه من خلودهم للنوم بينما كسرى قد بدأ يقرع طبول الحرب ، ومعنى البلهنية هو رخاء العيش واللين والترف.

وقوله :

فاشـــفوا غليلـــي بـــرأي منكـــم حصـــد
يصبـــح فـــؤادي لـــه ريـــان قـــد نقعـــا

يقصد به أنه يوجه النصيحة لقومه فيقول : أجمعوا أمركم على رأي قوي واحد يشفي الفؤاد المتحرق الذي طال انتظاره للنصر . ومعنى الرأي الحصد والمستحصد أنه الرأي المبرم القوي.

وقوله

أَبْنـــاء قـــومٍ تـــآوُوْكم علـــى حَنَـــقٍ
لا يشـــعرون أضـــرّ اللهُ أم نفعـــا

قصد به أن من عقدوا النية على محارتكم هم أبناء قوم توارثوا عداوتكم عن أسلافهم. دلالة على الحقد الشديد.فهم أنجال قومٍ قصدوكم، وقد امتلأت صدورهم حقداً عليكم، لا يبالون إنْ أصابكم ضرر، أو نفع ؛ فأنتم لا تهمونهم. ومعنى تآووكم أي قصدوكم.

وقوله :

فِـــي كـــلَّ يـــومٍ يسُـــنُّونَ الحِـــرابَ لكـــمْ
لا يهجعُـــون إذا مـــا غافـــلٌ هَجَعـــا

يقصد به أن أعداءكم (في كل يوم) (يسنون الحراب) كناية عن صفة الاستعداد للحرب. (لا يهجعون) لا يتركون لحظة إلا واستغلوها في إعداد أسلحتهم استعداداً لحربكم. لا ينامون الليل، في حين أنّ الغافلين اللاهين يخلدون للراحة والنوم.

وقوله

صـــــونوا جيـــــادكم واجـــــلَوا سيوفكـــــم
وجـــــددوا للقـــــسي النبـــــل والشِّرعـــــا

واجلوا سيوفكم معناه أي اشحذوها وأعدوها للقتال واستعدوا بكل أنواع الاستعداد وتعبَّئُوا بكل أشكال التعبئة؛ من الاعتناء بالخيل وتدريبها؛ وتجهيز عدة الحرب من سيوف وقسي .

وقوله :

هَيْهَـــاتَ لاَ مَـــالَ مِـــنْ زَرْعٍ وَلاَ إِبِـــلٍ
يُرْجَـــى لِغَـــابِرِكُمْ إِنْ أَنْفُكُـــمْ جُـــدِعَا

معناه أن كل ما تجمعون من مال ومن زرع ومن إبل لن تفيد من بعدكم ولن تحفظ مجدكم إذا أنفكم تم جدعه أي قطعه ،وقد استخدم لقيط عبارة جدع الأنوف كناية عن الذل والخضوع.

وقوله :

لاتُثْمـــــروا المـــــال للأعـــــداء إنـــــهم
إن يظهـــــروا يحتـــــووكم والـــــتلاد معـــــا

يؤكد فيه ماقاله سابقاً وطلب منهم ترك الانشغال في استثمار المال وقضاء الوقت في التفكير في ذلك ، لأن الأعداء ،إن هم تغلبوا عليهم ، فلن تنفعكم هذه الأموال التي سيكونون معها ملكاً للمنتصر عليهم.

وقوله :

واللـــــه مـــــا انفكَّـــــتِ الأمـــــوالُ مُـــــذ أبـــــدٌ
لأهْلِهـــــا إن أصـــــيبوا مـــــرَّةً تبعـــــا

وهنا يقول لهم :وما نفع الزراعة والإبل الذي تصرفون إليه همكم الآن إن ضربت عليكم الذلة والمسكنة؟ فإن المال منذ الأبد ليس ملكاً لأصحابه ، ولكن لمن ينتصر عليهم فمن يقهر الناس يصبحون تابعين له ويسخرهم ومالهم لمنفعته.

وقوله :

قومـــوا قيامـــاً علـــى أمشـــاط أرجلكـــم
ثـــم افزعـــوا ، قـــد ينـــال الأمـــن مـــن فزعـــا

أي قوموا وأعلنوا حالة الطوارئ، ثم افزعوا واستعدوا استعداداً تاماً، واقفين على أمشاط الأرجل أي أطراف أصابع أرجلكم، وأسرعوا لأنه لا ينعم بالأمن إلا من يسرع فيبادر لملاقاة عدوه، وليس من يتراخى عن ذلك.وهو يحاول هنا أن يشحذ هممهم فيقول :هيا هبوا هبة رجل واحد فالأمر لا يحتمل التأجيل أو التقاعس ، فلن يعرف الأمن من لا يحس بالفزع.

وقوله :

وقلِّـــــدوا أمركـــــم للـــــه دركـــــم
رحـــب الـــذراع بأمـــر الحـــرب مضطلعـــا

يقصد بقلدوا أمركم أي إختاروا قائداً لكم ،ويعني بالأمر هنا الحرب، وكلمة قلدوا مشتقة من القلادة والقائد هنا كالقلادة، أي اجعلوا قيادة المعركة بقيادة قائد يكون الأمر بيده كالقلادة تأكيداً على دورالقائد في المحافظة على الأمر، والذود عنه ؛ إذ المعروف حرص الناس على قلائدهم،ويقصد بلله دركم اي بارك الله فيكم، وجعل خيركم كثيراً.مدحاً؛ لقومه، وتشجيعاً، وتحفيزاً لهم. ووصفه للقائد برحب الذراع كناية عن صفة القوة والخبرة بفنون الحرب. فينصحهم باختيار قائد بمواصفات خاصة، يتمتع بالقوة والخبرة الحربية.

وقوله :

لا مُترفــاً إنْ رخـــاءُ العــيشِ ســـاعدَهُ
ولا إذا عـــضَّ مكـــروهٌ بـــه خشَـــعا

يستفيض به بذكر صفات القائد فيقول لقومه :اجتمعوا على قائد مقدام بصير بالحرب قادر على حمل تبعاتها ، لا شخصاً قتل الرخاء رجولته ، وانغمس في الدنيا وملذاتها ، وليس رجلاً ضعيف النفس ، ينهار لأول مكروه يعترضه. رجل عرك الأمور ، وحنكته التجارب ، وتقلبت عليه الأيام بحلوها ومرها حتى اشتد أسره، واستحكمت إرادته.وهنا تلاحظ أن الشاعر يركز على قضية القيادة والريادة لأهميتها ويشدد على أبراز الصفات العامة للقائد المطلوب كأن يكون واسع الأفق كريم النفس. خبيراً بأمور الحرب بعيداً عن الترف. صبوراً قوي الإرادة عند الملمات ،عنده خبرة وتجربة.

ويشبه هنا المكروه (عضّ مكروه به) بالوحش، ، مدللاً بذلك على قدرة القائد على الصمود في حالة الكرب الشديد، وعدم التنعم في حال رخاء العيش. فالقائد المطلوب؛ يجب أن يكون من النوع الذي، إذا منحته الظروف رغد العيش، وهناءه، لا يركن إلى الدعة والخمول، إنما مخشوشن على الدوام، لا يجبن، أو ينهار، إن عصرته الأيام، وطحنته مصائبها.

وقوله :

وليـــــس يشغلـــــه مـــــال يثمـــــره
عنكـــــم ولا ولـــــد يبـــــغي لـــــه الرِّفعـــــا

ويقصد به أنه يجب على القائد أن يركز على مهمة القيادة ، ولا يجب أن ينشغل بتنمية المال وحيازته وتكديسه، ولا يسخر منصبه لمصلحته الخاصة ومصلحة عائلته فيكون همه توريث ذلك المال إلى أبنائه من بعده لتأمين مستقبلهم المادي ويترك الاهتمام بأمر الرعية. والرِّفعا جمع رفعة ويعني به تركيزه على رفع شأن أبنائه من بعده على حساب مصلحة قومه.

وقوله :

هـــذا كتـــابي إلـــيكم والنَـــذِيْر لكـــم لمـــن
رأى رأيـــــه مـــــنكم ومَـــــنْ ســـــمِعا

مقصود به أن كتابي أي رسالتي إليكم أحذركم فيها من أعدائكم، وأوجه قولي هذا للذين يعقلون ويتدبرون . وفي ذلك تركيز على الحكماء الذين يفكرون من بني قومه.

وقوله :

لقـــد بـــذلت لكـــم نصحـــي بـــلا دَخَـــل
فاستيقـــظوا إن خيـــر العلـــم مـــا نفـــعا

تتم به قصيدته بتحذيرهم من ترك نصيحته تذهب سدى فقال لهم :هذا نصحي قدمته لكم مخلصاً، فأفيقوا من غفلتكم ولا تكتفوا بسماع هذه النصيحة أو حفظها دون العمل بها فقد بذلت لكم نُصحي بلا دَخَلٍ ، أي بلا غش ، بل نصحت لكم مخلصاً في النصح ، فاسْتيقِظُوا إنَّ خير العِلم ما نفعا، ليؤكد على أهمية ما طرحه، وضرورة الالتزام به،فقال " استيقظوا " ، والمراد بالاستيقاظ – هنا – الانتباه من الغفلة بعد أن قدّمت لكم إرشادي، ورأيي بلا خديعة، أو كذب؛ فانتبهوا من غفلتكم؛ وإن أفضل المعلومات تلك التي يستفاد منها، فاستفيدوا من نصيحتي والمعلومات التي قدمتها لكم

هذه كانت نصائح لقيط الأيادي لقومه التي صاغها شعراً بأبيات تشابه أوضاعنا في هذه الأيام بينما هو قالها أثناء حياته قبل رسالة وهجرة نبينا محمد ﷺ ب ٢٤٩ سنة ، أي عام ٣٨٠ ميلادية

ولكن ماذا حدث للقيط وقومه بعد هذا التحذيرالشعري؟ الجواب هو أنه لسوء حظ لقيط لم يأخذ قومه برأيه ولم يصغوا لتحذيره ، واكثر من ذلك أن كسرى علم بأمر تحذير لقيط لقومه بعد أن سقطت تلك القصيدة في يده، فقبض عليه وقطع لسانه وسجنه ثم قتله. ولم تقدر قبيلته تضحيات لقيط ولم تستمع إلى نصحه ولم تأبه لقوله وتحذيره اياهم ثقة منهم بأن كسرى لن يقوم بالهجوم عليهم ، ولكنهم تبينوا خطأهم بعد فوات الأوان حينما حاصرهم كسرى في منطقة الجزيرة في موضع يقال له(مرج الأكم) فتقاتلوا قتالاً شديداً فظفر بهم وهزمهم وانقذ من اسروا من الأعاجم يوم الفرات وهرب الناجون من أياد إلى أطراف الشام ،فلاحق كسرى قبائل العرب وطاردهم ونكل بهم وخلع أكتاف الرجال فسمي بعد ذلك(سابور ذو الأكتاف) وتوغل في بلاد العرب حتى وصل إلى أرض اليمامة وكان فيها يومئذ بنو تميم وأمعن في

قتلهم ففروا ولم يصمدوا له ودخل سابور وجنده ديارهم ومقر اقامتهم فلم يجد جنوده إلا شيخاً طاعناً في السنً قد بلغ من العمر أرذلة. فجاءوا به إلى سابور ولما وضع بين يديه ونظر إليه تعجب من هرمه وطول عمره فقال له سابور: من أنت أيها الشيخ الفاني (أي الموشك على الموت والفناء). قال: أنا عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابجة بن الياس بن مضر بن عدنان من أسياد هذا الحي وقد بلغت من العمر عتيا، وقد هرب الناس منك لاسرافك في القتل وشدة عقوبتك إياهم.وآثرت أنا الفناء على يديك ولعل الله ملك السماوات والأرض يجعل فرجهم بسببي ويصرفك عما أنت بسبيله من قتلهم ،وأنا سائلك عن أمر إن أنت أذنت لي فيه. فقال له سابور: قل يسمع منك. فقال عمرو: ما الذي يحملك على قتل رجال العرب من رعيتك؟ فقال سابور اقتلهم لأنهم تجاوزوا على بلادي واعتدوا على أهل مملكتي. فقال عمرو فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم وكنت صغيراً لم تبلغ الرشد. فقال:اقتلهم لأنا ملوك الفرس نجد في مخزون علمنا وما سلف من أخبار أوائلنا ان العرب ستسلب ملكنا وتتغلب علينا وتحتل وطننا.فقال عمرو: هذا أمر تستيقن حدوثه أم تظنه؟ قال: بل أعتقد أنه لا بد أن يقع ذلك. فقال عمرو: اذن قتلك أبناء العرب لا يجدي شيئاً ولا يحول دون ما تحذره، واحزم لك في الرأي وأنفع في العاقبة ان تبقي على العرب جميعاً وتحسن إليهم فيبقون على قومك ويحسنون إليهم جزاء لإحسانك إليهم. وان كان الأمر باطلاً (أي نبوءة أن العرب سيزيلون ملكك باطلة) فلم تستعجل الاثم وتسفك دماء رعيتك.؟ فقال: الأمر صحيح والرأي ما قلت ولقد صدقت في القول ونصحت في الخطاب ورجع سابور إلى عاصمه ملكه وكف عن القتل.

أما لقيط الذي ارتبط ذكره بتحذير قومه من هجوم كسرى حينما علم أن كسرى ينوي غزو قبيلته إياد وكتب إليهم بهذه قصيدة يحذرهم فيها ويستنهض هممهم ، وفدى نفسه في سبيل ذلك ، فقد كان مات فدائياً بذل روحه رخيصة في سبيل حرية وكرامة قومه. ولكن ، وكعادة من يستخف بنصح الناصحين ، أضاع قومه نصيحته ، ثم عضوا أصابع الندم ،ولكن بعد فوات الأوان .

٢ . دريد بن الصمة

وهذا مثال آخر على الإعراض عن نصح الناصحين ونتائج ذلك الإعراض . ودريد بن الصمة من هوزان، وقد كان سيد بني جشم وفارسهم، وكان ذا رأي وعقل وحزم ، وكانت أوضاع العرب آنذاك كر وفر بين القبائل فغزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها ،وله بعض المواقف من سداد الرأي عبر عنها شعراً مثل :

أولاً : حينما قال :

وقلـــــت لعـــــارض وأصـــــحاب عـــــارض
ورهـــــط بنـــــي الســـــوداء والقـــــوم شـــــهدي

والعلم عند الله أن دريد يتحدث هنا عن موقعة كان دريد نصح بها عارض وهم قوم من بني جشم (قبيلته)،ونهاهم عن النزول حيث نزلوا فعصوه. ورهط بني السوداء فيهم». شهدي أي حاضرين و شهود على أني قد نهيتهم.

ثانياً : حينما نصح قومه ولم يسمعوا لنصحه ،وذلك في معركة قتل فيها أخوه عبدالله ،وكما أسلفنا كانت أيام العرب آنذاك حروباً قبل أن يوحد الإسلام كلمتهم ،وكان لدريد أخوةٌ وهم عبد الله الذي قتله غطفان، وعبد يغوث قتله بنو مرة، وقيس قتله بنو أبي بكر بن كلاب، وخالدٌ قتله بنو الحارث بن كعب .وكان سبب مقتل عبد الله بن الصمة أخا دريد أن عبدالله كان غزا غطفان ومعه بنو جشم وبنو نصرٍ أبناء معاوية فظفر بمن غزاهم وساق أموالهم في يوم يقال له يوم اللوى ومضى بها. ولم يبتعد عبدالله كثيراً عن موقع معركتة مع أعدائه ولم يصبر إلى أن يبلغ مساكن قبيلته ،فقرر أن يخيم في ذلك المكان ، وهو بلاشك خطأ استراتيجي ،ولكنه أصر على رأيه فقال لمن معه : انزلوا بنا، فقال له أخوه دريد: نشدتك الله ألا تنزل فإن غطفان ليست بغافلةٍ عن أموالها، ولكن أخاه عبدالله تجاهل نصيحته وأصر على رأيه الخاطئ وأقسم ألا يبرح مكانه إلا بعد أن يأكل ويشرب ويطعم من معه ثم يقسم الغنائم بين أصحابه بعد أن يأخذ مرباعه وهو نصيبه من الغنائم ،وقد صدق تحذير دريد الذي لم يؤخذ به ،فبينما هم في مكانهم وقد ارتفع دخان مواقدهم، إذا بغبارٍ قد ارتفع أشد من ارتفاع دخانهم، وإذا قوم عبسٌ وفزارة وأشجع الذين كان عبدالله قد أخذ غنائمهم قد أقبلوا عليه فطلب قوم دريد من ربيئتهم أن يخبرهم بما يرى،والربيئة هو الكشاف الذي يكون موقعه في الحروب فوق جبل أو تل عال لينظر للقوم حتى لا يدهمهم عدو،فهو يرصد التحركات بنظره الحاد ثم يخبر قومه بالخطر الداهم إن وجد ، فقال لهم الربيئة: أرى قوماً جعاداً كأن سرابيلهم قد غمست في الجادي فعرفهم عبدالله ولكنه استخف بهم فقال: تلك أشجع، ليست بشيء. ثم نظر الربيئة فقال: أرى قوماً كأنهم الصبيان، أسنتهم عند آذان خيولهم. فاستمر عبدالله في عناده وقال: تلك فزارة. ثم نظر الربيئة فقال: أرى قوماً أدماناً كأنما يحملون الجبل بسوادهم، يخدون الأرض بأقدامهم خداً، ويجرون رماحهم جراً، قال: تلك عبسٌ والموت معهم ! فتلاحقوا بالمنعرج

من رميلة اللوى بعد فوات الأوان وبعد أن أضاعوا نصيحة دريد ،فاقتتلوا فقتل رجلٌ من بني قاربٍ وهو من بني عبس عبد الله بن الصمة فتنادوا: قتل عبدالله ، فانطلق دريد نحو أخيه ببطولة ليدافع عنه ووصل إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وجرح دريد جراحاً بليغة فسقط فتركوه بعد أن اعتقدوا أنه قتل مثل أخيه ، وأخذوا ماكان عبدالله قد غنمه واستنقذوا المال ونجا من هرب من قوم دريد.

ولكن إثنين من صناديد بني عبس وفزارة هما زهدمٌ وكردم لم يبرحا المكان إلا بعد أن طعناه طعنة أخيرة حتى يتأكدا من موته ، فسال دمٌ كان قد احتقن في جوفه، فلما ذهبا وأسدل الليل ستاره مشي وهو ضعيف والدم ينزف منه حتى صادفته جماعة ، فغسلوا عنه الدم وداووه وعالجوه وأطعموه وبقي عندهم حتى شفي ولحق بقومه .

ومن العبر التي تروى عن مروءة العرب في ذلك الوقت في هذه القصة ماروي أن الذين عالجوه هم جماعة من أعدائه من بني فزارة ،وقيل كذلك إن أحد الذين حاولوا قتله وهو كردم حج بعد ذلك مع نفرٍ من بني عبس مثلما كان العرب يحجون في الجاهلية ،فلما قاربوا ديار دريد تنكروا خوفاً ، ولكن دريد مر بهم متظاهراً بأنه لايعرفهم ،فأخذ يمشي فيهم ويسألهم من هم؟ فقال له كردم: عمن تسأل؟ فدفعه دريد، وقال: أما عنك وعمن معك فلا أسأل أبداً، وعانقه، وأهدي إليه فرساً وسلاحاً، وقال له: هذا بما فعلت بي يوم اللوى. وهذا يدل على نوع من القيم عند دريد وعند أعدائه ، وهي قيم لا نعرفها في أيامنا هذه.

ثالثاً : يتجلى نصح دريد الضائع لقومه حينما خرج قومه يوم حنين وكان هو وقومه مشركين ومعاديين للمسلمين ، وكان دريد في ذلك الوقت شيخاً واهناً قد عمي ولا يستطيع القتال، ولكن قومه أخرجوه معهم ليقتبسوا من رأيه حيث عرف في قومه بأنه ذو فراسة وحُسن توقع وذلك ليستفيدوا منه ويقتبسوا من آرائه، ولكنهم حتى في هذه المرة لم يأخذوا برايه ولم ينتصحوا بنصحه الذي نصحهم لأن زعيمهم مالك بن عوف رفض قبول مشورته، وخالفه لئلا يكون لدريد ذكر فهزموا.

ويبدو أن دريد كان مدمناً على إسداء النصائح لدرجة أنه بعد هزيمة (هوازن) في تلك المعركة ، انسحب الناجون من المعركة إلى الديار الأخرى فمنهم من اتى الطائف ومنهم من تعسكر باوطاس ومنهم من توجه إلى نخلة وكان منهم دريد بن الصمة فواجه في طريقه رجلاً من بني سليم فقال له دريد: ماذا تريد بي. قال: أقتلك، قال: ومن أنت ؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي، ثم ضربه ربيعة بسيفه، فلم تكن ضربته قاتلة ، فقال له دريد: بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم أضرب به،

وارفع عن العظام، وأخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم قد منعت فيه نساءك. ففعل ربيعة ذلك وقتل دريداً؛ فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً.

وهكذا مات أحد الناصحين الذين ذهبت نصائحهم لقومهم سدى فعضوا أصابع الندم بعد فوات الأوان . وقد ترك وراءه أبياتاً من الشعر نصح بها قومه الذين لم يسمعوا كلامه ونذكر منها:

قوله :

أَمَـــــرتُهُمُ أَمـــــري بِـــــمُنعَرَجِ الـــــلِوى
فَلَـــم يَســـتَبينوا النُصـــحَ إلا ضُـــحى الغَـــدِ

أي نصحتهم نصحي في موضع اسمه منعرج اللوى،وهو موضع وقعت به الموقعة التي قتل فيها عبد الله أخوه. وأصل اللوى ما التوى من الرمل، ومعرجة حيث انعرج.

وقوله

فلمـــا عصـــوني كنـــت مـــنهم وقـــد أرى
غـــــوايتهم وأننـــــي غيـــــر مهتـــــد

يعني به أنني كنت منهم أي اتبعت رأيهم مع أنني نبهتهم بأن رأيهم غير صائب ، ولكنه تماشى وقبل برأي أخيه الخاطئ حتى لايشق عصى الجماعة ، ووافق على رأي أخيه مع علمه بأن مايفعله أخوه غي، وقد قيل أن هذا البيت "أبلغ ما قيل في مساعدة الرجل أخاه وأجوده".

وقوله :

وَهَـــل أَنـــا إلا مِـــن غَزِيَّـــةَ إِن غَـــوَت
غَـــوَيتُ وَإِن تَـــرشُد غزيَّـــةُ أرشَـــدِ

غزية، بفتح الغين وكسر الزاي بعدها ياء مشددة: هو أحد أجداده واسمه"غزية بن جشم." ومضت قصة حكيم كان دائم النصح لقومه برأيه السديد ،ولكن قادتهم تمسكوا برأيهم الخاطئ حتى تبين صحة نصحه ،فعضوا أصابع الندم ولكن بعد فوات الأوان .

٣ . حذام

حذام بنت الريان بن خسر بن تميم. وزوجها هو لجيم بن مصعب [صعب [بن علي بن بكر بن وائل، ، وحذامِ امرأته، ،وقصة حذام الحكيمة أنها كانت إمرأة شديدة الذكاء ترى الرأي فلا تخطىء وتظن فيأتي الأمر كما توقعت ، .وقد ورد في قصتها أن جيشًا من أعداءِ قبيلة حُذام.وهم من قبيلة عاطس بن علاج كان قد بيَّت النية على مهاجمتهم والإغارةِ عليهم بالخيل والإبل،فوقعت معركة بين قبيلتها (قبيلة الريان) وأفراد من قبيلة عاطس بن علاج الحميري، واشتبكا في الحرب حتى أوجع كل طرف منهما الآخر ، ولم يستطع أي منهما الفوز على الآخر، فرجع كل منهما إلى معسكره ، ثم رجع الحميري إلى معسكره وجواسيسه تراقب قوم حذام من بعيد فلما جن الليل، أدرك الريان أن قومه أضعف جندا وخشي على أرواح بني قبيلته فسار بعسكره ليلاً هارباً من ملاقاة عدو أقوى منه ، ونزلوا الليلة الثانية، فلما علم عاطس بهرب الريان، أمر فرسانه بتعقبه وحاول التمويه باستخدام أفرع الشجر حاملينها حتى لايلحظهم أحد . حتى اقتربوا من قبيلة الريان دون أن يحسوا بعاطس وعسكره ،ولكن ،وهم على ماهم عليه من مراوغة وحذر أن يحس بهم قوم الريان، تصادف وجود سرب من طير القطا نائماً في المكان الذي زحف إليه جيش عاطس ، فنفر سرب القطا من وقع دوابهم ، فمر ذلك السرب على قوم حذامِ ،فرأتهم وتعجبت من ذلك ،فأسرعت تُحَذِر قومها حينما لاحظت حذام ببصيرتها النافذة أن في الأمر ما يريب ، فقالت: لو ترك القطا ليلاً لنام، فلا بد من قوم نبهوا القطا، وهم متوجهون صوبنا، فلم يصدقوا قولها، وقد أخلدوا إلى المضاجع، فتوجهت حذام إلى زوجها لجيم بن صعب ، وكان زوجها يعرف حكمتها ويثق في صدقها وقوة أدراكها ، فنصحته بالرحيل ، هو ومن يسمع نصيحتها ويترك من يرفض النصح لشأنه ، فارتحلوا حتى اعتصموا بالجبل ،ولاذوا بوادٍ قريب منهم, ولم تمض ساعات حتى هجم عسكر عاطس الحميري على النائمين من قومها الذين رفضوا الاستماع إلى نصيحتها ودخل عليهم وهم نيام وأرعبهم فمنهم من قتل ومنهم من هرب،ولاحق الباقين حتى يئس منهم فرجع دون أن يظفر بهم واكتفى بما غنمه وما أوقعه من قتل في قوم الريان ،فعض من تخلف من قومها أصابع الندم بسبب تفريطهم بنصيحتها ،ولكن بعد فوات الأوان ،فقال دميس بن ظالم:إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما

قالت حذام ،فصار قوله مثلاً يضرب في وجوب تصديق الرجل أخاه أو أخته عند إخباره أو نصحه أو تحذيره من أمر قد يحل به.ثم أصبح اسم حَذامِ مضرب المثل في صدق القول، وصحة النقل ،وقيل في هذا الأمر أبيات من الشعر منها :

فخرجت حذامِ إلى قومها فقالت

ألا يـــــا قومنـــــا ارتحلـــــوا وســـــيروا
فلـــــو تـــــرك القطـــــا لـــــيلا لنامـــــا

فقال زوجها:

إذا قالـــــــت حـــــــذام فصـــــــدقوها
فـــــإن القـــــول مـــــا قالـــــت حـــــذامِ

فصارت قصة حذام مضرب الأمثال في التحذير والإنصات للرأي الحكيم

٤ . زرقاء اليمامة

وقد تختلط أقصة حُذام بقصة بقصة شبيهة لقصتها هي قصة امرأة أخرى بعيدة البصر والبصيرة هي زرقاء اليمامة.فمن هي زرقاء اليمامة ؟

هي " الزرقاء من بني جديس" من أهل اليمامة مضرب المثل في حدة النظر وجودة البصر يقال لها: زرقاء اليمامة لزرقة عينيها.

وجاء أيضا أنها كانت تبصر الشيء من على بعد فكانت بمثابة جهاز إنذار مبكر يرصد العدوعن بعد في أيامنا هذه ، وذكر من أخبارها . أنه حينما سار حسان الحميري نحوهم ليغزو قوم الزرقاء ،قال له بعض أصحابه فلنقطع أغصان الأشجار لنستتر بها حتى لاترانا زرقاء اليمامة فتنذر قومها ، فقال لأصحابه نسير بالليل . فقالوا له: بل إن بصرها بالليل أنفذ ! فأمر حسان أصحابه أن يقطعوا شجراً وأن يمْسكوه أمامهم بأيديهم وهم يمشون ففعلوا ذلك، وبالفعل أنذرت الزرقاء قومها قبل أن يدهمهم حسان الحميري فيستعدون له ،فلم يستمعوا لنصحها حينما نَظَرَتْ فَرَأَتْ مِنْ بَعيدٍ شَجَراً كَثيراً

يَمْشي وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ،فلما يئست منهم قالت لرَئيسَ قَوْمِها: " إني أرى شَيئاً عَجَباً، أرى شَجَراً كَثيراً يَمْشي وَيتَنَقَّلُ " ولكن قومها تعجبوا من كلامها وسخروا منها وَقالوا: "الشَّجَرُ يَمْشي يا زَرْقاءُ ! هذا شيءٌ لَمْ نَرَهُ ولا نَقْدِرُ أَنْ نُصَدِّقُهُ، ولم يصدقوها حتى عندما أعادت النَّظَرَ ثُمَّ قَالَتْ لهم: "إني أرى كَما أراكُم بِجانِبي ،أرى الشَّجَرَ مِنْ بَعيدٍ يمْشي " .فردوا عليها قائلين : "رُبَّما جاءَ إلى تِلْك البِلاد سَيْلٌ شَديدٌ، فَقَلَعَ الشَّجَرَ مِنْ مَكانِهِ وَحَمَلَهُ لِذا تراهُ الزَّرقاءُ يَسيرُ " . وطلبوا منها أن تعيد النظر ،فأعادَتِ النّظرَ، فأكدت على ماكانت رأته وَقَالَتْ : " بَلْ أراهُ الآنَ أوْضَحَ مِمّا كُنْتُ أراهُ، أرى تَحْتَ الشّجرِ رجالاً سائرينَ وَراكبين، والشّجَرُ مَعَهُم يَسيرُ ".

هذه السخرية والمكابرة والعناد ومخالفة ناصحة اعتادت على نصح قومها كانت سبب تفاجؤ قومها بحسان بن تبع وجموعه وهي تجتاحهم وتفتك بهم.

وفي قصة الزرقاء الدليلً الواضحً على عاقبة السخرية .فلم يكن ليضر قومها شيء لو انهم أخذوا حذرهم . على أقل تقدير ،وماضر قومها لو أنهم وضعوا في اعتبارهم ولو نسبة ضئيلة من امكانية صدق مارأته فسهر بعضهم الليل يترقب واستعدوا بالعدة والعتاد ؟

لم يفعلوا أي شيء من ذلك بل قالوا لها : " أَخْطَأَ نَظَرُكِ هذِهِ المرَّة، وَخَدَعَتْكِ عَيْنُك واستهانوا بقولها. وتركوها ساخرين.فكانت النتيجة أن عضوا أصابع الندم ،ولكن بعد فوات الأوان.

٥ . نصر بن سيار :

كان نصر بن سيار آخر ولاة الأمويين على خراسان في أواخر العقد الثاني ؟ وأوائل العقد الأول؟ من القرن الثاني للهجرة، وكان والياً محنكاً حازماً. فاستشعر بوادر الانفجارونذر الخطر(الفارسي) وكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق في تلك الأيام، يعلمه في أبيات من نظمه ما شاع بخراسان من الاضطراب في العامين الماضيين، ويحذره من خطورة الوضع، ويصارحه أنه إذا استمر الوضع بالتدهور ولم يعالجه معالجة حازمة، فأنه سيؤدي لا محالة إلى عاقبة وخيمة وكارثة عظيمة ضد العرب والمسلمين ولكل من يوالي العرب ويحبهم فكتب إليه أبيات قال فيها :

ابلـــــغ يزيـــــد وخيـــــر القـــــول أصـــــدقه
وقـــــد تبينـــــت ألا خيـــــر فـــــي الكـــــذب
إن خراســـــان أرض قـــــد رأيـــــت بهـــــا

بيضـــا لـــو أفـــرخ قـــد حُـــدّثت بالعجـــب
فـــــراخ عـــــامين إلا أنهـــــا كبـــــرت
لمّـــا يطـــرن وقـــد ســـربلن بالزغـــب
فـــإن يطـــرن ولـــم يُحتـــل لهـــن بهـــا
يلهـــبن نيـــران حـــرب أيّمـــا لهـــب

وقد وصف الفرس الذين يريدون الإطاحة بالحكم العربي في خراسان بأنهم يتحينون الفرصة للفتك بنصر بن سيار وجنده ،وأن الفتنة توشك أن تطل برأسها كما يخرج الفرخ من البيضة والزغب هو الشعر الصغير الذي يكسو جسد الطائر الصغير . ورغم تصويره البليغ لما سيحدث إلا أنه لم يجد آذاناً صاغية ولم يمده يزيد بن هبيرة بأحد لأنه كان مشغولا بمحاربة الخوارج في العراق ،فاستغاث بآخر خلفاء بني أمية في الشام مروان بن محمد. وأعلمه حال أبي مسلم الخراساني وخروجه وكثرة من معه، ومن تبعه. وأخبره بعواقب الفتنة القائمة ودواهي الكارثة القادمة، إن لم ينجده بمدد من عنده فكتب ينذره ويحذره شعراً:

أرى خلـــل الرمـــــاد ومـــيض جمـــر
ويوشـــك أن يكـــون لـــه ضـــرام
فـــإن النـــار بـــالعودين تُذكـــى
وإن الحـــرب أولهـــا كـــلام
فـــإن لـــم يطفئهـــا عقـــلاء قـــوم تكـــن حربـــاً
مشـــمرة يشـــيب لهـــا الغـــلام
فقلـــت ياليـــت شعـــري
أأيقـــاظ اميـــة ام نيـــام
فـــإن يقظـــت فـــذاك بقـــاءُ مُلـــكٍ
وإن رقـــدت فانـــي لا أُلام
فـــإن يـــك أصـــبحوا وثـــووا نيامـــاً
فقـــل قومـــوا فقـــد حـــان القيـــام

ففـــــرّي عـــــن رحالـــــك ثـــــم قولـــــــي
علـــــى الإســـــــلام والعـــــرب الســـــلام

ولكن مروان لم ينجده، لأنه كان مشغولاً في الشام بالاقتتال بين العرب القيسية واليمانية. وعندما قطع الأمل وفقد الرجاء أخذ يبث همومه وشجونه إلى العرب في المدينة، محاولاً أن يستثمر نخوتهم الدينية وعزتهم وناشدهم أن يكفوا عن الاقتتال فيما بينهم وأن يجتمعوا على كلمة سواء، توحد سواعدهم وقلوبهم للوقوف بوجه أبي مسلم وخطره الذي أصبح يهدد وجودهم ومصيره، فكتب يقول شعراً :

أبلـــــغ ربيعـــــة فـــــي مـــــرو وإخوتـــــــها
أن يغضـــــبوا قبـــــل أن لا ينفـــــع الغضـــــبُ
مـــــا بـــــالكم تلقمـــــون الحـــــرب بيـــــنكم
كـــــأن أهـــــل الحجـــــا عـــــن فعلكـــــم غُيُـــــبُ
وتتركـــــــون عـــــــدواً قـــــــد أظلكـــــــــم
فـــــيمن تأشـــــبَ لا ديـــــن ولا حســـــــبُ
ليســـــوا إلـــــى عـــــرب منـــــا فنعرفـــــهم
ولا صـــــميم المـــــوالي إن هُـــــمُ نُسبـــــوا
قـــــوم يـــــدينون دينـــــاً مـــــا ســـــمعت بـــــه
عـــــن الرســـــول ولا جـــــاءت بـــــه الكـــــتبُ
مَمَـــــنْ يكـــــن ســـــائلي عـــــن أصـــــل دينـــــهم
فـــــإن ديـــــنهم أن تُقـــــتلَ العـــــربُ

ولكنهم تعاموا عنه وذهبت نصائحه سدى ، وتألم ذلك الشاعر الحكيم الذي نصح قومه فلم يستمعوا إلى نصائحه ، مما أدى إلى سقوط الدولة الأموية وانتصار الدولة العباسية ،ليعض هؤلاء أصابع الندم على ملك أضاعوه وذل تجرعوه ليسطر لنا التاريخ قصة أحد الحكماء الناصحين الذين ذهبت نصائحهم سدى ،قصة نصر بن سيار الذي حاول ايقاظ العرب من سباتهم، ولكنهم كانوا نياما فمات

حزنا وكمدا على ماتوقع ان يحدث لامته بعد ان فقد الامل بوصول المدد اليه من مروان بن محمد اخر خلفاء الدولة(الاموية).

أبو عبدالله الصغير

ظهر في أواخر عهد الموحدين ابن هود الذي سعى لتخليص الأندلس من ، النصارى ولكنه كان يعيش في دوامة الأخطاء التي وقع فيها ملوك الطوائف وأمراء المسلمين بمحاربة بعضهم بعضاً طلباً لمتاع الحياة الدنيا ، متناسين عدوهم الصليبي الذي يتربص بهم الدوائر ،فدخل ابن هود في حرب مع بقايا الموحدين وابن الأحمر . واستطاع حكم مناطق في شرقي الأندلس ، ودخلت في طاعته جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ، وانتزع غرناطة من المأمون الموحدي سنة ٦٢٨ هـ ، بينما حكم ابن الأحمر مناطق في جنوب الأندلس.

وخاض ابن هود مع فرديناند الثالث ملك قشتالة معركة انتهت بسقوط ماردة وبطليوس في يد الإسبان النصارى سنة ٦٢٨هـ ، و هزم مرة أخرى فسقطت أبدة عام ٦٣١هـ ، ثم سار ابن هود لمحاربة خصمه ومنافسه ابن الأحمر في أحواز غرناطة فوجد النصارى الفرصة سانحة للزحف على قرطبة التي سقطت بيدهم سنة ٦٣٣ هـ فكانت من أشد الضربات القاصمة .

وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ هـ وبوفاته انهارت دولته ، فسقطت بلنسية في يد النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، ثم شاطبة ودانية ، وانضوت مرسية تحت حماية ملك قشتالة سنة ٦٤١هـ .

ومع انهيار دولة ابن هود سارع محمد بن يوسف ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها في أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ فغدت مقر حكمه .فرأى النصارى أن ابن الأحمر أصبح هو منافسهم الأول بعد موت ابن هود ، فخاضوا ضده معركة صغيرة سنة ٦٣٦ انتصر فيها ابن الأحمر ، فاغتاظ فرديناند الثالث وأرسل ابنه ألفونسو فاستولى على حصن أرجونة ، وحاصر غرناطة سنة ٦٤٢ فردهم ابن الأحمر بخسائر فادحة .

ورغم ذلك لمس ابن الأحمر تفوق النصارى عليه وشعر بأنه لايستطيع مقاومتهم ،بسب تقطع العلاقة مع الممالك الإسلامية الأخرى ، فهادن ملك قشتالة ورضي بأن يحكم باسمه ، وأن يؤدي له الجزية سنوياً وقدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب ، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه بتقديم

عدد من الجند ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي ، وسلم جيان وأرجونة وغيرها رهينة لحسن طاعته .

واستغل النصارى ذلك فاستعانوا به للسيطرة على الولايات الشرقية ، وفي عام ٦٤٥ ضم النصارى طلبيرة وشلب والخزانة ومرشوشة والحرة ، وفتحت قرمونة، وكل ذلك كان بمعاونة ابن الأحمر ، وبدأ حصار أشبيلية ودام الحصار ثمانية أشهر ثم استسلمت المدينة للنصارى في ٢٧ رمضان ٦٤٦هـ ، ثم سقطت مدن أخرى تباعاً بمعاونة ابن الأحمر .

لكن تعاون الصليبيين معه كان تعاون الغادر الذي ينتظر الفرصة المواتية ليتفرغ له فيما بعد ، ولما شعر بغدرهم ،بدأ بمواجهتهم بعد أن رأى الخطر يحوم حوله وخلع نفسه منهم، فغزوا أرضه عام ٦٦٠هـ فردهم ، ثم شددوا الهجوم عليه بدءاً من عام ٦٦٣ هـ وبدأت الهزائم تتوالى عليه فاضطر ثانية لمهادنة النصارى وتنازل لهم عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس ، وفي عام ٦٦٨ هـ ساءت العلاقة بينه وبين النصارى فطلب ابن الأحمر العون من دولة المرينيين حكام المغرب الأقصى ، وهنا مات ابن الأحمر وحكم ابنه أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الذي كان شاعراً وفقيهاً وسمي محمد الفقيه ، ونهض أمير المرينيين أبو يوسف يعقوب المنصور المريني ابن عبد الحق لنجدة غرناطة، وهزم النصارى في معركة قوية في ٢٥ ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ ، ووطد لحكم بني الأحمر قرابة مدة مائتين وخمسين عاماً أخرى .

ومرت سنون طويلة كانت العلاقة تسوء بين بني الأحمر وبين ملك قشتالة الصليبي ومرة تهدأ ، وكلما ساءت العلاقة وجاءت نذر الحرب استغاث بنو الأحمر بحلفائهم بني مرين الذين كانوا يعبرون البحر في كل مرة ليغيثوا إخوانهم من مجازر النصارى . ولكن استراتيجيتهم كانت استراتيجة خاطئة ،إذ ركنوا إلى الاعتماد على مصدر واحد للدفاع عن أنفسهم ،ولم يبحثوا عن تحالفات أخرى ،وكان يجب عليهم البحث عن وسائل دفاع أخرى لأن دوام الحال من المحال ، وفعلاً وقع ماكان يخشى وقوعه حين سقطت دولة بني مرين التي كانت تعينهم في التصدي للصليبيين ، وقامت على أنقاضها دولة بين وطاس الضعيفة التي لم تكن بقوة بني مرين ولا تستطيع عبور البحر لنجدة المسلمين هناك .

أثلج ذلك صدور الصليبيين ،وزاد من غبطتهم أن المسلمين كانوا يتفككون ، بينما كان الأسبان يتوحدون في مملكة واحدة بزواج فرديناند ملك أراغون بإيزابيلا وريثة عرش قشتالة ، واستقر العرش لهما، وكانا ذوي نزعة صليبية حاقدة ، وكانت غرناطة غارقة في حرب أهلية بين أمير غرناطة أبي

الحسن الملقب الغالب بالله وبين أخيه أبي عبد الله محمد المعروف بالزغل الذي طلب عون النصارى على أخيه أبي الحسن مراراً ، ثم اتفق الأخوان على الهدنة والصلح وأن يبقى أبو عبد الله بمالقة وأحوازها.

وحاول أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع قشتالة ولكن الملكين الجديدين رفضا التجديد ،إلا بعد دفع جزية سنوية ،فرفض أبو الحسن طلبهما وزحف لقلعة الصخرة وفتح مدينة رندة .

كان أبو الحسن متزوجاً من عائشة ابنة عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر وهي المعروفة بعائشة الحرة ، وكانت قوية الشخصية مع سمو في الروح ومقام رفيع ، ورزقت من أبي الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد (الصغير) ، وأبو الحجاج يوسف ، ولكن همة أبي الحسن فترت وترك الجهاد وعشق حياة الدعة بعد أن غرق في عشق فتاة رومية نصرانية اسمها ثريا ثم تزوجها، وأصبح أبو الحسن أداة سهلة في يد ثريا التي كانت ذات دهاء وأطماع ، وتريد أن يكون ولدها يحي ولياً للعهد ، وسعت لتقديمه على أخيه الأكبر أبي عبد الله من عائشة الحرة ، وفعلاً تمكنت ثريا من إقناع أبي الحسن بإقصاء عائشة وولديها وباعتقالهم ، فتم لها ذلك في برج قمارش أمنع أبراج الحمراء ، وشدد الحجر عليهم ، فانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين : فريق يؤيد السلطان وثريا ، وفريق يؤيد الأميرة الشرعية عائشة وولديها . ولم تستسلم عائشة الحرة فاتصلت بمؤيديها وتمكنت من الهرب من قصر الحمراء سنة ٨٨٧ هـ واستقرت في وادي آش عند أنصارها .

كل ذلك و فرديناند وإيزابيلا كانا يراقبان وينتظران الفرصة المناسبة للانقضاض على غرناطه بعد أن رأوا أن الحرب الأهلية بين المسلمين بدأت تؤتي ثمارها، فلما حانت الفرصة لهما هجما واستوليا على مكان اسمه الحامة ، الذي يمهد لهما احتلال غرناطة ومالقة معاً ، ولم يستطع أبو الحسن (والد ابي عبدالله الصغير) استردادها،فخاف أهل غرناطة على انفسهم تحت حكم أبي الحسن الضعيف والهائم في حب زوجته النصرانية ثريا ،فنشبت ثورة داخل غرناطة تطالب بعودة عائشة وولديها ،فلما شعر أبو الحسن بعدم رغبة الشعب بحكمه فر إلى مالقة عند أخيه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل الذي كان بالأمس يناصبه العداء.

وجلس أبو عبد الله محمد ٠(الصغير) مكان أبيه على عرش غرناطة سنة ٨٨٧ هـ ، وعمره ٢٥ سنة ، وأراد أن يحذو حذو المجاهدين فخرج في قوات هزم بها النصارى في عدة معارك ، ولكن النصارى داهموه وهو في طريق عودته في ظاهر قلعة اللسانة ، فخسر المعركة وأسر على أثرها ، وعاد جيشه بدونه إلى غرناطة ،وربما أن فرنديناند زعيم النصارى كانوا يريده مأسوراً لاميتاً وفق خطة خطط لها .

وحاولت غرناطة إعادة والده أبي الحسن إلى عرشه بدل ابنه الأسير، ولكن الإعياء هده والمرض فتك به فتنازل عن العرش لأخيه محمد أبي عبد الله الزغل حاكم مالقة.

وخشيت عائشة الحرة ،أم عبد الله الصغير ووالده أبو الحسن من مكر فرديناند وخبثه في التلاعب بابنهما فعرضا دفع فدية كبيرة للنصارى مقابل تسليمه، ولكن فرديناند كان لديه مخطط ماكر آخر ، فرفض ذلك العرض ، وعمل على إقناع أبي عبدالله الصغير بأنه لايضمر له الشر وأن عداءه مع عمه الزغل وليس معه ،حتى أقتنع أبو عبدالله الصغير بذلك بسبب قلة خبرته وانعدام حزمه وضعف إرادته وطموحه للحكم .

أرسل أبو عبد الله الصغير بعد ذك من يقنع المسلمين بذلك ، وسار فرديناند وجنوده في تلك اللحظة لينتزعوا ما يمكن انتزاعه من مملكة غرناطة ، فاحتلوا رندة سنة ٨٩٠ هـ مهددين بموقعهم هذا مالقة من الغرب ، وحاولوا احتلال حصن مكلين على مقربة من غرناطة ولكن أبا عبد الله الزغل ردهم .

وبعد ذلك لجأ النصارى إلى حيلة أخرى هي إشعال فتنة بين الغرناطيين وبين أنفسهم بأن ، فحركوا أتباع أبي عبد الله الصغير ضد عمه الزغل في فتنة مرسومة ومحكمة، وبينما كان الزغل يحارب الأسبان دعا أتباع أبي عبدالله الصغيرفي حي البيازين لعودته ليتولى الحكم ، فشغل أبو عبد الله الزغل بإخماد الفتنة عن مقاتلة الإسبان ،وكانت تلك اللحظة التي ينتظرها فرديناند فأطلق سراح أبي عبد الله الصغير بعد أن وقعه على معاهدة أعلن بها خضوعه وطاعته لملك قشتالة لمدة عامين ، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير ، وأخذ المغرر به أبو عبد الله الصغير يبث دعوته في شرق الأندلس ، واندلعت الحروب الأهلية في غرناطة منذ بداية سنة ٨٩١ هـ .

وفي أثناءهذه الحروب ضرب القشتاليون الحصون الإسلامية بالأنفاط أي المدافع التي بها صخور من نار فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، وحينما نشبت الثورة في حي البيازين أمدوا فريقاً من الثوار بالرجال والأنفاط والبارود .

وفي شوال ٨٩١ هـ ظهر أبو عبد الله الصغير في حي البيازين ومن حوله أنصاره بعد أن أمده فرديناند بالرجال والذخائر والمؤن ، فزادت الفتنة اضطراباً ، واستغل فرديناند تلك الفتنة القاتلة فاحتل بلش مالقة على الرغم من استبسال أهلها في الدفاع عنها بمساعدة الزغل ، وحينما عاد الزغل منها باتجاه غرناطة ليجدها قد خضعت لأبي عبد الله الصغير وتبوأ عرشها في ٥ جمادى الأولى ٨٩٢ هـ ، فذهب

الزغل إلى وادي آش ، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة إلى قسمين : غرناطة وما يتبعها ويحكمها أبو عبد الله الصغير ، ومنطقة وادي آش وما يتبعها ويحكمها عمه محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل . وهذا ماكان يسعى إليه فرديناند.

بعد ذلك تعمد فرديناند أن يغض الطرف عن المناطق التابعة لأبي عبد الله الصغير الخاضع له حتى يخدعه بالأمان المؤقت ،وبدأ بالأنحاء الشرقية والجنوبية التي تخضع لعمه أبي عبد الله الزغل ، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الآخرة ٨٩٢ هـ وخاف الزغل أن أن يغدر به ابن أخيه ، إذا بدأ بمواجهة فرديناند، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي ولكن مالقة سقطت في أواخر شعبان ٨٩٢ هـ ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها، فغدر بأهل المدينة واسترقهم جميعاً .

ثم سقط ثغر المنكب والمرية عام ٨٩٥ ، فلم يبق ثغر واحد يصل غرناطة بالمغرب إلا واستولى عليه فرديناند ، وتطور سير الأحداث فاضطر الزغل إلى الإنضواء تحت لواء النصارى لأنه راى أنه لايستطيع مواجهتهم ومواجهة ابن أخيه التابع لهم في نفس الوقت ،فدخل النصارى وادي آش في صفر ٨٩٥ هـ، وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة ، ولكنه لم يستطع أن يتحمل هذا الوضع المهين فعبر البحر متجهاً إلى المغرب ونزل في وهران ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبدأت آخر حلقات الغدر وعض أصابع الندم حينما فوجئ أبو عبدالله الصغير بعد كل تلك الطاعة للملكين الكاثوليكيين – فرديناند وإيزابيلا بوفد منهما يقدم له طلباً بتسليم غرناطة لهما، فثارت نفسه لهذا الغدر والخيانة وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، فرفض التسليم وقرر الدفاع عن غرناطة.

وهنا اغتاظ فرديناند وسخط وهاجم السكان العزل القاطنين في الضياع والقرى المحيطة بغرناطة وعاث بها فساداً ، وجرت ملاحم دموية على أسوار غرناطة ذاتها ، فسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠-٨٠ ألفاً ، وحاصرها بمدافع وعتاد ضخم ، وذخائر وأقوات ، وعسكر على مقربة من غرناطة في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ ، وأتلف القرى والحقول والزروع حتى ينقطع عن غرناطة أي طعام فيموت أهلها جوعاً أو يستسلمون .

وكان دفاع غرناطة من أمجد ما عرف في تاريخ المدن المحصورة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار على مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ،

فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنونه في مواقعه ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره .وقرر فارس عربي شجاع وهو موسى بن أبي غسان ، المقاومة والجهاد وقال : ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه ، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين .

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين ، يعاونه نعيم بن رضوان و محمد بن زائدة ، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون .

وحوصرت غرناطة حصاراً شديداً بلا مؤن ولاأقوات باستثناء طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير الذي جلبت منه بعض الأقوات والمؤن الضرورية ، وحل الشتاء وقلت المؤن والذخائر ، ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة أبو القاسم عبد الملك مجلس أبي عبد الله الصغير وقال : إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير ، وإن اليأس قد دبّ إلى قلوب الجند والعامة ، والدفاع عبث لا يجدي . ولكن فارساً شجاعاً هو موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن ، فقال للفرسان : لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن .

وزحف فرديناند على أسوار المدينة المحاصرة ، فخرج المسلمون إلى لقائه ، وكان القتال رائعاً ، ولكن مشاة المسلمين لم يصمدوا ، فأوصد المسلمون أبواب غرناطة ، وامتنعوا خلف أسوارها يلاقون قدر تمزقهم .واستمر الحصار سبعة أشهر ، واشتد الجوع والحرمان والمرض ، و أعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء فأقروا بالتسليم لفرديناند ، إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم : لم تنضب كل مواردنا بعد .. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذي ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها . وكانت هذه الكلمات تخاطب يائسين قرروا المفاوضة والتسليم ، وكلّف بهذه المهمة الوزير أبو القاسم عبد الملك في أواخر سنة ٨٩٦ هـ .

وفاوض الوزير أبو القاسم فرناندو دي فافرا وجونز الفودي كردوفا ، فوضعوا معاهدة وافق عليها أبو عبد الله الصغير وفرديناند في ٢١ المحرم ٧٩٨ هـ ، واشترط المسلمون أن يوافق البابا على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوا النصارى من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ويحلف على عادة النصارى في العهود .

وفي ثاني ربيع الأول من السنة نفسها استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر ، وكانت الشروط سبعاً وستين ، منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ، ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين نصراني ولا يهودي ممن يتولى عليهم من قِبل سلطانهم قَبل ، وأن يفك أسر جميع من أسر في غرناطة ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يمنع مؤذن و لا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه.

ولما أنس فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم من عدم إخلاص النصارى في عهودهم أعلنا وأقسما بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم ، أو حيث شاؤوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب .

وأما فارس الأندلس موسى بن أبي غسان فرفض وقال للزعماء حينما اجتمعوا ليوقعوا على قرار التسليم : اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها .

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء ، واليأس ماثل في الوجوه ، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير : الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، و لاراد لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يديّ .فنهض موسى وصاح : لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق ، هذا ما سوف نعاني من مصائب الموت الشريف ، أما أنا فوالله لن أراه .

مذكراً إياهم بأن هؤلاء الصليبيين لاامان لهم وأنهم سيغدرون بهم رغم عهود فريديناند والبابا وقسمه الكاذب ،ثم غادر غرناطة واخترق بهو الأسود عابساً حزيناً ، فوصل داره ، ولبس سلاحه ، وسار

على جواده مخترقاً شوارع غرناطة ، وعلى ضفة نهر شنيل قابل موسى سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، فطلبوا إليه أن يقف ، وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب ، بل وثب إلى وسطهم وانقض يثخن فيهم طعاناً ، وكانت ضرباته قاتلة ، حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب في النهاية بجرح أسقطه عن جواده ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يجاهد عن نفسه ، فلما رأى أن قواه قد نضبت ولم يرد أن يقع أسيراً في يد خصومه ارتد إلى الوراء بوثبة أخيرة فسقط في مياه نهر شنيل فدفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

فماذا حدث بعد استشهاد موسى بن أبي الغسان ؟ أرسل أبو عبد الله الصغير في وزيره يوسف بن كماشة إلى فرديناند مع رهائن من الأعيان ووجوه القوم مع بعض الهدايا ، واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة في الثاني من ربيع الأول سنة (٨٩٧ هـ الموافق ١٤٩٢م)وأرسل فرديناند المطران مندوسا ليحتل قصر الحمراء وليمهد الطريق لمقدم الموكب الملكي ، وما كاد النصارى يتجاوزون إلى داخل القصر حتى رفعوا فوق برجه الأعلى صليباً فضياً كبيراً ، وأعلن من فوق البرج أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين ، ودخل فرديناند وإيزابيلا قصر الحمراء مع فرقة رهبان ترتل .

وهكذا انتهت آخر الحواضر الإسلامية في إسبانية ، أما أبو عبد الله الصغير فقد خرج وأسرته ليستقروا في البشرات حاكماً باسم فرديناند وتحت حمايته ، وغادر قصره ذليلاً وهو يحتبس الزفرات في صدره ، وسار بركب حزين ، وعلى ضفة نهر شنيل التقى مع فرديناند ،وقدم إليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء قائلاً : إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في إسبانية ، ولقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا ، وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيماً عادلاً .ثم سار مع فرديناند حيث إيزابيلا فقدم الطاعة والتحيات ، واتجه إلى طريق البشرات وهو يعض أصابع الندم على ثقته بهذين الغادرين فرديناند إيزابيلا ، وفي شعب { بل البذول أو بادول) أشرف على غرناطة فأجهش بالبكاء فصاحت به أمه عائشة الحرة : أجل ، فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال .

وبعد شهور من سقوط غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى المغرب مع أسرته وأمواله ونزل مدينة مليلة ، ثم استقر في فاس ، في دولة بني وطاس ذليلاً، بعد أن عجّل بوقوع مأساة غرناطة بالجنوح إلى الدعة والخمول والحرب الأهلية ، وترك شؤون الدفاع والعدو من ورائه متربص متوثب يرقب الفرص .فهل راعى النصارى عهودهم أم نقضوها؟ وهل بروا بقسمهم أم نكثوا به ؟

لم يلتزم النصارى بأي عهد قطعوه فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس ، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها ، وحرق من بقي منهم ، وأمر الكردينال {كمينس) بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية وأحرقها .وأجبر المسلمون على اعتناق النصرانية ، ولما قاوموا التنصير وأبوه اعتبروا ثواراً متصلين بالمغرب والقاهرة ، وبدأ القتل فيهم ، فثاروا بالفعل في غرناطة والبيازين والبشرات ، فمزقوا بلا رأفة .

وفي ٢٠ يوليو ١٥٠١ م أصدر الملكان فرديناند وإيزابيلا أمراً خلاصته : إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة فإنه يحظر وجود المسلمين فيها .. ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال . فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع

قصة الأندلس المفقود وما كابده المسلمون الأندلسيون من قتل وتعذيب وتهجير وتنصير لخصه أبو البقاء الرندي (٦٠١ – ٦٨٤ هـ / ١٢٠٤ – ١٢٨٥م) في قصيدة خالدة رثاء فيها الأندلس ، وهو أديب شاعر ناقد قضى معظم أيامه في مدينة رندة واتصل ببلاط بني نصر (ابن الأحمر) في غرناطة.يقول في قصيدته:

لكـــل شـــيءٍ إذا مـــا تـــم نقصـــانُ
فـــلا يُغـــرُّ بطيـــب العـــيش إنســـانُ
هـــي الأيـــامُ كمـــا شـــاهدتها دُولٌ
مَـــن سَـــرَّهُ زَمـــنٌ ســـاءَتهُ أزمـــانُ
وهـــذه الـــدار لا تُبقـــي علـــى أحـــد
ولا يـــدوم علـــى حـــالٍ لهـــا شـــان
يُمـــزق الـــدهر حتمًـــا كـــل ســـابغة
إذا نبـــت مشْـــرفيّاتٌ وخُرصـــانُ
وينتضـــي كـــلّ ســـيف للفنـــاء ولوْكـــان
ابـــنَ ذي يـــزَن والغمـــدَ غُمـــدان
أيـــن الملـــوك ذَوو التيجـــان مـــن يمـــنٍ

وأيـــــن مـــــنهم أكاليـــــلٌ وتيجـــــانُ ؟
وأيـــــن مـــــا شـــــاده شـــــدَّادُ فـــــي إرمٍ
وأيـــن مـــا ساســـه فـــي الفـــرس ساســـانُ ؟
وأيـــن مـــا حـــازه قـــارون مـــن ذهـــب
وأيـــــن عـــــادٌ وشـــــدادٌ وقحطـــــانُ ؟
أتـــى علـــى الكُـــل أمـــر لا مَـــرد لـــه
حتـــى قَضَـــوا فكـــأن القـــوم مـــا كـــانوا
وصـــار مـــا كـــان مـــن مُلـــك ومـــن مَلِـــك
كمـــا حكـــى عـــن خيـــال الطّيـــفِ وسْـــنانُ
دارَ الزّمـــــــانُ علـــــــى (دارا) وقاتِلِـــــــه
وأمَّ كســـــــرى فمـــــــا آواه إيـــــــوانُ
كأنمـــا الصَّـــعب لـــم يسْـــهُل لـــه ســـببُ
يومًـــــا ولا مَلـــــكَ الـــــدُنيا سُـــــليمانُ
فجـــــائعُ الـــــدهر أنـــــواعٌ مُنوَّعـــــة
وللزمـــــــان مســـــــرّاتٌ وأحـــــــزانُ
وللحـــــــوادث سُـــــــلوان يســـــــهلها
ومـــــا لمـــــا حـــــلّ بالإســـــلام سُـــــلوانُ
دهـــــى الجزيـــــرة أمـــــرٌ لا عـــــزاءَ لـــــه
هـــــوى لـــــه أُحـــــدٌ وانهـــــدْ ثهـــــلانُ
أصـــابها العـــينُ فـــي الإســـلام فامتحنـــت
حتـــــى خَلـــــت منـــــه أقطـــــارٌ وبُلـــــدانُ
فاســـأل (بلنســـيةً) مـــا شـــأنُ (مُرســـيةً)
وأيـــــنَ (شـــــاطبةٌ) أمْ أيـــــنَ (جَيَّـــــانُ)
وأيـــــن (قُرطبـــــة) دارُ العلـــــوم فكـــــم
مـــن عـــالمٍ قـــد ســـما فيهـــا لـــه شـــانُ
وأيـــن (حْمـــص) ومـــا تحويـــه مـــن نـــزهٍ

ونهرهُـــــا العَـــــذبُ فيـــــاضٌ ومـــــلآنُ
قواعـــــدٌ كـــــنَّ أركـــــانَ الـــــبلاد فمـــــا
عســـــى البقـــــاءُ إذا لـــــم تبـــــقَ أركـــــانُ
تبكـــــي الحنيفيـــــةَ البيضـــــاءُ مـــــن أســـــفٍ
مـــــا بكـــــى لفـــــراق الإلـــــفِ هيمـــــانُ
علـــــى ديـــــار مـــــن الإســـــلام خاليـــــة
قـــــد أقفـــــرت ولهـــــا بـــــالكفر عُمـــــرانُ
حيـــــث المســـــاجد قـــــد صـــــارت كنـــــائسَ
مـــــا فـــــيهنَّ إلا نـــــواقيسٌ وصُـــــلبانُ
حتـــــى المحاريـــــبُ تبكـــــي وهـــــي جامـــــدةٌ
حتـــــى المنـــــابرُ ترثـــــي وهـــــي عيـــــدانُ
يـــــا غـــــافلاً ولـــــه فـــــي الدهرِموعظـــــةٌ
إن كنـــــت فـــــي سِـــــنَةٍ فالـــــدهرُ يقظـــــانُ
وماشـــــيًا مرحًـــــا يلهيـــــه موطنـــــهُ
أبعـــــد حمـــــصٍ تَغـــــرُّ المـــــرءَ أوطـــــانُ ؟
لـــــك المصـــــيبةُ أنســـــتْ مـــــا تقدمـــــه
ومـــــا لهـــــا مـــــع طـــــولَ الـــــدهرِ نســـــيانُ
يـــــا راكبـــــين عتـــــاق الخيـــــلِ ضـــــامرةً
كأنهـــــا فـــــي مجـــــال الســـــبقِ عقبـــــانُ
وحـــــاملين ســـــيُوفَ الهنـــــدِ مرهفـــــةً
كأنهـــــا فـــــي ظـــــلام النقـــــع نيـــــرانُ
وراتعـــــين وراء البحـــــر فـــــي دعـــــةٍ
بأوطـــــانهم عـــــزٌّ وســـــلطانُ
أعنـــــدكم نبـــــأ مـــــن أهـــــل أنـــــدلسٍ
فقـــــد ســـــرى بحـــــديثِ القـــــومِ رُكبـــــانُ ؟
كـــــم يســـــتغيث بنـــــا المستضـــــعفون وهـــــم

قتلـــــى وأســـــرى فمـــــا يهتـــــز إنســـــان ؟
لمـــــاذا التقـــــأطع فـــــي الإســـــلام بيـــــنكمُ
وأنـــــتمْ يـــــا عبـــــادَ الله إخـــــوانُ ؟
ألا نفـــــوسٌ أبيـــــاتٌ لهـــــا همـــــمٌ
أمـــــا علـــــى الخيـــــرِ أنصـــــارٌ وأعـــــوانُ
يـــــا مـــــن لذلـــــةِ قـــــومٍ بعـــــدَ عـــــزّهمُ
أحـــــال حـــــالهمْ جـــــورُ وطُغيـــــانُ
بـــــالأمس كـــــانوا ملوكًـــــا فـــــي منـــــازلهم
واليـــــومَ هـــــم فـــــي بـــــلاد الكفـــــرِ عُبـــــدانُ
فلـــــو تـــــراهم حيـــــارى لا دليـــــل لهـــــمْ
علـــــيهمُ مـــــن ثيـــــابِ الـــــذلِ ألـــــوانُ
ولـــــو رأيـــــتَ بكـــــاهُم عنـــــدَ بـــــيعهمُ
لهالـــــكَ الأمـــــرُ واســـــتهوتكَ أحـــــزانُ
يـــــا ربَّ أمٍ وطفـــــلٍ حيـــــلَ بينهمـــــا
كمـــــا تفـــــرقَ أرواحٌ وأبـــــدانُ
وطفلـــــةً مثـــــل حســـــنِ الشـــــمسِ إذ طلعـــــت
كأنمـــــا هـــــي يـــــاقوتٌ ومرجـــــانُ
يقودُهـــــا العلـــــجُ للمكـــــروه مكرهـــــةً
والعـــــينُ باكيـــــةُ والقلـــــبُ حيـــــرانُ
لمثـــــل هـــــذا يـــــذوب القلـــــبُ مـــــن كمـــــدٍ
إن كـــــان فـــــي القلـــــبِ إســـــلامٌ وإيمـــــانُ

هذه بعض صور سقوط الأندلس ،وكان ينبغي أن نقف مع مأساة الأندلس وقفات نأخذ منها العبرة والدروس ، ولكن وبعد أن فصلنا عن تلك المأساة مايزيد عن ٥٠٠ عام نجد أنفسنا نعض أصابع الندم حسرة على مآسي جديدة ومتكررة ، وكأن نكباتنا أبدية ولانهاية لها .

النصيحة الخاطئة والندم

أحياناً يأتي العض على أصابع الندم حتى بعد استشارة الخبراء والبيوت الإستشارية ،ولذلك يجب استشارة أكثر من جهة واحدة للمقارنة وللتأكد من صحة اختيار البديل المناسب قبل اتخاذ القرار، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بصفقات تجارية أو مؤسسات مصرفية قد تؤدي خسارتها إلى كوارث مالية يصعب حلها.وهذا ماحدث لأحد أكبر المصارف العالمية الذي أخطأ الاستشارة فلحقت به خسائر جسيمة .ففي سويسراعض المسؤولون عن أحد البنوك السويسرية أصابع لندم بسبب الإستشارة الخاطئة ،وأعلن ذلك البنك السويسري العريق في بيان له أن أسباب إفلاس المصرف ترجع إلى سوء تقدير درجات المخاطرة في المعاملات المعقدة المرتبطة بالرهن العقاري.لقد كانت تلك النصيحة الخاطئة من أهم أسباب تلك خسارته الفادحة بعد أن كان ذلك المصرف يعد من أقوى البنوك في سويسرا ،وقد أرجع تقرير بهذا الشأن خسارة المصرف إلى رغبة القائمين على قطاع الرهن العقاري إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح بقطاع الاستثمارات العقارية، طمعاً في الوصول إلى مرتبة متميزة على مستوى العالم.كما اعترف التقرير بأنه رغم دراية مجموعة العمل المتخصصة في إدارة الاستثمارات العقارية بالمخاطر المحيطة بالسوق الأميركية، إلا أنها لم تطالب بتقييم تأثير تلك المخاطر على معاملاتها.

كما أنها لم تضع في حسبانها حداً أقصى لتعاملاتها في قطاع الرهن العقاري الأميركية.لقد تعرض ذلك البنك لخسائر كبيرة بسبب الإستشارة الخاطئة ، خاصة أن جذور المشكلة لهذه الأزمة لم تكن وليدة الساعة ولكنها تعود إلى ماقبل تاريخ الإستشارة الخاطئة بسنوات ،إذ أن أنها تعود إلى العام ٢٠٠٥م ، ولكن مع ذلك ، قدمت مجموعة من الخبراء من خارج المصرف تلك النصيحة الخاطئة للبنك بعد أن منحت مسؤولي البنك الضوء الأخضر للتعامل مع سندات الرهن العقاري الأميركية، فانساق البنك وراء تلك التوصية، واندفع بقوة في شراء وتأسيس حقائب استثمارية رفعت من مكانة البنك في الأسواق العالمية بعد بيعها للمستثمرين.وما فاقم من حجم الخسائر أن ذلك المصرف ظل مواظباً على ذلك الاستثمار الفاشل بقوة، وخاصة في بعض صناديق الاحتياط، حتى إغلاقها بخسارة كبيرة، ليكتشف خبراؤه أن تلك التعاملات لم تكن تتمتع بالشفافية الكاملة، بل إن الخبراء لم يقوموا بأي دراسة حول نسبة المخاطر المحتملة فيها.فكانت النتيجة خسارة البنك لمليارات الدولارات من أصوله . بدأت بوادر الانهيار الاقتصادي في عام ٢٠٠٧ ،وأثر ذلك على الاقتصاد العالمي كله ، ولازالت تداعياته مستمرة إلى يومنا

هذا وربما تستمر لعقد قادم . كانت هناك نصائح تنذر بكوارث اقتصادية قادمة بسبب الرهن العقاري ولكن تم تجاهل تلك النصائح ، فعض الجميع على أصابع الندم .بدأت المشكلة مع تسويق العقارات في أمريكا لمحدودي الدخل بطريقة كانت في مجملها التفافا على قوانين البلد والحد الائتماني ، وكانت عقود الشراء محبوكة بطريقة جشعة تجعل القسط يرتفع مع طول المدة، وعند عدم السداد لمرة واحدة تأخذ فوائد القسط ثلاثة أضعاف عن الشهر الذي لم يتم سداده ، ليس هذا فحسب بل إن هناك بنودا في العقود ترفع الفائدة عند تغيرها من البنك الفيدرالي الأمريكي .قامت بعض شركات العقار في تسويق المنازل لمحدودي الدخل متجاهلة قوانين الحد الائتماني، مما نتج عنه ارتفاع بأسعار العقار، ومن ثم أصبحت منازل محدودي الدخل تقدر بمبالغ تتعدى قيمة الشراء الحقيقة للمشترين الأوائل، فبدأ محدودو الدخل بأخذ قروض من البنوك بضمان منازلهم التي لم تسدد بالأساس، وكانت المصارف تمنح القروض استناداً فرق السعر بين المبلغ المطلوب والقيمة السوقية للمنزل المرهون ، ولكن بعد فترة وبعد أن بدأت سلبيات العقود المحبوكة تطفوا على الساحة وأصبحت الأقساط الشهرية لا تطاق ،امتنع كثيرون عن الدفع وبدأت أسعار العقار تهوي للأسفل.وحينما أحست معظم البنوك وشركات العقار بالخطر لجأت إلى طريقة أخرى تخفف بها من المصيبة الاقتصادية القادمة ، فقامت ببيع ديون المواطنين على شكل سندات لمستثمرين عالميين بضمان المنازل. ولكن بعد فترة شعر بعض المستثمرين العالمين بتفاقم مشكلة الرهن العقاري ،فلجأوا إلى بعض شركات التأمين للتأمين على استثماراتهم ، وذلك بضمان المنازل فيما لو امتنع المواطنون من ذوي الدخل المحدود عن سداد قيمة رهن منازلهم، فوجدت شركات التأمين في أزمة الرهن العقاري فرصةً للربح لذلك قامت شركات التأمين بتصنيف سندات الديون إلى فئتين: الفئة (أ) قابلة للسداد، والفئة (ب) لا يمكن سدادها.

ثم بدأت شركات التأمين تلك بأخذ أقساط التأمين على السندات من المستثمرين العالميين.وباتت المشكلة معقدة ومتشابكة، فالمواطنون من ذوي الدخل المحدود يظنون أن المنازل ملكهم، وشركات العقارات التي لم تستلم قيمة المنازل كاملةً اعتمدت على أن المنازل لها، وفي نفس الوقت اطمأنت البنوك إلى أن المنازل لها بحكم ما أخذه محدودو الدخل من قروض بضمان المنازل، وفي نفس الوقت كانت شركات التأمين تعتقد أن المنازل مضمونة لها بحكم التزامها بدفع مبالغ السندات للمستثمرين الدوليين وذلك في حال عدم سداد قيمة الرهن للمواطنين محدودي الدخل. فما لذي حدث بعد ذلك ؟توقف محدودوا الدخل عن دفع أقساط رهن منازلهم بعد أن أرهقتهم الأقساط المتزايدة. مما اضطر الشركات والبنوك إلى

محاولة بيع المنازل لحل النزاع؛ فأدى ذلك إلى احتجاج أصحاب المنازل المرهونة والذين رفضوا بدورهم التخلي عن منازلهم والخروج منها مما دفع بقيمة العقار إلى الهبوط، ثم اكتشف بعد ذلك أن قيمة الرهن المدفوعة لم تعد تغطي تأمينات البنوك ولا شركات العقار ولا التأمين. مما أثر بدوره علي سندات المستثمرين الدوليين فطالبوا بحقوقهم من شركات التأمين فأعلنت أكبر شركة تأمين في العالم ايه آي جي عدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها تجاه ٦٤ مليون عميل تقريباً مما دفع بالحكومة الأمريكية إلى منحها مساعدة بقيمة ٨٥ مليار دولار مقابل امتلاك ٧٩,٩% من رأسمالها. ولحقها كثير من البنوك الأمريكية مثل: مورجان ستانلي وغولدمن ساكس. ولكن ظلت أزمة الرهن العقاري مستمرة. فلا محدودي الدخل يريدون التخلي عن منازلهم والخروج منها. ولا المنازل تساوي قيمه الشراء أو قيمه القروض. فالمنزل الذي سعره ٢٠ ألف دولار مثلاً عليه ديون تبلغ ١٠٠ ألف دولار تقريبا .لاشك أنه كان هناك من الخبراء والمحللين الاقتصاديين من نبه إلى خطورة حرية الاقتصاد الزائدة عن الحد وبينت خطرالاندفاع وراء الأرباح غير المدروسة ،ولكن نصائحهم ذهبت سدى حتى أصبح مستصغر الشرر ضراما.لقد كان لإعلان إفلاس بعض المصارف أثرسلبي على أداء جميع أسواق المال ،ففي أوروبا ووجهت الأزمة بحذر كبير فقال وزير المالية البريطاني أليستر دارلنغ تعليقا عليها إنه ينبغي على الحكومات والأجهزة الرقابية والبنوك المركزية، التعاون لمنح النظام المالي استقرارا وسط الاضطراب المستمر بالأسواق.وطالب وزير المالية الألماني بير شتاينبروك عدم التهويل والمبالغة فيما يتعلق بالوضع في أسواق المال، مؤكدا في الوقت نفسه على أن الأمر يتعلق بأكبر أزمة مالية منذ عشرات السنين، غير أنه استدرك بالقول إن هذا لا يعني تطبيق نظرية الدومينو على المؤسسات المالية في أوروبا ولا يعني بالطبع إغلاق بنوك في أوروبا.وقرر مصرف كوميرتس بنك ثاني أكبر البنوك الألمانية الاستغناء عن تسعة آلاف وظيفة في إطار صفقة شراء منافسه دريسدنر بنك.وبلغت قيمة الصفقة ١٤,٥ مليار دولار وذلك فيما يوصف بأنه أكبر عملية إعادة هيكلة في القطاع المصرفي الألماني منذ أكثر من سبعة أعوام.وأعلن رويال بنك أوف أسكتلند (آر بي أس) ضمن إعلان خسائر البنوك البريطانية لشهر تموز، ٢٠٠٨ م خسائر بلغت ٦٩١ مليون جنيه إسترليني (١,٣٥ مليار دولار) في النصف الأول من العام ٢٠٠٩ م.

وهبطت أسواق الأسهم الأوروبية بعدما أكد رئيس الوزراء البريطاني غوردن براون قرار السلطات البريطانية تأميم مصرف برادفورد أند بينغلي، كما سلكت بلجيكا الخطوة نفسها مع مصرفين تأثرا كثيرا بآثار أزمة الرهن العقاري في الولايات المتحدة،وخلق ذلك حالة من التوتر والترقب في الأسواق المالية

الأوروبية، ما دعا فرنسا إلى عقد مؤتمر دولي لمناقشة الأزمة الحالية.أما الأسواق الخليجية فقد شهدت تراجعاً حاداً في تداولات البورصات حيث عزا محللون ماليون هذا التراجع إلى إشهار إفلاس بنك ليمان برذرز رابع أكبر بنك استثمار في أميركا.كما أنخفضت مؤشرات الأسهم في دول الخليج إلى أدنى مستوياتها منذ سنة ونصف، وذلك مع هروب المستثمرين من الأسواق خشية تأثرها بتداعيات الاضطرابات الأخيرة في قطاع المال الأميركي.وأغلق سوق البورصة السعودية على انخفاض ٦,٥% مسجلاً ٧٢٥٥,١٥ نقطة، حيث فقد مؤشر التداول ٣٤,٣% من قيمته منذ بداية العام ٢٠٠٨ م.وأغلقت بورصة الكويت، وهي ثاني أكبر بورصة في العالم العربي، بتراجع ٣,٨% ليصل المؤشر إلى ١٢٣٦٠,٢ نقطة أي بخسارة ٤٨٨ نقطة، وهي أكبر خسارة في يوم واحد في سنة ٢٠٠٨ م.هذه الخسائر الفلكية بدأت باجراءات خاطئة وبحرية مفرطة للتجارة وبضعف في الرقابة وفقدان الجرأة في اتخاذ اجراءات رادعة منذ البداية ،وأخيراً عدم الاستماع إلى نصيحة الخبراء المخلصين والاعتماد على سواهم لسبب أو آخر.

التسرع والغضب والندم

يرتبط الندم بالعجلة وبلوم الآخرين واستهاجنهم لما قام به شخص ما رغم أنه يشعر أحياناً بأنه لافائدة من البكاء على اللبن المسكوب كما يقول المثل الانجليزي . تلك الحالة لها مصطلح عربي قديم هو العذل أو اللوم مما يقودنا للتطرق لقصة ضبة المري .

١ . ضبه المضري

تشير الروايات أن ضبّة بن أد المضري. كان له ابنان، اسم أحدهما سعد واسم الثاني سعيد. فحدث ان إبلا لضبة ندّت (أو نفرت) في أثناء الليل، فأرسل ابنيه في طلبها، فوجدها سعد فاحتشاها وقام بردّها، أما سعيد فظل يبحث عنها في طريق أخرى دون علمه بأن أخاه وجد الابل الضائعة ،وكانت الحياة في تلك الأيام في بعض مناطق الصحراء أيام قسوة وغلظة وسلب ونهب فبينما هو مستمر في بحثه لقيه الحارث بن كعب، وكان على سعيد بردان، فسأله الحارث أن يعطيه إياهما فأبى عليه، فقتله وأخذهما. وكان ضبّة قد افتقد ابنيه، فكان إذا رأى في الليل سوادا، قال: أسعد أم سعيد؟ فذهب قوله هذا مثلا.

ومكث ضبّة بعد ذلك مدة من الزمان، ثم حج، فلما وافى عكاظ لقي الحارث بن كعب قاتل ابنه ولم يكن يعرفه، ولكنه رأى عليه بردي ابنه سعيد فعرفهما. فقال له: هلا أخبرتني عن هذين البردين، فقد أعجبني منظرهما ؟

ويبدو أن الأمر كان عادياً بالنسبة للبعض في ذلك الزمان فقال له دون تردد: لقيت غلاما وهما عليه، فسألته إياهما فأبى عليّ، فقلته وأخذتهما. فقال له: أبسيفك هذا؟ فقال: نعم! فقال ضبة: دعني أراه، فإني أظنه صارما؟ فأعطاه إياه، فلما أخذه هزّه وقال: ان الحديث ذو شجون، فذهب قوله هذا مثلا، ثم ضربه به فقتله. فقيل له: يا ضبّة، أتقتل في الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيف العذل. * وصار ذلك القول عن العذل مثلا مشهورا منذ ذلك الوقت ويعني ان السيف سبق الملامة.

٢ . جنكيز خان

روي أن جنكيز خان خرج يوماً إلى الخلاء بمفرده ولم يكن معه إلا صديقه الصقر .. انقطع بهم المسير وعطشا فأراد جنكيز أن يشرب الماء ووجد ينبوعاً في أسفل جبل فملأ كوبه وحينما أراد شرب الماء جاء الصقر وانقض على الكوب ليسكبه!! حاول مرة أخرى .. ولكن الصقر مع اقتراب الكوب من فم جنكيز خان يقترب ويضرب الكوب بجناحه فيطير الكوب وينسكب الماء!! تكررت الحالة للمرة الثالثة.. استشاط غضباً منه وأخرج سيفه .. وحينما اقترب الصقر ليسكب الماء ضربه ضربة واحدة فقطع رأسه و وقع الصقر صريعاً فأحس بالألم لحظة أن وقع السيف على رأس صاحبه .. وتقطع قلبه لما رأى الصقر يسيل دمه .. وقف للحظة .. وصعد فوق الينبوع .. ليرى بركة كبيرة يخرج من بين ثنايا صخرها منبع الينبوع وفيها حيةٌ كبيرة ميتة وقد ملأت البركة بالسم !!

٣ . محمد الفاتح

هناك شعور بأن من كانت مناصبهم رفيعة وذوي السلطان والجاه لايشعرون بالندم مثل غيرهم من البسطاء والناس العاديين نظراً للثقة التي يكتسبونها من خلال مناصبهم وربما من خلال تكبربعضهم أو غرورهم وتعودهم على معايير أخلاقية تختلف عن معايير سائر الناس . ولكن هل يحدث هذا في كل الحالات ؟ هذا ماسنجده في قصة محمد الفاتح .

فقد أمر السلطان (محمد الفاتح) ذات يوم ببناء أحد الجوامع في مدينة (اسطنبول)،وكلف أحد المعمارين الروم واسمه (إبسلانتي) بالإشراف على بناء هذاالجامع، إذ كان هذا الرومي معمارياً

بارعاً.وكان من بين أوامر السلطان: أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر،وأن تكون هذه الأعمدة مرتفعة ليبدو الجامع فخماً، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري.ولكن هذا المعماري الرومي – لسبب من الأسباب لم يأخذ برأي محمد الفاتح ولم يخبره ، أو يستشيره في ذلك ، رغم علمه بحرصه على هذا الأمر، فأمر بقص هذه الأعمدة ، وتقصير طولها ، وعندما سمع السلطان (محمد الفاتح) بذلك ، استشاط غضباً ، إذ أن هذه الأعمدة التي جلبت من مكان بعيد ، لم تعد ذات فائدة في نظره ، وفي ثورة غضبه هذا وغياب الحكمة والبصيرة عنه ، أمر بقطع يد هذا المعماري. ولكنه بعد أن استفاق من سورة غضبه وأدرك فظاعة مافعل عض أصابع الندم على ذلك ،ولكن بعد فوات الأوان.وكيف لايندم وهو لايستطيع إرجاع اليد المقطوعة إلى حالها .

ولكن المعماري لم يسكت عن الظلم الذي لحق به ، بل راجع قاضي اسطنبول الشيخ (صاري خضر جلبي) الذي كان صيت عدالته قد ذاع وانتشر فيجميع أنحاء الإمبراطورية ، واشتكى إليه ما لحقه من ظلم من قبل السلطان (محمد الفاتح). ولم يتردد القاضي في قبول هذه الشكوى ، بل أرسل من فوره رسولاً إلى السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا. ولم يتردد السلطان كذلك في قبول دعوة القاضي ، فعند كل ذي ضمير حي أن الحق والعدل يجب أن يكون فوق كل سلطان. وفي اليوم المحدد حضر السلطان إلى المحكمة ، وتوجه للجلوس على المقعد فقال له القاضي :لا يجوز لك الجلوس يا سيدي ... بل عليك الوقوف بجانب خصمك. فوقف السلطان (محمد الفاتح) بجانب خصمه الرومي، الذي شرح مظلمته للقاضي، وعندما جاء دور السلطان في الكلام، أيد ما قاله الرومي.وبعد انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي، الذي فكر برهة ثم توجه إليه قائلاً: حسب الأوامر الشرعية ، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصاً لك !!فذهل المعماري الرومي ، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي ، والذي ما كان يدور بخلده ، أو بخياله لا من قريب ولا من بعيد ، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي.أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان (محمد الفاتح) فاتح (القسطنطينية) الذي كانت دول أوروبا كلها ترتجف منه رعباً، فكان أمراً وراء الخيال ... وبصوت مذهول ، وبعبارات متعثرة قال الرومي للقاضي ، بأنه يتنازل عن دعواه ، وأن ما يرجوه منه هو الحكم لهبتعويض مالي فقط ، لأن قطع يد السلطان لن يفيده شيئاً ، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية ، لكل يوم طوال حياته ، تعويضاً له عن الضرر البالغ الذي لحق به.

وفرح السلطان (محمد الفاتح) بتنازل الرومي عن قطع يده و قرر أن يعطيه عشرين قطعة نقدية كل يوم تعبيراً عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص ، وتعبيراً عن ندمه على إقدامه على قطع المعماري الرومي في لحظة غضب منه .

حالة السلطان محمد الفاتح نتجت عن شعور كل ذي ضمير حي يشعر بالندم مهما علا شأنه، فتجده دائما مشغولا بمثل هذا التفكير غير راضٍ عن نفسه ، معترف بالخطأ وكلما إزدادت مشاعر الندم فيه فانها تستثير الشعور بالذنب خاصة عندما يزيد الضرر على الضحية، وينتابه بشعور غامض بأنه آثم يستحق العقاب وتقديم التعويض للمتضرر .

٤ . الطبيب الحليم

دخل طبيب جراح إلى المستشفى مسرعاً بعد تلقيه اتصالاً بوجود حالة خطيرة وطارئة بحاجة إلى المساعدة، فغير ملابسه واتجه مباشرة إلى غرفة العمليات. عندما وصل إلى هناك، وجد والد الفتى المريض في الممر فبدأ الأب بالصراخ في وجه الطبيب وتوبيخه: "لم استغرقت كل هذا الوقت لتأتي؟ ألا تعلم أن حياة ابني على المحك؟ ألا يوجد لديك حس بالمسؤولية؟"

فابتسم الطبيب وقال: "أنا آسف. لم أكن في المستشفى جئت بأسرع وقت ممكن لدى تلقي الاتصال والآن أتمنى منك أن تهدأ لكي أتمكن من القيام بعملي."

فرد الأب بغضب: "أهدأ؟ ماذا لو كان ابنك في هذه الغرفة الآن، هل ستهدأ؟ ماذا ستفعل لو مات ابنك الآن؟"

ابتسم الطبيب مجدد وقال: "أنصحك بالهدوء لأن العصبية لن تنقذ ابنك.وأنا مضطر إلى تركك الآن لإنقاذ حياة الصبي قبل أن نفقده."فتمتم الأب: "من السهل إعطاء النصائح عندما لا تكون قلقاً!"

استغرقت العملية بضعة ساعات قبل أن تكلل بالنجاح، فخرج الطبيب من غرفة العمليات ليجد الأب منتظراً فقال له: "الحمد الله، لقد نجحت العملية وابنك على ما يرام الآن."

وقبل أن يسمع رد الأب، ركض مغادراً وقال للأب: "أعتذر علي أن أغادر الآن، وإذا كانت لديك أية استفسارات، ستجيبك الممرضة."

سأل الوالد الممرضة عندما خرجت من الغرفة: "لماذا يتصرف بهذه العجرفة؟ لم يستطع حتى الانتظار لبضعة دقائق كي أسأله عن حالة ابني."

أجابته الممرضة والدموع تنهمر من عينيها بعدما ساءها تصرف والد الصبي : "لقد مات ابنه في الأمس بحادث سير فظيع، وكان في إجازة الجنازة عندما اتصلنا به من أجل عملية ابنك لأنه الوحيد المختص بحالته. أما الآن وبعد أن أنقذ حياة ابنك، اضطر إلى المغادرة مسرعاً لينهي مراسم دفن ابنه."

وقف الرجل مشدوهاً ونادماً على فظاظته واستعجاله في الحكم على الأمور ،ولكن الطبيب غادر المستشفى دون أن يتمكن من الإعتذار منه عن موقفه الذي كان ناتجاً عن التسرع وعدم ضبط النفس فلم ينفعه ندمه على ماجاء منه . وربما استفاد من هذا الدرس بأن لايحكم على الآخرين أو ينتقدهم دون أن يعرفهم ولا يدري شيئاً عن ظروفهم وحياتهم.

٥ . الأب النادم

بينما كان الأب يقوم بتلميع سيارته الجديدة إذا بالابن الصغير يلتقط حجراً ويقوم بعمل خدوش على جانب السيارة .وفي قمة غضبه،وفقد أعصابه يأخذ بيد ابنه ويضربه عليها عدة مرات بدون أن يشعر أنه كان يستخدم 'مفتاح انجليزي' (مفك يستخدمه عادة السباكين في فك وربط المواسير) ، فألحاق عاهة بإبنه .و في المستشفى، كان الابن يسأل الأب متى سوف تنموا أصابعي ؟ وكان الأب في غاية الألم .عاد الأب إلى السيارة وبدأ يركلها عدة مرات وعند جلوسه على الأرض، نظر إلى الخدوش التي أحدثها الأبن فوجده قد كتب ' أنا أحبك يا أبي '

٦ . صديقي

لي صديق عزيز علي بيني وبينه تواصل وحوار فكري يثري جلستنا كلما التقينا بين فترة وأخرى واسمه د.أشرف. ولما جاء رمضان اتصلت به لأبارك له بقدوم الشهر الفضيل ولكنه لم يرد علي وكررت الاتصال مرارا وكان هاتفه يرن في كل مرة دون أن يجيب علي فقررت أن لا أتصل به ولو كان في ذلك نهاية لعلاقتنا ،ولكنني قلت لنفسي ربما ألم به مكروه وأنت تكتب عن الندم والتأني والحكمة فالأجدى بك أن تتأنى قبل الحكم عليه فتعض بسبب ذلك أصابع الندم يامن تكتب عن الندم وأصابعه .فقررت أن ذهب إلى مقر عمله لأسأل عنه ،ولما سألت عنه قالوا لي إنه بخير ولكنه ليس موجودا في مكتبه الآن . فاطمأننت عليه وقلت سأتصل به مرة أخيرة ربما أن لديه عذرا ، فاتصلت به بعد ذلك ولكن هاتفه كان

يرن كالعادة دون إجابة أو رد حتى بعد أن انقضى شهر رمضان المبارك فقررت أن أقطع علاقتي به فمالي حاجة بمن لايريد الرد على اتصالاتي مهما كان عزيزا على قلبي .

ولكن بعد العيد ، راجعت نفسي مرة أخرى وقلت لها ماهكذا تورد الإبل ، التمس لنفسك العذر مرة والتمسه لصديقك ألف مرة وقررت الاتصال به مرة أخيره في مكتبه ،فإذا وجدته هناك إذهب إليه وأصارحه بالأمر حتى تنقطع الأعذار ،فاتصلت بمكتبه وعرفت أنه موجود هناك ، فتوجهت من فوري إليه ولما فرغ من لقاء ضيف كان عنده دخلت عليه فإذا به يأخذني بالأحضان ويرحب بي ترحيباً حاراً . فجلست وسألته بكل هدوء : إتصلت بك عدة مرات لأبارك لك بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك ولكنك لم تجبني! فقال لي لقد سافرت مع زوجتي وأبنائي قبل رمضان بأيام قليلة ولم نرجع إلا قبل أسبوع . فقلت له ولكن هاتفك كان يرن فقال أنا تركته مفتوحاً وعندي خط آخر غيره استعمله في سفري . فقلت له ولكني سألت عنك في مكان عملك فقيل لي إنك موجود ولكنك تداوم مساءً فقال لي ربما اعتقد من سألتهم أنك تقصد غيري فهناك ثلاثة غيري في هذا المكان يحملون نفس إسمي ،هل سألتهم عن إسمي كاملاً ؟فقلت له لا، وقد أوردت اسمك الأول فقط ! فقال هذا هو سبب سوء الفهم إذن . فصارحته بالقصة والتسرع الذي كاد أن يقطع العلاقة بيننا لولا أنني كنت أعد موضوعاً عن الندم وقصصه فلم أشأ أن أكون بطلاً لإحدى تلك القصص والحمد لله أنني تأنيت ولم أغضب ولم أستعجل ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

٧ . تهور سائق

عن الاستعجال في الحكم على الأمور نروى قصة رجل تعود أن يوصل ابنه إلى المدرسة في كل صباح بسيارته .

يقول الابن :بينما كان أبي ملتزما بمساره الصحيح، قفزت سيارة يقودها سائق أرعن من موقف السيارات بشكل مفاجئ أمامنا.ضغط والدي بقوة على مكبح السيارة ، لتنزلق السيارة وتتوقف على مسافة قريبة جداً من الاصطدام بذلك المتهور. لم يغضب أبي ولكن السائق المتهور هو الذي غضب و أدار

رأسه نحونا وانطلق بالصراخ وتلفظ بعبارات بذيئة وأومأ بإيماءات قبيحة، نظرت في وجه والدي فلم أره غاضباً ولكنه كان مبتسماً و ولوح له بود.

استغربت من ردة فعل والدي الذي كان اكبر جثة وقوة من ذلك الأرعن ، فلما رأى الدهشة بادية على وجهي قال لي :أنت تستنكر علي هدوئي فقلت له نعم ياوالدي ! هذا الرجل كاد يرسلنا للمستشفى برعونته وأنت قابلته ياوالدي بابتسامة . وزاد استغرابي حينما قال لي لي والدي : لوكان بيدي لاستوقفته وتسامحت منه رغم أنه هو المخطئ . وهذا زاد من استغرابي ولكن احترامي لوالدي جعلني أسكت ولا أقول له :إن هذا نوع من الجبن .

ومضت بنا السيارة إلى مدرستي الثانوية إلى أن مرت بنا زحمة سير على الطريق فلم أشعر من والدي أي تذمر ،ولم أشأ أن أسأله عن سبب هدوئه بعد أن رأيت موقفه الأول ولكني كنت أرغب في معرفة سبب هذا الإزدحام الذي أخرني عن الوصول إلى مدرستي ،ولكن حركة السير تباطأت أكثر وأكثر حينما اقتربنا من سبب هذا الازدحام فوجدت أن حادثاً مرورياً فظيعاً هو سبب الحادث ونظرت إلى السيارة المهشمة ،لشدة غرابتي وجدت أن تلك السيارة هي سيارة ذلك الأرعن الذي كاد يدهسنا وهو ممدد على الأرض ينازع الموت وهو يصرخ ويتألم والدم ينزف منه بغزارة وإلى جانبه شخص آخر ممدد مثله على قارعة الطريق .... ففتح والدي نافذة السيارة وسأل أحد الناس عن سبب الحادث فقال له شاهد على الحادث :رأيتهما يقودان السيارة بتهور وتعاندا على اولوية المرور حتى اصطدم أحدهما بالآخر فالتفت إلى والدي وقلت له أليس هذا هو السائق الأرعن الذي كاد يدهسنا فقال لي نعم : ولكن هل أدركت سبب سكوتي عنه وابتسامتي له ورغبتي في التسامح منه رغم خطئه ؟فقلت لا ياأبي فقال لي لوحدث ذلك وكافأته على إساءته فإما أن يكون حكيماً فيندم ويراجع نفسه ويحاسبها ولايعود لمثل ذلك الفعل مرة أخرى، أو أنه يستمر في رعونته وتهوره فيلاقي نفس المصير الذي لاقاه ... أما أنا فقد كان مقدراً أن أكون ذلك الممدد بجانبه لو أنني تصرفت معه بنفس أسلوب تصرفه معي ...فهل أدركت سبب عدم انفعالي لأن الندم قد ينجي من يخطئ ويعود عن خطئه، أما من ليس له شعور بمحاسبة النفس والندم فمصيره سيكون كمصير هذا السائق الأرعن عاجلاً أم آجلا "زاد إعجابي بوالدي وأدركت أن للسن دوره في الحكم على الأمور ولقنني هذا الحادث درساً لن أنساه طول حياتي .

وصايا النبي (ص) عن الغضب

دخل رجل على النبي ﷺ فقال : أوصني ! قال : « لا تغضب » فردد مرارا قال : « لا تغضب » [رواه البخاري]

ولاغرابة في ذلك لأن الغضب يحدث هيجانا حادا عند الإنسان ينتج عنه احمرار في الوجه، وخفقان في القلب، وزيادة في النبض، وتتابع في الأنفاس،فيحدث نتيجة لذلك تحول عجيب يخرج الإنسان عن طوره ينقلب بعده الشخص الغاضب إلى شكل مخيف تأباه النفوس، وتكرهه القلوب!

وإنك لترى رجلا في المجلس متزنا عاقلا، ذا هندام يرتبه ويعتني به بين الحين والآخر، فإذا غضب تغير شكله، وانتفخت أوداجه وسقط ما على رأسه من اللباس، وأكثر من حركات اليدين، والضرب بالرجلين، وهكذا.. !

وأشمل وصف لحالة الغضب تلك، قول النبي ﷺ : « ...ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه... » [رواه أحمد]

وأحياناً يرتبط الغضب بالكبر والاستعلاء والظلم والتعدي،وخاصة عندد الذين تربوا على الغنى والرفاهية والدلال فلايتحملون أية معارضة لرأيهم أو فعلهم وينشأون على استجابة مطالبهم حتى وإن كانت خاطئة، فتراهم يغضبون لأتفه الأسباب.وقد مدح الله تبارك وتعالى المؤمنين بصفات كثيرة منها قوله تعالى : { الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين } [آل عمران:١٣٤]فهذه ثلاث صفات عظيمة أولها: كظم الغيظ وإيقافه، والثانية: العفو والصفح مع المقدرة والتمكن، والثالثة وهي أعلاها مرتبة: الإحسان إلى الناس مقابل إساءتهم.

وقال ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [متفق عليه]وقال ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله » [متفق عليه].وإيقاف الغضب ودواعيه قبل بدايته، خير من التمادي فيه ومحاولة إصلاح نتائجه الوخيمة.

وعلى المؤمنين الطمع فيما أعد الله عز وجل لمن كتم غيظه، قال ﷺ : « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما يشاء » [رواه أبو داود].فللذين يكتمون غضبهم عند الغيظ أجر عظيم عند الله سبحانه وتعالى .قال صلى الله عليه وسلم : « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى » [رواه ابن ماجة]

ولنـدرك جميعـاً أن الغضـب مـن الشـيطان، قـال ﷺ : « إن الغضـب مـن الشـيطان ... » والشيطان يورد الإنسان موارد الهلاك.

رابعا : الطمع فيما أعد الله عز وجل لمن كتم غيظه، قال ﷺ : « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما يشاء » [رواه أبو داود]

خامسا : الالتزام بالهدي النبوي، ومن ذلك تغير الهيئة التي عليها الغضبان وليلصق بالأرض، فذلك أدعى لإذلال النفس وطرح الكبر، قال ﷺ : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشيء فليلصق بالأرض » [رواه أحمد]

سادسا : الوضوء، امتثالا لقول الرسول ﷺ : « إن الغضب من الشيطان، خلق من النار، وإنما تطفأ النـــار بالمـــاء ، فـــإذا غضـــب أحـــدكم فليتوضـــأ » [رواه أبـــو داود]

سابعا : السكوت حال الغضب وحبس اللسان وإلجامه، قال ﷺ : « علموا وبشروا ولا تعسروا، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت » [رواه أحمد]

ثامنا : التعوذ من الشيطان الرجيم فهو رأس البلاء، قال تعالى : { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم } [الأعراف:٢٠٠]

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. » [رواه مسلم]

ثامناً: أنت في حالة كتم الغيظ في مراتب أعلى من غيرك، وقد مر حديث الشديد الذي يكتم الغضب وكذلك أمر الله تعالى : { خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين } [الأعراف:١٩٩] وقوله تعالى : { ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور } [الشورى:٤٣]

تاسعاً : إنك في حالة الغضب قد تظلم وتتعدى فتأثم، قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه » [رواه مسلم]

عاشراً : التقرب إلى الله عز وجل بحسن الخلق مع الغير والتجاوز عن مسيئتهم ، قال ﷺ : « إن المؤمن ليـــــدرك بحســـــن خلقـــــه درجـــــة الصـــــائم القـــــائم » [رواه أبـــــو داود] وقال ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار – أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل » [رواه الترمذي]

أحد عشر : معرفة نتائج الغضب وعواقبه، وكيف نؤدي كلمة في ساعة هيجان إلى فراق الزوجة، وحرمان الأبناء، وتضييع الحقوق، والاعتداء على على الغير ثم الدخول في نزاعات ومحاكم وقضايا مدنية أو جنائية.

وقد أوصانا نبينا الكريم بالوضوء عند الغضب فقال الرسول ﷺ : " إن الغضب من الشيطان، خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » [رواه أبو داود]

وعلى الحكيم أن يسكت حال الغضب وحبس اللسان وإلجامه، قال ﷺ : « علموا وبشروا ولا تعسروا، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت » [رواه أحمد] وعليه أن يتعوذ من الشيطان الرجيم فهو رأس البلاء، قال تعالى : { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم } [الأعراف:٢٠٠].وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. » [رواه مسلم]

واعلموا أيها القراء الكرام أن الإنسان في حالة كتم الغيظ يكون في مرتبة أعلى من غيره لأنه في حالة الغضب قد يظلم ويتعدى فيأثم، قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه » [رواه مسلم]

وأن من القربات إلى الله عز وجل أن يحسن المءء أخلاقه مع الغير والتجاوز عن مسيئتهم ، قال ﷺ : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » [رواه أبو داود]وقال ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار– أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل » [رواه الترمذي]

الطلاق والندم

ومن أسباب الأعمال التي تورث الندامة الطلاق بين الزوجين نتيجة الاندفاع والعجلة وعدم التأني في ، فكم من طلاق أعقبه ندم.

وقد قد يكون الغضب سبباً للطلاق ،وفي غمرة الغضب والانفعال تنفلت الأعصاب، خاصة مع صديق أو زميل عمل ،ولكن أسوأها الذي يحدث بين الأزواج والأهل والأولاد ،. فالغضب آفة مدمرة لعلاقات الانسان مع غيره، وخاصة إذا كان هذا الغير زوجا أو زوجة أو أخاً أو اختا أو ابنا او بنتا . وهذا يسبب جروحاً لاتندمل ، وهنا سنستعرض بعض قصص الطلاق والندم.

أما الندم وعض الأصابع عليه فقد يحدث ليس بسبب الذنوب والمعاصي و كالشرك بالله ولكن قد يقع لأسباب تافهة ، ففي كثير من الأحيان تكون أسباب الندم تافهة كأن يكون الزوج متسرعاً لا يملك زمام نفسه، أوتكون المرأة لا تحسن سياسة الزوج ، فربما يحدث الطلاق بسبب طهي الطعام؛ أو أثاث البيت أو السفر أو عدم توفير سلعة كمالية أو غير ذلك من الأمور التي لاتعتبر من مسببات الطلاق الجوهرية .وهذا طلاق يتبعه غالباً الأسف والندم القاتل، فيذهب المطلق إلى المحاكم ويقف عند أبواب العلماء، يلف يمنة ويسرة، ويلتمس المعاذير ويبحث عن مخرج له، فمرة يقول: طلقت زوجتي وهي حائض؛ وتارة يقول: أنا طلقت زوجتي عدة طلقات، لكن مرة وهي حائض، ومرة طلقتها في طهر ينقض الطلاق جامعتها فيه، ومرة جمعت لها طلقتين أو ثلاثاً في كلمة واحدةً، ومرة جعلته طلاقاً معلقاً، فقلت: إن خرجت فأنت طالق فخرجت، أو إن ذهبت إلى أهلك فأنت طالق فذهبت إلى غير ذلك.كل ذلك حتى يجد عذراًووسيلة ليتخلص بها من ساعة غضب افترق بهاعن زوجته ،ولذلك يجب على الرجل احترام شريكة حياته ولا يهضمها حقها أو يظلمها أويجورعليها، ويجب عليه أن يحسن معاشرتها حتى وإن لم تقدر هي ذلك فإن الله يعطيه أجر الصبر عليها . ونضرب أمثلة للتسرع في الطلاق مثل :

المرجع عبدالله الجعيثن

على كل واحد منا معرفة نتائج الغضب وعواقبه، وكيف تؤدي كلمة في ساعة هيجان إلى فراق الزوجة، وحرمان الأبناء، وتضييع الحقوق، والاعتداء على على الغير ثم الدخول في نزاعات ومحاكم وقضايا مدنية أو جنائية.

ومن أسباب الأعمال التي تورث الندامة الطلاق بين الزوجين نتيجة الاندفاع والعجلة وعدم التأني في، فكم من طلاق أعقبه ندم.وقد قد يكون الغضب سبباً للطلاق ،ففي غمرة الغضب والانفعال تنفلت الأعصاب، خاصة مع صديق أو زميل عمل ،ولكن أسوأها الذي يحدث بين الأزواج والأهل والأولاد ،. فالغضب آفة مدمرة لعلاقات الانسان مع غيره ، وخاصة إذا كان هذا الغير زوجا أو زوجة أو أخاً أو اختا أو ابنا او بنتا. لأنه يسبب جروحاً لاتندمل لمن يعيشون مع بعضهم تحت سقف واحد ، وهنا سنستعرض بعض قصص الطلاق والندم.

وفي كثير من الأحيان تكون أسباب الطلاق تافهة كأن يكون الزوج متسرعاً لا يملك زمام نفسه، أو أن لا تحسن المرأة سياسة الزوج ، فربما يحدث الطلاق بسبب طهي الطعام؛ أو أثاث البيت أو السفر أو عدم توفير سلعة كمالية أو غير ذلك من الأمور التي لاتعتبر من مسببات الطلاق الجوهرية .وهذا طلاق يتبعه غالباً الأسف والندم القاتل، فيذهب المطلق إلى المحاكم ويقف عند أبواب العلماء، يلف يمنة ويسرة، ويلتمس المعاذير ويبحث عن مخرج له، فمرة يقول: طلقت زوجتي وهي حائض؛ وتارة يقول: أنا طلقت زوجتي عدة طلقات، لكن مرة وهي حائض، ومرة طلقتها في طهر ينقض الطلاق جامعتها فيه، ومرة جمعت لها طلقتين أو ثلاثاً في كلمة واحدةً، ومرة جعلته طلاقاً معلقاً، فقلت: إن خرجت فأنت طالق فخرجت، أو إن ذهبت إلى أهلك فأنت طالق فذهبت إلى غير ذلك.كل ذلك حتى يجد عذراًووسيلة ليتخلص بها من ساعة غضب افترق بهاعن زوجته ،ولذلك يجب على الرجل احترام شريكة حياته ولا يهضمها حقها أو يظلمها أويجورعليها، ويجب عليه أن يحسن معاشرتها حتى وإن لم تقدر هي ذلك فإن الله يعطيه أجر الصبر عليها . ونضرب أمثلة للتسرع في الطلاق مثل :

١ . الفرزدق

الندم على فراق الزوجة سطره شاعر معروف ومشهور ويحب زوجته ولكن فيه عيب شنيع هو أنه يستسهل كلمة الطلاق ثم يندم على ذلك بعد أن طلق زوجته لسبب تافه ..هذا الشاعر هو الفرزدق

وهو أحد شعراء النقائض ،ومعنى شعر النقائض هو شعر تلك المعارك الشعرية التي دارت رحاها بين عدد من الشعراء في العصر الاموي، حيث يكتب الشاعر قصيدة في هجاء خصمه، فيرد الخصم (ناقضا) هذه القصيدة مع التقيد بوزنها وقافيتها, فالنقائض . إذن . مصطلح أدبي لنمط شعري، نشأ في العصر الأموي بين ثلاثة من فحوله هم: جرير والفرزدق والأخطل. وهذا المعنى مأخوذ في الأصل من نقَض البناء إذا هَدَمَه، قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾" النحل: ٩٢". وفي الشعر معناه أن ينقض الشاعر ما قال الأول، حيث يأتي بغير ما قال خصمه.

وذات يوم اجتمع شعراء النقائض الثلاثة(جرير والفرزدق والأخطل)عند الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فأخرج عبد الملك بن مروان كيسا فيه(١٥٠٠) درهم وقال:أيكم يقول بيتا من الشعر يغلب فيه الآخَرْين فله هذا الكيس، فبدأ بالفرزدق حيث قال الفرزدق:

أنـــــا القطِـــــران والشـــــعراءُ جربـــــى
وفـــــي القطـــــران للجربـــــى شـــــفاءُ

ثم أنشد الأخطل:

فـــــأن تـــــك زقّ زاملـــــةٍ فـــــأنني
انـــــا الطـــــاعون لـــــيس لـــــه دواءُ

والزق في اللغة هو الوعاء الذي توضع به السوائل وهي هنا القطران. والزاملة هي الدابة (مرجع لسان العرب)، وبهذا يكون رد الأخطل على الفرزدق «إذا كنت انت وعاء القطران المحمول على ظهر دابة (لأن الفرزدق قال أنا القطران) فأنا المرض الذي يستعصي على كل دواء وليس منه شفاء ويقصد مرض الطاعون

فقال جرير:

أنـــــاالموت الـــــذي أتـــــي علـــــيكم
فلـــــيس لهـــــارب منـــــي نجـــــاةُ

فقال عبد الملك بن مروان:قد غلبكما جرير وقال لجرير: خذ الكيس، فلعمري أن الموت يأتي على كل شئ ، فعز ذلك على الفرزدق أن يغلبه جرير في مجلس الخليفة،فقال لعبدالملك بن مروان :يا أمير المؤمنين زوجتي طالق إن لم أغلبه (يعني جريرا)هذه المرة(أي يريد مبارزة أخرى)فنصحه عبد الملك بن مروان بان يحتفظ بزوجته ولا يبارز،إلا أنه أصر على المبارزة،فقال له الخليفة:انت وشأنك قد نصحتك،فقال له قل يا فرزدق،فقال:

إنـــي أنـــا المـــوت الـــذي هـــو واقـــع بـــك
فـــــانظر كيـــــف انـــــت مزاولـــــه

فقال الخليفة: قل يا جريرفقال:

أنـــــا الـــــدهر والـــــدهر غالـــــبٌ
فجئنـــي بمثـــل الـــدهر شـــيئاً يطاولـــه

فقال عبد الملك:قدغلبك ثانية يا فرزدق فماذا تقول؟قال:أنفذ شرطي وزوجتي طالق مني،وكان اسمها) نوار(فندم على طلاقها،وقال:

نـــــدمت ندامـــــة الكـــــسَعيّ لمَّـــــا
غـــــدت منـــــي مطلقـــــةً نـــــوارُ
كانـــــت جنتـــــي فخرجـــــت منهـــــا
كـــــآدم حـــــين أخرجـــــه الضـــــرار
فأصـــــبحت الغـــــداة ألـــــوم نفســـــي
بـــــأمر لـــــيس لـــــي فيـــــه اختيـــــار

وقوله ندامة الكُسَعيّ يقصد به رجلاً من كُسَع اسمه غامد بن الحارث ،وله قصة مشهورة في الندم على فعلة اشتهرت بين العرب ، فقد صنع قوسا وخمسة سهام وكمن في طريق قطيع حُمرٍ وحشية ؛ فرمى واحدا من القطيع ، فنفذ فيه السهم وصدم الجبل أي أن الحمار الوحشي ارتطم بالجبل ، فرأى شررا

فظن أنه أخطأ ، فرمى ثانيا وثالثا إلى آخرها وهو يظن أن سهامه قد أخطأت ، فعمد إلى قوسه فكسره ، ثم بات ، فلما أصبح نظر فإذا الحمر مصروعة ، وأسهمه بالدم مضرجة ، فندم وقطع إبهامه ، وأنشد:

نـــــدمت ندامـــــةً لـــــو أن نفســـــي
تطـــــــاوعني إذا لقطعـــــــت خمســـــــي
تبـــــيّن لـــــي ســـــفاه الـــــرأي منـــــي
لعمرُأبيـــــك حـــــين كســـــرتُ قوســـــي

وقد أصبح مثلاً سائرا في الندامة .. وهذا ما كان يقصده الفرزدق حين طلّق زوجته " نوار " في قوله :ندمت ندامة الكُسَعيّ .

وبعد ذلك ندم الفرزدق ندماً شديدا وأراد أن يرد زوجته نوار، فذهب إلى ابن الزبير يريد أن يراجع زوجته وذهب إلى ولده حمزة ؛ ليشفع له عند أبيه، وذهبت نوار إلى زوجة عبد الله بن الزبير تقول لها: بلغي زوجك بأني لا أريد الفرزدق فلا يحاول؛ إنني لا أريده؛ لأنه رجل فيه كذا وكذا، فكان كل ما صنعه حمزة نهاراً من إقناع والده بالشفاعة؛ نقضته زوجته ليلاً، حتى اقتنع عبدالله بن الزبير برأي وحجة نوار ، فقرر أن لا يعود الفرزدق إلى زوجته،فلجأ الفرزدق إلى سلاحه الشعري وأخذ يهجو عبداله ابن الزبير حتى يضغط عليه ليرد إليه زوجته ، فقال الفرزدق يهجو عبد الله بن الزبير ويخاطبه: أما البنون فلم تُقْبَل شفاعتهم وشُفِّعَت بنت مظعون ابن زبانا ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً إلى آخر البيت.

المهم أن ابن الزبير قال للمرأة: إن هذا رجل شاعر، يهجوني، فلو رجعت إليه،أي طلب منها أن تسامحه وتعود إليه فقبلت الرجوع إليه، ولكن الفرحة لم تكتمل إذ مالبث الفرزدق أن عاد إلى طبعة فطلقها مرة أخرى، طلاق تافهاً وأشهد على هذا الحسن البصري وطلاب حلقته، فجاء وهم جالسون فقال: اشهدوا أني قد طلقت زوجتي نواراً ، فشهدوا عليه، ثم ندم بعد ذلك.

ولهذا كانت العرب تذم الإنسان المزواج أو الذواق المطلاق، الذي يتزوج ثم مايلبث أن يطلق.ناهيك عن الأسباب التافهة التي تقوض الحياة الزوجية ، وتجعل استمرارها أشبه بالمستحيل، وتقضي على كل معاني السعادة ،وغالباً ماتكون أسباب الطلاق صغيرة، ولكنها كثيرة وتتكرر يومياً، ولهذا يتعجب الكثيرون، لماذا طلق فلان فلانة مع أن ما حصل شيء تافه . صحيح أنها أمور بسيطة وتافهة، ولكن تكرار هذه الأمور البسيطة التافهة تجعل الحياة صعبة بين الزوجين فيلجآن إلى الطلاق .

أما عن الذين يستسهلون الطلاق أو يهوون الطلاق الهازل فقد ذمه سيد الخلق بقوله: "ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ

(النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ): والرَّجْعَةُ هي عَوْدةُ الْمُطَلِّقِ إِلَى طَلِيقَتِهِ بعد طلاق الهزل ، يَعْنِي لَوْ طَلَّقَ أَوْ نَكَحَ أَوْ رَاجَعَ وَقَالَ كُنْت فِيهِ هَازِلاً لآ يَنْفَعُهُ الاعتذار لأَنَّ طَلاقَ الْهَازِلِ يَقَعُ فَإِذَا جَرَى صَرِيحُ لَفْظَةِ الطَّلاقِ عَلَى لِسَانِ الْعَاقِلِ الْبَالِغِ لا يَنْفَعُهُ أَنْ يَقُولَ كُنْت فِيهِ لاعِبًا أَوْ هَازِلا لأَنَّهُ لَوْ قُبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ لَتَعَطَّلَتْ الأَحْكَامُ وَقَالَ كُلُّ مُطَلِّقٍ إِنِّي كُنْت فِي قَوْلِي هَازِلا فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ إِبْطَالُ لأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى. فَمَنْ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَزِمَهُ حُكْمُهُ. وهذه المصيبة تقع كأن يقول أحدهم لزوجته مازحا: "إذهبي وانت طالق" فيقع الطلاق.فيجب على الانسان أن لايمزح في هذه الأمور التي لاتحتمل المزاح أو الهزل حتى لاتطلق منه زوجته شرعا مهما حاول التبرير والاعتذار.

أما الغرب فليس كله قصصاً رومانسية ، بل إن في بعضها ظلم وإجحاف نذكر مثالاً عليه القصة التالية:

٢ . قصة رجل أعمال

كتب أحد رجال الأعمال الغربيين: عندما عدت إلى المنزل ذات ليلة كانت زوجتي بانتظاري وقد أعدت طعام العشاء، أمسكت يدها وأخبرتها بأنه لدى شي أخبرها به، جلست هي بهدوء تنظر إلي بعينيها أكاد ألمح الألم فيها،فجأة شعرت أن الكلمات جمدت بلساني فلم أستطع أن أتكلم، لكن يجب أن أخبرها.أريد الطلاق خرجت هاتان الكلمات من فمي بهدوء، لم تبدو زوجتي متضايقة مما سمعته مني لكنها بادرتني بهدوء وسألتني لماذا؟

نظرت إليها طويلا وتجاهلت سؤالها مما دفعها للغضب بأن ألقت ملعقة الطعام وصرخت بوجهي أنت لست برجل في هذه الليلة لم نتبادل الحديث أنا وهي ، كانت زوجتي تنتحب وتبكي وأنا أعلم بأنها تريد أن تفهم ماذا حدث لزواجنا لكنى بالكاد كنت أستطيع أن أعطيها سبب حقيقي يرضيها في هذه اللحظة أحسست بأن زوجتي لم تعد تملك قلبي فقلبي أصبح تملكه إمرأة أخرى إسمها " جين "أحسست بأنني لم أعد أحب زوجتي فقد كنا كالأغراب وإحساسي بها لم يكن يتعدى الشفقة عليها .

في اليوم التالي وبإحساس عميق بالذنب يتملكني قدمت لزوجتي أوراق الطلاق لكي توقع عليها وفيها أقر بأني سوف أعطيها المنزل والسيارة و ٣٠% من أسهم الشركة التي أملكها ألقت زوجتي لمحة

على الأوراق ثم قامت بتمزيقها الى قطع صغيرة، فالمرأة التي قضت ١٠ سنوات من عمرها معي أصبحت الآن غريبة عني، أحسست بالأسف عليها ومحاولتها لهدر وقتها وجهدها فما تفعله لن يغير من حقيقة اعترافي لها بحبي العميق "جين" وأخيراً انفجرت زوجتي أمامي ببكاء شديد الأمر الذي كان توقعته منها أن تفعله،بالنسبة لي بكاؤها كان مصدر راحة فهو يدل على أن فكرة الطلاق التي كانت تراودني أسابيع طويلة قد بدأت أن تصبح حقيقة ملموسة أمامي .

في اليوم التالي عدت الى المنزل في وقت متأخر من الليل لأجدها منكبةً تكتب شيئاً، لم أتناول ليلتها العشاء وذهبت على الفور للنوم وسرعان ما استغرقت بالنوم فقد كنت أشعر بالتعب جراء قضائي يوماً حافلاً بصحبة "جين" فتحت عيني في منتصف الليل لأجدها مازالت تكتب في حقيقة الأمر لم أكترث لها كثيراً وأكملت نومي مرة أخرى .

وفي الصباح جاءت وقدمت لي شروطها لقبول الطلاق، ولم تكن تريد أية شي مني سوى شيئ واحد هو مهلة شهر فقط. لقد طلبت مني أنه في هذا الشهر يجب علينا أن نفعل ما في وسعنا حتى نعيش حياة طبيعية بقدر الإمكان كأي زوجين .وعللت سبب طلبها هذا أن ولدنا سيخضع لاختبارات في المدرسة وهي لا تريد أن يؤثر خبر الطلاق على أدائه بالمدرسة.

لم أجد مانعاً في ذلك بل لاقى طلبها قبولاً لدي.ثم طلبت مني شيئاً آخر هو أن أقوم بحملها لمدة شهر كل صباح من غرفة نومنا الى باب المنزل تماماً مثلما حملتها بين ذراعي في صباح أول يوم من زواجنا

بصراحة الأمر اعتقدت لوهلة أنها قد فقدت عقلها !!!!لكن حتى أجعل آخر أيام لنا معنا تمر بسلاسة قبلت أن أنفذ طلبها الغريب لقد أخبرت "جين" يومها عن طلب زوجتي الغريب فضحكت ملئ وقالت باستهزاء بأن ما تطلبه زوجتي شي سخيف ومهما حاولت هي أن تفعل بدهاء لن يغير حقيقة الطلاق فهو واقع لا محالة .

كنت وزجتي منفصلين كزوجين منذ أن أعربت لها عن رغبتي بالطلاق رغم أننا لازلنا نسكن في بيت واحد ، وعندما حملتها بين ذراعيي في أول يوم أحسسنا أنا معها بالارتباك،ولما رآنا ولدنا تفاجئ بالمشهد فأصبح يصفق ويمشي خلفنا صارخا فرحاً "أبي يحمل أمي بين ذراعيه "كلماته جعلتني أحس بشي من الألم ، حملتها من غرفة النوم إلي باب المنزل مروراً بغرفة المعيشة مشيت عشرة أمتار وهي

بين ذراعي أحملها أغمضت عينيها وقالت بصوت ناعم خافت لا تخبر ولدنا عن الطلاق الآن ،فأومأت لها بالموافقة وإحساس بالألم يمتلكني، إحساس كرهته، خرجت زوجتي ووقفت في موقف الباص تنتظر وأنا قدت سيارتي إلى المكتب

.في اليوم التالي تصرفنا أنا وهي بشكل طبيعي ووضعت رأسها على صدري وأنا أحملها، فاستطعت أن اشتم عبقها، وأدركت في هذه اللحظة أنني لم أمعن النظر جيداً في هذه المرأة منذ زمن بعيد، أدركت أنها لم تعد فتاة شابة على وجهها رسم الزمن خطوطاً ضعيفة، غزا بعض اللون الرمادي شعرها،وقد أخذ زواجنا منها ما أخذ من شبابه،ولدقيقة تساءلت ماذا فعلت أنا بها ؟

في اليوم الرابع عندما حملتها أحسست بإحساس الألفة والمودة يتملكني اتجاهها، إنها المرأة التي أعطتني ١٠ سنوات من عمرها .وفي اليوم الخامس والسادس شعرت بأن إحساسنا بالمودة والألفة أصبح ينمو مرة أخرى، ولم أخبر" جين" عن ذلك .

وأصبح حمل زوجتي صباح كل يوم يكون سهلاً أكثر وأكثر وأصبحت أخف وزناً بمرور مهلة الشهر التي طلبتها، فقلت لنفسي ربما يكون سبب ذلك أنني تمرنت على حملها .

و في صباح أحد الأيام جلست زوجتي تختار ماذا ستلبس ،لقد جربت عدد لا بأس به من الملابس لكنها لم تجد ما يناسبها فتنهدت بحسرة قائلة " كل ملابسي أصبحت كبيرةً علي ولا تناسبني، فأدركت فجأة أنها أصبحت هزيلة مع مرور الوقت وهذا هو سبب سهولة حملي لها .فجأة استوعبت أنها تحملت الكثير من الألم والمرارة في قلبها ، لاشعورياً وضعت يدي على رأسها بحنان، في هذه اللحظة دخل ولدنا وقال" أبي لقد حان الموعد لتحمل أمي خارج الغرفة"فبالنسبة إليه رؤية والدة يحمل أمة أصبح جزئاً أساسياً من حياته اليومية، طلبت زوجتي من ولدي أن يقترب منها وحضنته بقوة، لقد أدرت وجهي عن هذا المنظر لخوفي بأنني سأغير رأيي في هذه اللحظة الأخيرة، ثم حملتها بيبن ذراعيي أخرجتها من غرفة النوم إلى الباب الخارجي مروراً بغرفة المعيشة وهي تطوق عنقي بيديها بنعومة وطبيعية، ضممت جسدها بقوة كان إحساسي بها كإحساسي بها في أول يوم زواج لنا، لكن وزنها الذي أصبح خفيفاً يجعلني حزيناً.

في آخر مرة عندما حملتها بين ذراعيي لم استطع أن أخطو خطوة واحد، ولدنا قد ذهب الى المدرسة ضممت زوجتي إلى صدري بقوة وقلت لم أكن أتصور أن حياتنا كانت تفتقر إلى المودة والألفة

إلى هذه اللحظة ، بعدها قدت السيارة وذهبت إلى جين وترجلت منها بسرعة خوفاً من أن أي تأخير قد يكون السبب في تغيير رأيي الذي عزمت عليه... صعدت السلالم بسرعة ...فتحت" جين" الباب وهي تبتسم وبادرتها قائلا:" أنا آسف جين لكني لم أعد أريد أن أطلق زوجتي "

نظرت جين إلي مندهشة ومدت يدها لتلمس جبهتي وسألتني :" هل أنت محموم؟" رفعت يدها عن جبيني وقلت لها:" أنا حقاً آسف جين لكني لم أعد أريد الطلاق، قد يكون الملل تسلل إلى زواجي لأنني وزوجتي لم نكن نقدر الأشياء الصغيرة الحميمة التي كانت تجمعنا وليس لأننا لم نعد نحب بعضنا، الآن أدركت انه بما أنني حملتها بين ذراعيي في أول يوم زواج لنا لابد لي أن أستمر أحملها حتى آخر يوم في عمرنا " .

أدركت "جين" صدق ما أقول وعلى قوة قراري عندها صفعت وجهي صفعة قوية وأجهشت بالبكاء وأغلقت الباب في وجهي بقوة... نزلت السلالم وقدت السيارة مبتعداً ولم أتوقف إلا عند محل بيع الزهور في الطريق واخترت حزمة من الورد جميلة لزوجتي، سألتني بائعة الزهور ماذا تكتب في البطاقة، فابتسمت وكتبت " سوف استمر أحملك وأضمك بين ذراعيي كل صباح إلى أن يفرقنا الموت "

في هذا اليوم وصلت إلى المنزل وحزمة ورد بين يدي وابتسامة تعلو وجهي ركضت مسرعاً إلى زوجتي. ولكن ما أن وصلت حتى صعقت حينوجدتها فارقت الحياة في فراشها،وأدركت أن زوجتي كانت تكافح مرض السرطان لأشهر طويلة دون أن تخبرني وأنا كنت مشغولاً مع "جين" لكي ألاحظ، لقد علمت أنها ستموت قريباً وفضلت أن تجنبني ردة فعل سلبية من قبل ولدنا لي وتأنيبه لي في حال مضينا في موضوع الطلاق، على الأقل فهي رأت أن أظل أكون الزوج المحب في عيون ولدنا .

لقد ندمت على ماجاء مني ولكن مالفائدة لا البكاء ولاالنحيب ولا الندم يعيد اتزاني لنفسي.ولكن : هل ينفع الندم؟يقول شاعر:

هَـل تُـرى يَنَفـعُ النـدَّم حِـينَ مـا زلـتَّ القـدم
حُرقـةٌ تَملـئُ الجَـوى والحَشَـا يمضـغ الألـم
لـذةٌ لَـمْ تَكُـنْ سِـوى سـاعةٍ ثـمَّ لَـمْ تـتَّم
أعقبتهـا علـى الفَتَـى حَسـرةٌ دَمُعهَـا كَـدم
وأنـينُ يهزنَّـي ليتنـي مَـا ولا ولَـمْ

أي عـــيَّشٍ لِـــذي الهَـــوى قَســـوةُ ظُلمَـــةُ سَـــأمْ
يـــا حيـــاةً كمـــا الفنـــاء .. يـــا وجـــوداً كَمـــا العـــدم
يامســـيرًا بـــــلا هُـــدى .. كغثـــاءٍ بشـــطِ يـــم
اســـتفق يـــا فـــؤادُ مِـــنْ رقـــدتِ المـــوّتِ لا تَـــنْم
وإمـــضِ للنـــورِ واســـقِ مِـــنْ سلســـبيل الحيـــاةِ فـــمَّ
صَـــدرُكَ الغفـــرُ مـــا رأى عـــزةَ المُتقـــي الأشـــمَّ
عيشـــكُ المُـــر لـــم يـــذق طَعَـــمَ إيماننـــا الأتـــمَّ
هَـــل تُـــرى يَنفَـــعُ النـــدَّم حِـــينَ مـــا زلـــتَّ القـــدم
حُرقـــةٌ تَملـــئُ الجَـــوى والحَشَـــا يمضـــغ الألـــم
والحَشَا يمضغ الألم

المحبة والندم

الحب والندم

إن هناك موضوعاً مهماً آخر نقرأ ونسمع عنه كثيرا ويسبب ألماً وحسرة وندامة للذين خاضوا تجربته ،وخاصة الفتيات اللواتي توسمن خيراً فيمن أحببن ، إلا أن حظهن قد تعثر وحلمهن قد تبعثر فعضوا أصابع الندم حسرة وألماً ، وهذه الأمورتنتظر حلاً لمشكلة أو تورط عاطفي من نوع معين فتجدهن يبحثن عن حل هنا وهناك لينقذهن أو ليجدن مخرجاً عند بعض المواقع الإستشارية أو البرامج التوعوية أو المتخصصة .ولكي نكون منصفين ، لابد أن نبدي ملاحظة هي أن الأمر قد يكون معكوساً فيأتي الغدر من الفتاة والمرأة من الرجل ، ولكننا نأخذ بالأعم الأغلب .وقد اقتطفت بعض تلك القصص المنشورة التي تبحث مرسلاتها عن حل لمشكلة وقعت بها هذه أو ورطة تورطت بها تلك ،لعل في تلك القصص عظة وعبرة .

١ . أرسلت إحد ى الفتيات رسالة تطلب فيها استشارة وقالت في رسالتها :

بِسْـــمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيـــمِ

والحمد لله رب العالمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخواني أنا اخترتكم ولجأت لكم بعد الله لما توسمت فيكم الخير ولا أزكيكم على الله ... لعل ربي سبحانه وتعالى يجعل حل مشكلتي على يديكم...

القصة باختصار هي أني جديدة في عالم النت ... وفي يوم وصلني إيميل دعاية لأحد المنتديات الصغيرة ... دخلت المنتدى ولقيته يشترط التسجيل حتى أتمكن من قرآءة مواضيعه ... اشتركت وتابعته ولقيته منتدى نظيفاً ... ومازادفي ثقتي بذلك المنتدى أن مظهر الاستقامة كان عاماً على المنتدى – حسب ما ظهر لي يومها– فالأغاني . على سبيل المثال . ممنوعة تماماً في المنتدى ... وصاحب المنتدى شخص خلوق يشرف بنفسه على كل شي ويظهر للجميع حرصه على الدين والأخلاق .صرت أكتب هناك مواضيع عامة ... ولاحظت أن صاحب المنتدى يرد على جميع مواضيعي ويثني علي كثيراً ... وهذا حاله مع الجميع ... بحكم أن عدد الأعضاء قليل...

استمريت فترة في المنتدى وهو يتودد لي مثل ما يتودد لغيري بردوده في المنتدى (لكن لاحظت إنه خصني بعناية خاصة) ... وبعدها انقطعت وقلّ دخولي لمنتداه فوجئت به يرسل لي رسالة خاصة يسألني فيها عن سرغيابي ويطلب مني أرجع وأكتب وأتواجد بكثرة مثل ما كنت أفعل من قبل .

لم ارد عليه لشك راودني ، بعكس باقي الأعضاء إذا أرسلوا لي كنت أرد عليهم ... والآن أنا أدرك أن المراسلات بين الشباب والبنات خطأ ... ولا أحتاج لمن يشرح لي ذلك لأنني اكتشفت أنه كان يتجسس على الرسائل الخاصة ويعرف عن كل شي يدور بين الأعضاء.... بصفته المشرف على المنتدى .وفي يوم من الأيام رن هاتفي ، وكان الرقم غريباً فتفاجأت بشخص يسب ويشتم ويصفني بأبشع الصفات ... كنت أسمع تلك الشتائم وأنا مذهولة حتى أنني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة لأن تربيتي لاتسمح لي بذلك ... ولكنني فهمت من كلامه إنه صاحب المنتدى وإنه استطاع أن يخترق جهازي وأن يعرف عني

كل شي ... اسمي بالكامل ... رقم جوالي ... أرقام أبي وأخواني وأسماءهم ... كل شي كل شي ... وختم مكالمته لي بالتهديد بتنكيد حياتي عقاباً لي لأنني تجاهلته ولم أعبره .

والآن أنا قلقة كثيراً ... وخائفة من أن يتصل بالوالد أو بأحد أخواني وأن يقذفني بكلام كاذب ... خصوصاً إنهم بعيدون عني كثيرا ... ومن الصعب التفاهم معهم ... ومن الممكن أن يصدقوا أي شي يقوله ... لأن علاقتنا مع بعض جافةبعض الشيئ وبيننا فجوة مع الأسف . لاأدري كيف أتصرف؟ ... لا أقدر أن أحكي للوالد ... ولا لأحد من أخواني ...إن أسهل شي سيقولونه عني هو أنني تجاوبت معه ،وإلا كيف أمكنه التجرؤ علي ،ومن الممكن أن يوسوس لهم الشيطان بأمور أسوأ من هذا ... خاصة لو اتصل واتهمني بأمور ربي يشهد إني بريئة منه ومنها.

ثم اختتمت رسالتها بنداء قالت فيه :أرجوكم ساعدوني ..... والله العظيم أحتاج مساعدة ... وبشكل عاجل

٢ . رسالة أخرى لفتاة تقول فيها :

الى من يغار على اعراض المسلمات ، اكتب ما يعصر قلبي ألما ويداي ترتعشان ، فقصتي قد لاتحدث كثيراولكنها حدثت لي ،فلي قريب من بعيد وصديق لأخي في المدرسة ،ويعمل مدرساً ولكنه كان ودوداً مع الطلاب ويزورهم في بيوتهم ويطلع معهم البر ربما لأنه لم يكن كبيراً في السن . حسب ما قول اخي . وكان يزور أخي في بيتنا من ضمن أصدقائه الذين يزورونه بالبيت ،وكنا متضايقين من علاقته القوية باخي لأ انسان غير ملتزم دينياً . وذات يوم، فوجئت به يرسل رسالة لي وجدتها في مدخل البيت عند رجوعي من الكلية ، اخذت الورقة وقرأتها بيد مرتعشة ، فوجدت فيها كلام الغزل مثل :انا احبك ومعجب باخلاق اخيك، وفراستي فيه تدفعني لعرض زواجي منك ، ، وبعد تلك المقدمات أمهلني اسبوعين لكي أرد عليه ،وذيل رسالته بكتابة رقم جواله . وبعد أن قرأت الارسالة لم ألقها أي اعتبار فلم أرد عليه ، المهم احسب المسألة على كذا – صحيح روعني شوي بس سفهته وحاولت اتناساه ، لكن المفاجأة جاءتني قبل رمضان حينما وجدت في نفس المكان رسالة عرفت مباشرة أنها منه ن فقلت في نفسي ربما

يريد أن يرجوني مرة ثانية ،ولكن لما قرأتها أحسست بحجم المشكلة لأنه كتب فيها: أنا اعرف أنك لم تردي على رسالتي الأولى لأنك لاتريدينني ، ولكن انا ماسك عليك حاجة ،وانا شايف صورتك وانت جميلة ،وشفت صورتك وانت لابسه كذا ، وخلفك كتاب كذا. وقصده بقول كذا يعني أن عنده صوري في البيت ،فذهبت ابحث مسرعة في صوري فوجدته صادقا ،فهناك صور مثل ما قال . والآن أنا خائفة لأنه أرسل لي رسالة ثالثة هددني فيها بانه سيفضحني في الانترنت وينشر صوري التي بحوزته إذا لم أوافق على الزواج منه .

وقالت الفتاة في آخر الرسالة : "لا أحد من اهلي يدري عن الموضوع ، وانا مقهورة وأتساءل من أين جاءته الصور ، فمن غير المعقول أن يعطيه اخي صوري ،ولاأذكر أنني أعطيت صوري لأي من صديقاتي البنات ، وأنا لا أرتاح إليه ومستحيل أن أتزوجه فمالعمل ؟وما هو الحل في الخلاص من الفضيحة اولا ومن الخطبة ثانيا ، فلو جاء لأهلي يخطبني ،ماذا سأقول لهم عن سبب الرفض! ولو صارحتهم برسائله وكلامه ربما تحدث مشاكل عائلية بين أهلنا .قولوا لي مالعمل الله يخليكم.

أختكم لمياء

كانت هناك محاولات لمساعدة الفتاة التي عرضتها عبر ردود منها:

السلام عليكم ياهلا اختي لمياء...

اولا انت لست بمشكلة بل هو .

ثانيا اذهبي مباشرة الى والدتك واعطيها رسائله واخبريها بكل شيئ وسوف تتفهم موقفك بدل ان تسمعي كلامه وتدخلي في مشاكل اكبر ،ومن ثم امك سوف تتصرف لانها تعرف حسن أخلاق ابنتها، وإن لم تستمع إليك فاذهبي لاختك او لشخص يعرف اخلاقك جيدا يكون اكبر من اخيك ليفهمه ويشرح له اخطاء مرافقة هؤلاء الناس

ثالثاً : اعتقد انه من الخطاء رمي الصور في المنزل في كل زاوية ابحثي عن صورك واحفظيها في مكان امن وان لم تستطيعي ذلك فاحرقيها لانها سبب المشاكلمادام أن هناك من يدخل منزلكم وهو غير مؤتمن عليه وعلى أهله ،والا كيف وصلت صورك ،من المؤكد أنه إما وجدها ملاقاة في مكان او أنك أعطيته الصورة وبما انك لم تعطه الصورة يبقى انه وجدها في مكان في المنزل.

رابعـــاً :اتمنـــى ان تلجـــأي لامـــك فهـــي افضـــل مـــن يحـــل لـــك هـــذه المشـــكلة. ولكن لو كنت بمكانك للجأء الى أبي لانه العالم بحالي وافضل من يحميني من اخواني ومن الشباب الفاسد كهذا الشاب ،وصدقيني غضب ابي عندي افضل مليون مرة من ان اخاف من شاب واتساهل معه ..

إنتهى الردعلى تلك الأخت المطعونة من حيث لاتدري ،وأنا أضم صوتي إلى صوتها بأن المرارة في أن الطعنة جاءتها من قريب وليس من غريب ،وأحياناً تأتيك الطعنة من المقربين إليك وممن كنت تعتقدين أنهم أحرص الناس عليك . وهذا وللأسف أمر لم يحدث لك وحدك ولكن حدث لآخرين مثل ابن معصوم المدني الذي قال أبياتا يصف فيها حاله الشبيه بحالك فقال فيها :

يا للرجال لخطب جل فادحه

حتى المعارفُ ضاعت عندها الذممُ

ما إن وثقت بخلّ أو أخي ثقة

إلاَّ دهاني بخطب شرُّه عَمِمُ

وكلُّ ذي رَحمٍ أوليتُه صلة

شكت إلى ربّها من قطعِه الرَّحِمُ

هذا ابن أمي الذي راعيت قربته

ما كان عندي بسوء الظنّ يُتَّهم

أدنيته نظراً مني لحرمته

وذو الديانة للأرحام يحترمُ

أضحى لعِرضي مع الأعداءِ منتهكا

وراح للمال قبل الناس يلتهم

ما صانَ لي نسباً يوماً ولا نشبا

ولا رعى لي عهوداً نقضُها يَصِمُ

قد كنتُ أحسبَه بالغيب يحفظني

ولو زواني عنه الموت والعدم

حتى إذا غبت عنه قام منتهبا

داري وراح لما خلَّفتُ يغتنمُ

تالله ما فعل الأعداء فعلته

كلا ولا اهتضموا ما ظل يهتضم

هلاَّ نَهاهُ نُهاه أو حفيظتُه

عن سلب ما حلي النسوان والحرم

وافى بهن وما أوفى بذمته

سلباً عواطل لا سورٌ ولا خدم

أين الفتوة إن لم ينهه ورعٌ

ولم يَخَفْ غبَّ ما قد راح يجترم

هبه أضاعَ إخائي غير محتشمٍ

أليس عن دون هذا المرء يحتشم

كأنَّه كان مطويّاً على إحنٍ

فعندما غبت عنه راح ينتقم

ما كان هذا جزائي إذ رعيتُ له

حقَّ الاخاءِ ولكن للورى شيمُ

فقل سلامٌ على الأرحام ضائعة

فقد لعمري أضاعت حقَّها الأممُ

٣ . رسالة ثالثة من فتاة مخطئة تقول فيها :

خطبني شخص وأثناء الخطبة أخطأت معه وبعد ذلك تغير رأيي فيه ولا أريد الزواج منه.. والآن خطيبي يهددني بالفضيحة، كيف أتخلص من خطيب لا أحبه ؟أخطأت معه ، ولكن ليس إلى درجة كبيرة تمنعني من الزواج ولم أفقد عذريتي ،ندمت على علاقتي به لا أريد الزواج منه لأنني أحسست أنه استغل ضعفي وحبي تجاهه وهو يهددني إما الزواج منه أو أن يفضحني لأنه سجل شريط فيديو لنا عند وقوع الخطيئة دون علمي!

وقد تلقت تلك الفتاة ردوداً منها :

هل ندمت علي علاقتك به أو علي خطأك معه ؟أم ندمت لأنك اكتشفت وضاعته وخسته ؟ أم تراك ندمت علي الخطيئة وعلي إغضابك لربك وابتذالك لنفسك من أجل من لا يستحق ؟.

علي أي الأحوال المهم أن تكوني قد تعلمت من التجربة وأن تتعلم كل فتاة أن أي مخلوق في الكون مهما علت درجته فلن يعلو علي خالقها ،ولن يفيدها أن ترضيه وتغضب ربها ، مهما كانت درجة الحب أو القرب بينها وبين هذا الشخص ، ولو كنت أرضيت ربك فقط ما استطاع شخص مهما كان أن يهددك ، أو يستغلك . هذا الشخص لا يؤمن جانبه ،لكن قدر الله وما شاء فعل ، ولا حل أمامك الآن سوي إتمام الزواج بأي شكل ،ويا ليت كل فتاة تتعظ ولا تسلم نفسها بهذه السهولة لكل عابث يستغلها ويهتك براءتها ، أنا أعلم أنه الآن لا وقت للنصيحة ولا وقت حتى للندم ، بل لا وقت للتفكير والاختيار والمفاضلة ، بين الاستمرار أو الانفصال ، بل ما يجب أن تفكري فيه الآن هو إتمام الزواج قبل أن ينفذ تهديده بالفعل وتكونين في هذه الحالة قد خسرت كل شيء .وأهم شيء قد تخسرينه هو سمعتك، بل وسمعة عائلتك بكاملها ، ليس نتيجة تسرعك فقط بل نتيجة تعجلك للعلاقة قبل الأوان ، وكونك سلمت نفسك بسرعة لشخص لم تكتشفي عيوبه إلا مؤخراً ،فقد ضيعت علي نفسك كل فرصة للاختيار.

رغم ما أن ما فعله بك من تصوير وتهديد وخلافه ، خال من كل معاني المروءة والأخلاق والشرف ، لكن الحق أنه ليس ملاماً وحده فإن هو تصرف معك بهذه الخسة فذلك، لأنك منحته الفرصة الذهبية ،ولكن رغم ماهوعليه من أخلاق، ورغم ما قد يظنه فيك بعدما حدث بينكما ، ولكن قد يكون تمسكه بك هو أنه فعلاص يحبك رغم أن أخلاق المحبين أرفع من ذلك ، فقد كان من الممكن أن يحدث بينكما ما حدث وأكثر ويتركك غير نادم أو آسف ، و حتى لو كان لم يعد الآن يعجبك أو يروق لك فقد مضي وقت الاختيار والمفاضلة بين أن تتركيه أو تتزوجيه ، لأنك بما فعلت فوت علي نفسك فرصة الاختيار ووضعت نفسك أمام طريق لم يعد فيه إمكانية للتراجع ، بل صار التفكير حلم صعب فات وقته ، وجاء وقت التنفيذ ، تنفيذ الزواج والمضي في هذا الطريق ، ولعل كل الفتيات يفكرن ألف مرة قبل التسرع الذي لن يعقبه إلا الندم . أنا أعرف جيداً أن الزواج بهذه الطريقة قد لا يكون موفقاً لأن المقدمات الخاطئة تؤدي إلي نتائج خاطئة ، لكنك الآن في وقت لا يسمح لك بالاختيار، ليس لأن الخطبة هي ورطة بل إن

الخطبة كما شرعها الإسلام معروفة بأنها فترة اختبار. ولو أنك كنت منحت نفسك الفرصة لتتعرفي علي خطيبك حق المعرفة وتتركي لنفسك فرصة لاكتشاف صفاته ، لكنت بالتأكيد سارعت بفسخ الخطبة الآن وأنت مطمئنة ، لكن لأن الوقت فات فلابد من الزواج ذاك هو الحل الوحيد أمامك الآن ، اطلبي من الله أن يغفر لك ولخطيبك وأن يهديه فيكون ذلك هو الخطأ أو الخطيئة الكبرى في حياتكما ، ولعله يدرك أنه أخطأ في حقك وفي حق نفسه وفي حق دينه فيستغفر ويبدأ معك حياة جديدة .

إن الموافقة علي الزواج والتوبة من الذنب والاستغفار الكثير هو كل ما يمكنك أن تفعلينه الآن ، لعل الله يجعل لك يسراً بعد عسر وفرجا بعد الضيق ، واحمدي ربك أنه متمسك بالزواج منك مهما كانت أسبابه ، لأن نبل الغاية لا يبرر له رخص الوسيلة وقذارتها

عواطف عبد الحميد .

٤ . هذه قصة أخرى من قصص العض على أصابع الندم ، تقول من بعثت بها :

شاب يهددني بالصور حسبي الله ونعم الوكيل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يابنات الله يعطيكم العافيه ويستر عليكم انا تعرفت على شاب ايام كنت في الثانويه ،وكان هناك صوربيننا في تلك الفترة ،ولكننا تركنا بعضنا بعد ذلك ،ومرت الأيام تخرجت فيها من الجامعة ثم بدأت احضر للماجستير ولله الحمد ، ولكن المصيبه ان هذا الشاب بعد تلك الفترة الطويلة ،واعتقادي أنه نسي ماكان بيننا ، حاول الاتصال بي ،فلم ارد عليه ،فأرسل رسائل تهديد يقول فيها كلاماً مشيناً مثل :والله لافضحك فضيحه وسأتفنن في الفضيحه، سواءً بصورك أو بغير صورك.

انا لاأدري مالذي ذكره بي ، انا تبت لوجه الله والحمدالله التزمت بالدين منذ زمن، ولاأدري ماذا أفعل ! أخبرت أخواتي فقلن لي أبلغي الهيئه وانا خائفه من الفضيحة ،خصوصا أن أهلي محافظون ولوانكشف الأمر فحتماً ستكون ردة فعلهم عنيفة . أنا خائفة جداً وطول الوقت ، اصلي وادعو منه أن ينقذني من

هذه الورطة ، أنا خجولة مما حدث لي ،أرجوكم ساعدونيوليس لي إلا الله ثم انتم، ارجوالمساعده والدعاء في ظهر الغيب بالستر الجميل الذي لاينكشف .

بعدما قرأت هذا الموضوع ،تساءلت في نفسي لماذا غالباً ما تكون الفتاة هي ضحية مثل هذه العلاقات ,ورأيت أن الفتيات بشكل عام هن الأقرب لتصديق كل كلام معسول، ربما لأن المرأة عاطفية حساسة أكثر من الرجل . وهي أكثر جديه في الحب من الشاب و تحب بصدق وتصدق اي كلام يقال لها . ولكن لايجب ظلم كل الشباب فهناك شباب صادقون في شعورهم ويريدون علاقة جدية تنتهي بالزواج ،إنما اللوم على شباب آخرين يعتبرون أن علاقتهم بالفتيات عبارة عن لهو ولعب ومغامرة وعلاقات طارئة خالية من العاطفة .

أما الفتاة التي تتعرف على أحد الشباب ظانة أنه فتى أحلامها الذي سيحملها على كفوف الراحة إلى عش الزوجية ،فقد يصدق حدسها لتنتهي قصتها نهاية سعيدة ولكنها ربما أنها تغامر مغامرة تعض بعدها أصابع الندم إن لم تأخذ حذرها وإن لم يكن أهلها على علم بكل خطواتها لأنها قد تكون ضحية ذئب مفترس . ولذلك فإن الفتاة الواعية هي التي تشرك أهلها في قصتها منذ البداية، فقد تكون فرصها في النجاة من الذئاب أكبر من غيرها لأن شعور الذئب بأن الأهل يراقبون الأوضاع عن كثب سيردعه من الاستفراد بالضحية . ولايجب على الفتاة أن تشعربأن روحها معلقة بمن قد لايستحق منها كل ذلك الشعور الفياض ،كما لايجب عليها أن تعتقد أن الفرصة إذا فاتت فلن تعوض وعليها أن تحكم عقلها حتى وإن كان طرياً وتتأكد من أنها فعلاً فرصة لن تندم عليها،بل ربما يهيئ لها الله من هو أفضل من هذا العابث بها وبمستقبلها ، يقول الشافعي :

اذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا

فدعه ولا تكثر عليه التأسفا

ففي الناس ابدال وفي الترك راحة

وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا

فما كل من تهواه يهواك قلبه

ولا كل من صافيته لك قد صفا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة

فلا خير في خل يجيء تكلفا

ولا خير في خل يخون خليله

ويلقاه من بعد المودة بالجفا

وينكر عيشا قد تقادم عهده

ويظهر سرا كان بالامس قد خفا

سلام على الدنيا اذا لم يكن بها

صديق صدوق صادق الوعد منصفا

وقد أعجبتني تجربة في المملكة العربية السعودية الشقيقة قرأت عنها بعد أن طورجهاز رقابي نفسه لمعالجة هذه المشاكل ، هو جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد قرأت عن ذلك من خلال ردود استشارية على رسائل بعض الفتيات التي تقول في أحد ردودها :

"أختي تأكدي أن الهيئه ستحل مشكلتك بأذن الله بسريه تامه بدون علم أهلك ،شاهدي مقطعاً من برنامج رأت عيني ، شيخ من الهيئه .. وأدرجت عنوان الهيئة

http://www.youtube.com/watch?v=i4hQk...layer_embedded

مركز هيئة الأسكان بجنوب الرياض لمن يريد المساعدة .

وتقول إن هذا المركزمتخصص بقضايا الإبتزاز والتهديد وتحول له بعض القضايا من هيئات الرياض ولديهم كوادر مدربة وكفؤة جدا للتعامل مع جميع أنواع الإبتزاز سواءا الكترونيا عن طريق الأنترنت او عن طريق الجوال ،فمن لديه أي قضية عليه بالإتصال بهذا الرقم فانت معهم بأمان بإذن الله ونحن نحميك بعد توفيق الله

وقد وضعت الإستشارية هواتف هيئة الإسكان بمدينة الرياض، ولاأدري إن كان الرقم لازال يعمل أم لا ولكن على من يريد الإستعانة بالهيئة التأكد من الرقم وهو جوال / ٠٥٥١٦١١٦٥٥ ثابت

4990660/01

4990488/01

وبعد أن قرأت هذا الرد من الإستشارية انتبهت إلى الوجه الإيجابي الآخر لتلك الهيئة بعد أن كانت الصورة عنهم سلبية وامتلأت بها الصحف والمنتديات المعادية لتلك الهيئة . وهذا مادفعني لقراءة المزيد عن الهيئة فوجدت أن أعضاءها يتعرضون لمخاطر وهم يدافعون عن الفتيات المظلومات . ومن بين ماقرأت هذه الحادثة :

أشعل مجهولون النيران في سيارة أحد أعضاء مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرمة بعد أن تمكنوا من سرقة سيارته أثناء توقفها في مقر عمله بمركز الهيئة, وما أن تقدم ببلاغ لمركز شرطة العزيزية اذ به يفاجأ باتصال من الجهات الأمنية أكدت له أن سيارته تم العثور عليها والنيران تشتعل فيها في حي بطحاء قريش بعد أن تمكن الجناة من الفرار بها الى منطقة خالية من السكان وأشعلوا النيران فيها. وحسب صحيفة «الوئام» تلقت عمليات الدفاع المدني بلاغا عند الساعة العاشرة من مساء الجمعة يفيد باحتراق سيارة أمام مركز متاجر وطني الواقع بحي بطحاء قريش وعلى الفور تواجدت عدة جهات أمنية في الموقع لمعاينة الحادثة وتمكنت فرقة الدفاع المدني من اخماد النيران.

وقد وجه عضو الهيئة اتهاما لشخصين يعملان في قطاع مهم بعد أن تمكن من تحرير فتاة من يدهما بعد أن حاولا اختطافها وقام بمتابعتهما ومنعهما من اركاب الفتاة في سيارتهما والتي تمكنت من الهروب منهما ودخلت لأحد الفنادق ومنعهما حراس الأمن من ملاحقتها الى بهو الفندق ورغم ذلك حاولا استغلال منصبهما الوظيفي بتهديد حراس الأمن، وفي تلك الأثناء تمكن عضو الهيئة من استدعاء زملائه في دوريات الهيئة وتم القبض على الشخصين وإحيلا لجهات التحقيق.

وأثناء تواجد عضو الهيئة في مركز التحقيق فقد مفتاح سيارته وأحضر المفتاح الآخر ولم يكن يعلم أن المفتاح سقط في يد الجناة والذين وجه عضو الهيئة اتهاما صريحا لهما بأنهما قاما بسرقة السيارة واحراقها.

بعد أن تطرقنا إلى العلاقة العاطفية الراقية التي تستهدف تكوين أسرة مباركة وسوء استغلال تلك العاطفة من البعض لتتحول حياة من ذقن أو ذاقوا مرارة الغدر والخيانة ونكث العهود إلى جحيم يعضون بعده اصابع الندم ، نتطرق عن تحليل لدافع يدفع الفتيات خاصة للبحث عن علاقة جدية مثمرة . هذا الدافع مصدره هاجس العنوسة ، فكثير من الفتيات يشعرن بأن شبح العنوسة يلاحقهن . حتى وإن كن فتيات صغيرات في السن . فيعتقدن أن الفرصة ملائمة للتخلص من هذا الشبح في أول فرصة تمر بهن ،بينما الشاب ، حتى إذا كبر، فإنه لايعاني من هذه المشكلة ،ولذلك فإن الشاب يشعر بأنه على غير عجلة من أمره، وينعكس ذلك على استجابة الفتاة لمثل تلك العروض فتكون العاطفة عندها مشوبة بالخوف من المستقبل ، وتكون أقرب لتصديق العرض العاطفي المقدم لها ، وتعتقد أن فارس الاحلام الذي يطرق بابها سينقذها من ذلك الشبح قبل أن يفوتها قطار الزواج فتقيم علاقة عاطفية بقصد الزواج.

إن كلمة "عانس".. لفظة ثقيلة على النفس، وكلما كبرت المرأة دون أن تتزوج ،تكبر معها مخاوفها من العنوسة ، وهي حالة ترفضها الكثيرات وتقبلها أخريات على مضض لأنهن لا يجدن مفرًا منها بعد أن خبـــــــــــت جـــــــــــذوة الأمـــــــــــل فـــــــــــي قلـــــــــــوبهن.

خاصة وأن الإحصائيات في العقود الأخيرة تطالعنا بأرقامٍ خطيرةٍ بل مفزعةٍ، تجعل من "العنوسة"، أو "تاخر زواج المرأة" ظاهرةً مخيفةً تستوجب الدراسة، والبحث، والتصدي لها.

قرأت أن دراسة أجراها الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء في مصر أظهرت أن عدد من وصلوا إلى سن الخامسة والثلاثين دون زواج وصل إلى تسعة ملايين شخص، منهم ما يزيد على ثلاثة ملايين امرأة، وستة ملايين رجل. كما أوضحت إحصائية وزارة التخطيط السعودية أن عدد النساء اللاتي بلغن الثلاثين دون زواج وصل إلى مليون و ٩٠ ألف.ووفقا للإحصائيات الرسمية الجزائرية فإن نسبة النساء العازبات وصلت إلى ٥١% من إجمالي عدد النساء، من بينهم أربعة ملايين فتاة لم يتزوجن رغم تجاوزهن الرابعة والثلاثين عاماً.وأوضحت الدراسة التى أعدها أستاذ علم الاجتماع الأردنى الدكتور إسماعيل الزيود بعنوان (واقع العنوسة فى العالم العربى) أن ٥٠ % من الشباب السورى عازبون، و٦٠% من الفتيات السوريات عازبات، وأن النسبة الكلية لمن بلغوا سن الزواج في الأردن يصل إلى نحو ٥٥%.وفي نفس السياق فإن نسبة العازبين بلغت ٢٠% في كلٍّ من السودان والصومال، وفي العراق ٨٥ % ممن بلغن سن الزواج وتجاوز عمرهن الخامسة والثلاثين .وأظهرت الدراسة أن نسبة العازبات في البحرين أكثر من ٢٠%، وفي الكويت ٣٠%، وأن ٣٥% من الفتيات في كل من الكويت وقطر والبحرين والإمارات بلغن مرحلة العنوسة أو (اليأس من الزواج)، وانخفضت هذه النسبة في كل من السعودية واليمن، بينما بلغت ٢٠% في كل من السودان والصومال، وبلغت١٠% في كل من سلطنة عمان والمملكة المغربية، وكانت في أدنى مستوياتها في فلسطين حيث لم تتجاوز فتاة واحدة من بين كل مائة فتاة.

تشير الأستاذة "تهاني عبد الحميد" (مستشارة نفسية) إلى الأسباب العميقة لانتشار العنوسة في العالم العربي، وتقول إن السبب الرئيسي وراء انتشار هذه الظاهرة هو وقوع المجتمعات العربية في حالة من الفصام الثقافي الحاد، وذلك بعد أن تشبعت بمباديء وافدة وغريبة تُحقر من "الزواج المبكر"، وتعتبره مجازفة بصحة الفتاة، وإهدارًا لحريتها.

وتضيف قائلةً: لقد شهدت القرون الأخيرة انبهارًا ثقافيًا بالغرب، وأصبح من المعتاد أن نعالج الخلل في مجتمعاتنا وفق منظورٍ غربيٍ، فإذا كان البعض في مجتمعاتنا العربية يزوج الفتاة وهي صغيرة السن وغير مؤهلة للزواج، ويجبرها أحيانًا عليه، فإن علاج هذه الأخطاء لم يتم وفق المنهج الإسلامي، بل جاء محمولاً على رياح غربية تشنع من الزواج المبكر للجنسين، وتعتبره انتهاكًا لحق الفتية والفتيات في حياة اللهو والتجريب.

وتؤكد أ/ "تهاني" على أن الكثير من المسلمين تشبعوا وجدانيًا بتأخير سن الزواج، واقتنعوا بأن الزواج المبكر "أضحوكة" لأنه زواج أطفال، ولكنهم لم يتنبهوا للمأزق الذي وقعوا فيه؛ فالغرب يسمح لهؤلاء الصغار –زعما– بحرية جنسية، بل إنه يفتح الباب على مصراعيه أمام اجتماع الرجل والمرأة في إطار اجتماعي غير الزواج وهو ما يعرف إسلاميًا بـ"اتخاذ الأخدان"، ويعتبر من الزواج أمرًا اختياريًا لمن اختبروا حياة الأزواج سنينا.

وتردف: ولكن المسلمين لديهم حدود دينية، وموروثات ثقافية، وطبيعة مجتمعية، تمنعهم دون هذا التفلت المحموم، لذلك فإنهم وقعوا في فخ الفصام، ولم يكونوا قادرين على كلفة الفكرة الوافدة المشنعة على "الزواج المبكر" والتي للأسف تقبلوها، ربما أكثر من أصحابها –أحيانًا–.

وتقول أ "تهاني عبد الحميد" إن بداية الحل تأتي انطلاقا من قول النبي ﷺ ((إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)).وعلى الأم أن تربي ابنها وابنتها على السواء تربية مسئولة، وأن تعلمهم الاعتماد على النفس، وتهيأهم لحياة مستقلة، بعيدًا عن الحماية الزائدة، حتى يكونوا مؤهلين في السن الطبيعي لتحمل مسئولية الزواج.وتضيف: الصورة ليست قاتمة، فهناك نماذج لآباء وأمهات اهتموا بالدين والخلق، ويسروا الزواج على الشباب، فأصبحوا بمثابة الأبناء لهم، ونعم الأزواج لبناتهن.

أما المحامية "سمية ابراهيم"، ٣٢ عاما،فقد اعتبرت أن تأخر النضج الفكري والنفسي لدى الشباب المعاصر هو من أهم أسباب عنوسة المرأة.وقالت المحامية "سمية" إن الشاب يظل معتبرًا نفسه طفلاً

طوال فترة مراهقته، وينظر إلى نفسه كمراهق في فترة شبابه، فثمة مرحلة كاملة ضائعة في حياة شباب هذه الأيام إلا ما ندر، لذا فإنه لا يفكر في الزواج تفكيرًا جديًا إلا بعد تقدمه في السن.وتضيف: لم يعد الزواج يحتل نفس مكانته القديمة وأهميته السامية لدى شباب اليوم، وذلك لضعف الإحساس بالمسئولية، بل الخوف والنفور منها، فالزواج لم يعد في حس الكثيرين سكنًا ومودة ورحمة، بل أصبح قيدًا وسياجًا.

ولنأخذ وجهة نظر إحدى بنات هذا الجيل كممثلة عن تلك الشريحة، وهي فتاة جامعية اسمها "ريهام .ح"، لازالت تدرس بالفرقة الرابعة بكلية التجارة جامعة القاهرة،حيث رفضت إطلاق لقب (عانس) على المرأة التي تأخر زواجها، مؤكدةً على أن هذه الصورة يجب أن تتغير لان الفتاة لم تعد مهيئة للزواج في سن مبكرة بسبب استكمال تعليمها ودراستها الجامعية.وتقول: إن المجتمع كان . قديما . يعتبرالفتاة إذا بلغت العشرين عانسا، وهذا التصور لا يتفق مع واقعنا اليوم؟ فمن الخطأ . من وجهة نظرها . أن نضع رقما وحدا عمريا أمام المرأة للحكم على بلوغها سن العنوسة، ولكن "ريهام"تستدرك فتقول : ليس معنى كلامي أنني أقلل من خطورة تأخر الزواج، ولكنني أرفض لقب عانس وتحديده بسن معينة، فأنا رغم أنني مازلت في أوائل العشرينات، إلا أنني خائفة أن يتاخر زواجي، أو ألا أتزوج أصلا.

وعن سر هذا الخوف، تقول الفتاة العشرينية: لقد تقدم لخطبتي العديد من الأشخاص الأكفاء، ولكن أهلي للأسف رفضوا لأسباب غير كافية، ففي البداية كان سبب الرفض هو أنني في بداية حياتي الجامعية، وقد يهدد الزواج حصولي على الشهادة، أما بعد ذلك فكانت التكاليف المادية الباهظة هي كلمة السر وراء رفض المتقدم للخطبة.

وتعلق "ريهام" على طريقة أهلها قائلة: إنهم ينظرون إلى اللحظة الحالية وكوني في العشرين، وعلى قدر من الجمال، وكأن هذه اللحظة ستدوم، وكأن الخيارات ستظل متعددة، وجيدة، ولا يقدرون أن طريقتهم ربما تجعلني أقبل أي شخص في مستقبل أيامي.

أما "فاطمة.ن"، ٤١ عاما،فقد قالت وبمزيج من السخرية والألم: "أنا عانس رسمي"، والسبب هو الروايات العاطفية.وأضافت: كنت قارئة نهمة للروايات العاطفية، وطوال سنين مراهقتي وشبابي كنت أبني أحلامًا

رومانسية، وصورة لزوج المستقبل تشبه أبطال القصص، فرفضت الكثيرين من الأشخاص الأكفاء ، ولم يستطع أهلي إقناعي ولا إجباري، فمضى بي العمر أسيرة لقصور بنيتها فوق الماء.وأردفت: كنت أرفض بشدة الزواج دون حب أو ما يسمونه (زواج الصالونات أو الزواج التقليدي) بل كنت أعتبره إهانة لي كفتاة متعلمة ومثقفة، ولكن أفكاري كانت خاطئة، فغالبية صديقاتي ومثيلاتي تزوجن في إطار الأسرة ثم وجدن الحب بعد الزواج والعشرة.

أما "محمد الدريني"، ٣٠ عاما، فيقول: عندما أفكر في الزواج فإنني أشعر أنني وسط البحر ، فقد مضت سنوات من عمري من الدراسة والعمل ، ولكنني لم أحقق شيئا يذكر من الناحية المالية يقربني من إمكانية تكوين أسرة.ويضيف: أعتقد أن الناس قديمًا لم يكونوا يتعاملون مع الزواج بهذه الطريقة الغريبة، فالزواج كان إطارًا للحياة في عمر مبكر للفتى والفتاة، ومن خلال هذا الإطار، وفي ظل الزواج يحققان أهدافهما، وينجح الرجل، ويعمل ويبني نفسه، في حالة من الاستقرار النفسي والجسدي والاجتماعي.ويستدرك قائلا: أما الآن فالزواج أصبح هو المنتهى، والحلم الذي يعمل المرء من أجله، فهو نهاية المطاف، وليس بداية الرحلة!!، فالفتيات وأهلهن لا يقبلون أن تشاطر ابنتهن شابًا في أول حياته رحلة كفاحه، ولا يريدون الاستمتاع بتحقيق النجاح، وإنما يسعون وراء تناول ثمرة جاهزة ومعلبة لم تشارك الفتاة في حصدها أو جنيها، وإذا لم يكن الشاب ينتمي إلى أسرة غنية، أو يهبط عليه مال بسبب أو بآخر.. فكيف سيلبي مطلب الشقة التمليك الواسعة، والسيارة الجديدة، قبل أن يتم الخمسين من عمره؟واعتبر "الدريني" أن الطمع والمغالاة هما السببان الرئيسان وراء عنوسة البنات، وعزوبة الشباب.

أما الشاب محمد زياد –٢٩ عامًا– فيقول: إن العديد من أصحابي لهم سلوكيات منحرفة ، بل ويعرضون علي أن أشاركهم في الخطيئة؛ لكنني ولله الحمد لم أفعل ، أريد أن أتزوج طلبًا للعفة؛ لذلك عرض والدي شقتنا التمليك للبيع حتى نستأجر شقتين في منطقة شعبية... كل هذا من أجل أن أتزوج ،فأنا أكبر إخوتي الخمسة.

وتعترف الدكتورة ش.م أنها صورة حية، ونموذج متكرر، لأحد أهم أسباب العنوسة وتعقيد الزواج، وهي تعتبر هذا الأمر حقًا من حقوقها.فهي كأم لخمس بنات تتراوح أعمارهن بين السادسة والعشرين والخامسة والثلاثين "وجميعهن غير متزوجات أو مخطوبات" تدافع عن حقها في رفض العريس "غير الجاهز".

وتقول: لقد نجحت في تربية بناتي على أرقى مستوى، وتخرجن من كليات مرموقة، وحصلن على وظائف جيدة، فكيف ألقي بهن في زيجات لن تسعدهن؟!ولكن الزيجات السعيدة من وجهة نظر هذه الأم تستند أساسا على فكرة "الراحة المالية"، حيث تؤكد على أنها غير متعنتة أبدا، وأن رفضها المتكرر للخاطبين ليس بسبب طلبها للكمال فهي تقبل عيوب كثيرة، ولكن العيب الذي لا تستطيع قبوله هو "عدم الثراء"، لأنه . وعلى حد تعبيرها . (ما يعيبش الراجل غير جيبه).

وللنظر في هذا الموضوع من وجهة الخبرة العملية ، فعلينا أن أن نستمع إلى رأي الخاطبات اللواتي عايشن ويعايشن قضايا الخطوبة والزواج بشكل يومي . ربما تكون مهنة "الخاطبة" بشكلها التقليدي القديم قد انقرضت في ظل ثورة الاتصالات، وشيوع مكاتب الزواج، ولكن الحاجة "نادية عبد الكريم" تؤكد على أنها خاطبة ولكن بصورة عصرية وتطوعية.

وتقول خاطبة وأسمها الحاجة نادية إنها في البداية لم تكن تقوم بدور الخاطبة عن وعي، وإنما نظرًا لتوسع علاقاتها الاجتماعية، نجحت في المساهمة في توجيه الأم إلى عريس مناسب لابنتها، أو عروسة لابنها، ومع الوقت قررت أن تنخرط في هذا الأمر بشكل أكبر في دائرة معارفها وصديقاتها، وأن تقوم بعملية تصنيف واختيار المرشحين للزواج قبل أن توصل الأسرتين ببعضهما.

وألقت الخاطبة العصرية الضوء على سبب مهم لمشكلة العنوسة من وجهة نظرها وهو " الشروط التعجيزية للشباب".

وأكدت على أنها رأت خلال عملها عجبًا من مطالب الشباب في زوجات المستقبل، حتى إنها كادت أن تتوقف عن الاستمرار في هذه المهنة من فرط يأسها وغضبها.

وتفسر "الحاجة نادية" هذا الأمر بقولها: يطلب بعض الشباب شروطًا شكلية تفصيلية تجعلني في حيرة من أمري، هل يريدون زوجات حقيقيات يشاركنهم الحياة، أم لوحات للعرض؟وتضيف: أنا لا أعترض أبدًا على أن يشترط الشاب قدرًا من الجمال، أو القبول الشكلي فهذا حقه، ولكنني أتعجب من دقة المقاسات والألوان التي يطلبونها، والجواب دائما هو: "ربما أعثر على هذه الفتاة، ولكنني لا أعطي عليها ضمان عدة سنوات!!، فشكلها قد يتغير بعد الزواج والحمل والإنجاب".واعتبرت أن من أهم أسباب العنوسة هو نزوع الشاب القادر على الزواج إلى الكمال في مطالبه، سواءًا من الناحية الشكلية، أو التعليمية، أو الاجتماعية، ولسان حاله يقول: " أنا شاب قادر ماليًا على الزواج وعملة نادرة فالأختر من أشاء".كما عرجت على أمر آخر يصعب من إتمام عملية الزواج وهو "التشدد في أمور فرعية"، مثل قيمة الشبكة، وتفاصيل تجهيز منزل الزوجية، وترتيبات العرس، وهو الأمر الذي لا يقتصر على الأسر المتوسطة أو الفقيرة، وإنما أيضًا بين الأغنياء.

ولا يمكن اختزال سبل مواجهة خطر العنوسة في سبيل واحد، بل يجب تكاتف أسباب التيسير، وإزالة العوائق الفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعرفية أمام الزواج.

وأطلق مجموعة من الشباب والشابات حملة على الفيس بوك تحت شعار (جوزونا) تهدف إلى القضاء على العادات التي تعقد الزواج.وأسس بعض الشباب رابطة اجتماعية تابعة للحملة اسمها (رابطة كارهي النيش)، والنيش قطعة أثاث تحمل العديد من المقتنيات الباهظة،و غير الضرورية.

وفي رأي الباحث السعودي الدكتور "عبد الرحمن الصايغ" فإن "أزمة العنوسة" تحتاج إلى مشروع وطني للتصدي لها، ليس على المستوى المحلي وحده، بل على مستوى العالم العربي والإسلامي.وأكد الباحث الاجتماعي في دراسته (الزواج من أجل الحياة) على أن القضاء على العنوسة يحتاج إلى حلول إجرائية واضحة، منتقدًا الدراسات التي تقتصر على نصائح عامة.وترتكز فكرته على أن تقوم كل دولة عربية إسلامية تعاني من هذه المشكلة بتأسيس لجنة وطنية ترتبط بها لجان محلية في كل مدينة ومحافظة ومنطقة ريفية، تكون بمثابة أذرع اللجنة الوطنية التي تُفعل تنفيذ هذا المشروع، وأن يكون أعضاء تلك

اللجـان مـن القيـادات الاجتماعيـة فـي مجتمعـاتهم رجـالا ونسـاء، ممـن لهـم تـأثير وكلمـة مسـموعة فـي مجتمعهم المحلي، وممن عرفوا بالصلاح وحب الخير للمجتمع.ويهدف المشروع إلى تحريك الآلاف من الرجال والنساء للتطوع من أجل الإسهام في حل أزمة العنوسة، من خلال أهداف واضحة وجداول أعمال ومهام محددة وواضحة ومخطط لها وحاصلة على الموافقة الرسمية.

وأوضح الصايغ أن أحد عوامل وجود حالات عنوسة في المجتمع السعودي هو قضية "تكافؤ النسب"، مطالبا بتدخل واعٍ في محاولة لتغيير مثل هذه الاتجاهات لدى الناس، مؤكدًا أنه بعد إنجاح المشروع لعدد من الحالات . ولو كانت قليلة . سيولِّد ذلك اتجاهاً إيجابيًا عند الشرائح الاجتماعية بتجاهل قضية تكافؤ النسب.كما دعا إلى معاقبة كل من يتسبب في تصاعد أزمة العنوسة، موضحًا أن الهدف هو الوصول إلى تغير ثقافي منشود لحل الأزمة.

للاسف بعض الشباب أحيانا يتزوجون من غير بنات جلدته ويتركون الفتيات المسلمات العربيات، وقد تنجح تلك الزيجات وتكون سبباً في هداية الزوجة غير المسلمة ،ولكن الأمر نسبة وتناسب ، فإذا كثر عدد هؤلاء المتزوجين من أجنبيات فلمن تترك بناتنا ،وماهو أسوأ من ذلك أن هناك من هؤلاء الشباب من يبررون عزوفهم عن زواج فتيات من بنات جلدتهم فيتهكم عليها ويذمها ويقلل من شأنها مباشرة أو في مواقع النت والمنتديات كأنهن بلاءويمتدح العاهرات، وبعضهم يبحث عن الحرام ويلجاون للعلاقات المحرمة السهلة بالسفر إلى الدول الغربية والشرقية التي اختلفت نظرتهم لمعنى الأسرة . هذه المجتمعات كانت في يوم من الأيام محافظة مثلنا ولكن المجتمع ترك نفسه طليقاً بلاحدود بعد أن استعبدته الحرية المطلقة فتدرج مفهوم الأسرة ليهبط من نظام شبيه بنظامنا العربي والإسلامي إلى نظام لاعلاقة له بالزواج التقليدي فاضطر الغرب إلى التعايش مع أجواء الحرية المفرطة كظاهرة الأمهات غير المتزوجات والسكن المختلط دون زواج والزواج المثلي.. وهي ظواهر فرضت نفسها على المجتمع الغربي وليس برضاه فتغير مفهوم الأسرة وجلب معه ظواهر سلبية لاحل لها بسبب مفهوم الحرية الشخصية غير المقيدة.

المتزمتون عن جهل أو عن قصد يعترضون على كل ما يقوله و يفعله الآخرون تارة بحجة الدين و أخرى بحجة التقاليد و ثالثة بحجة قوانين هم واضعوها. معظم هؤلاء يفعلون ما لا يوعظون الناس به. مطالب هؤلاء تعجيزية و غير قابلة للتطبيق في زمن الفضائيات و الإنترنيت. فاختلاط الشاب و الشابة في الجامعات حرام و كل الغناء و الموسيقى حرام و بالنسبة للوهابيين وضع الطماطم بجانب الخيار حرام لما له من دلالة جنسية فالخيار مستطيل يشبه مقدمة الرجل و الطماطم مدورة تشبه عجز المرأة.

ومن يتتبع آراء المتحررين التي تكتب في الصحف و تشاهد على الفضائيات حول الحريات الشخصية ومنها حرية الرأي والاختيار يصيبه العجب من كثرة اللغط مما يطرح من أراء تدل على جهل عميق عن الحريات الشخصية و ممارساتها في الغرب،فممارسة الجنس في الغرب كانت مقيدة كما هو في الشرق و كانت العفة للرجل و البكارة للمرأة لهما اعتبار في المجتمع. ولكن بمرور الأجيال ،ونتيجة للتطرف في استخدام مفهوم الحرية وللتفكك الأسري انسلخت العفة و البكارة تدريجيا من مفهوم الشرف والعيب حتى أصبحت حاليا من اعم الحريات و عدم ممارستها أمر شاذ.

مع ذلك حماية القاصرين عمريا أو عقليا من هذه الحرية تقرها القوانين .الحرية الجنسية كلفت المجتمعات الغربية

ولازالت تكلفه ثمنا اجتماعيا و ماديا و نفسيا باهظا ،فانتشرت الإمراض الجنسية و في مقدمتها الايدز و تزايدت إعداد اللقطاء الذين ترك اغلبهم بلا رعاية مما تركهم عرضة للجريمة. وتعددت العلاقات المؤقتة للرجال والنساء فساهم ذلك في تفشي ظاهرة الدياثة والانحلال العاطفي وانتشار الأمراض النفسية و اللجوء إلى تعاطي المخدرات و المنبهات و المشروبات الكحولية، والنتائج السلبية للحرية الجنسية في الغرب لا تحتاج إلى برهان فلماذا يدعو لها البعض بطرق ملتوية للتمويه؟ الفرد الغربي يمارس الجنس مع بنات الناس و ينام قرير العين لممارسة أخواته أو قريباته الجنس حتى مع معارفه. الفرد العربي منافق أخلاقيا و الذين يدعون للحرية الجنسية يستثنون منها أخواتهم و قريباتهم و ربما كان نصيبهن القتل غسلا للعار لو حدث ذلك .هذا لا يعني أن مجتمعنا مثالي و يخلو من هذه (الحرية) و لكنها

تمارس في الكتمان و يتسع نطاقها بين طلبة الجامعات بسبب عدم الاحتشام في المظهر و تطبيق ما يشاهدونه على الفضائيات و غياب الإرشاد من الأهل فلم العجلة يا دعاة الحرية الجنسية؟ الدراسات التي أجريت في الغرب تشير إلى أن

أما المسلسلات الفضائية الرخيصة و المجلات العارية و شبكة الانترنت فلها اثر كبير في تنامي هذه الظاهرة. لنترك الرادع الديني و الاجتماعي جانبا: لماذا يريد (مثقفونا) الإسراع في تفشي هذه الظاهرة الخطرة في مجتمعنا؟ الجواب لغاية في نفس يعقوب : فالرجل يريدها لمتعته و المرأة الممارسة لها تشعر (بالشذوذ) و لتقول للأخريات (كلنا في الهوا سوا). لو كان الغرب يتسم بالفوضى التي يصفها المتحررون لما تقدم في كل المجالات و لأصبح حاله بائسا حال العرب و أكثرية المسلمين.

إعداد / زكي الناصر

رغم الهمسات والملاحظات الخافتة هنا وهناك في الغرب حول خطورة التسيّب الجنسي، والتذكير بالآثار السلبية لفقدان القيود عن مختلف الممارسات الجنسية، يتواصل الترغيب والاشاعة المنظمة للثقافة الجنسية المشاعة بين افراد المجتمع في معظم بلاد الغرب، وهي الثقافة التي تعود الى الافراز السيئ للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والتي جاءت للبشرية بسنّة سيئة وقبيحة وهي الاباحية الجنسية تحت شعار (الحرية الفردية) ضمن بنود (حقوق الانسان). وقد استغلت بعض الدول الغربية ذلك بحجة التقدم الاقتصادي والسياسي فجعلت الفرد لديها لا يشعر بالملل واليأس والاحباط، إنما يفكر دائماً بالعمل والانتاج وجني المال .لكن هذه الثقافة جرت الويلات على من يحملها، فقد انفجرت قنبلة (الايدز) في اواسط الثمانينات، وهي كانت بالحقيقة مخبأة خلف واجهة عريضة من الدعاية البراقة للاباحية طيلة القرن الماضي، حتى لايعرف الانسان حجم الامراض الخطيرة الناشئة من الاباحية الجنسية. كل ذلك يعود الى السبب الرئيسي وهو فقدان الوازع الديني والاخلاقي، وربما لم يجد علماء ومفكروا الغرب بداً من هذا الحل للغريزة الجنسية مع افتقادهم نهائياً للتعاليم الدينية التي تنظم هذه الغريزة وتعلم الانسان كيفية التعامل معها كما هي غريزة الاكل والشرب وغيرها من الغرائز الطبيعية لدى الانسان.

منذ فترة ليست بالقصيرة والمجتمعات الغربية تعاني من الآثار السلبية لما خلفه لهم علماؤهم ومفكروهم، فالزنا والمثلية وإدمان المشاهد الاباحية، أوجدت حالات مرضية خطيرة على صحة الانسان البدنية وعلى سلامة المجتمع بشكل عام، فاضافة الى الامراض الشائعة والمعروفة والتي بدأت تتسلل حتى الى بلادنا الاسلامية، هنالك التفكك الاسري بسبب عدم وجود ضوابط والتزامات بين افراد الاسرة الواحدة. وهذا ما جعل اصوات المطالبة بالاصلاح والتغيير ترتفع في بعض الدول منها الولايات المتحدة الامريكية رغم انها معروفة كأول بلد في العالم يحترم حقوق الانسان ويضمن الحرية الفردية للانسان، ولعل هذا ما جعلها تكون عرضة اكثر من غيرها لمساوئ الاباحية الجنسية. فقد تزايدت حالات الانتحار والخيانة الزوجية وقتل الاطفال الرضع، وهذه الجرائم والانحرافات يكون ابطالها على الاغلب من الشباب، بين سن الخامسة عشر والعشرين عاماً.

من هنا بادرت ادارة التعليم في مدينة نيويورك الى نشر تعليمات جديدة تدعو التلاميذ من المراهقين للابتعاد عن الممارسة الجنسية، علماً ان التعليم الجنسي يُعد من المناهج الاساسية في امريكا ومعظم بلاد الغرب، وهذا بحد ذاته يعد اهم عامل لتحفيز المراهق والمراهقة على الممارسة الجنسية، ويبدو ان التعليم في الغرب غفل عن ان دروسه النظرية في هذا المجال ستأخذ طريقها الى الدروس العملية...!! وجاء ان إدارة التعليم بنيويورك، (تؤكد على أن البرنامج يبدأ بالتعليم الجنسي في المرحلة المتوسطة، وأنه يوفر تعليمات معمقة وتواصل تعليم "مقرر الامتناع عن الجنس"). ويقول المستشار بإدارة تعليم نيويورك، دينيس والكوت: إن مقرر الامتناع عن الجنس يعتبر جزءاً مهماً من منهاج التعليم الجنسي ككل. ولكن "لدينا مسؤولية أيضا بضمان أن يفهم المراهقون، الذين يرغبون بممارسة الجنس، العواقب المحتملة لتصرفاتهم". وحسب المصادر فان إدارة التعليم في نيويورك بدأت العمل على فرض التعليم الجنسي على كل المدارس قبل نهاية عام ٢٠١٢.

واقتصادياً، انما ثقافياً ايضاً، نجد الاسلام يقف شامخاً امام كل الادعاءات الكاذبة والمزيفة بحماية حقوق الانسان وتلبية حاجاته الاساسية. فهذا القرآن الكريم وسنة اهل البيت عليهم السلام، يضعون لنا وللبشرية

جمعاء حلاً اساسياً لاشباع الغريزة الجنسية، بحيث تتحول هذه الغريزة ليس فقط لخلق المتعة واللذة، وانما لبناء المجتمع وتحقيق مصالح الانسان في الحياة. انه الزواج...

طبعاً الى جانب الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم في الحثّ على الزواج وبناء الاسرة، حذر الكتاب المجيد من عواقب (الزنا) كما شرّع له عقوبة لمن يرتكب هذه الجريمة بحق نفسه وبحق المجتمع لتكون رادعاً وعبرة للغير.

لنقرأ الآية الكريمة: "وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله"، انه امر صريح ودعوة لممارسة الجنس في ظل التعاليم الدينية والقيم الاخلاقية، بل واكثر من ذلك، فان الله تعالى يعد من يلبي هذه الدعوة بالعطاء والغنى من لدنه تعالى، وهذه بالحقيقة تعد سابقة في كل الديانات والشرائع التي عرفتها البشرية، بمعنى ان ممارسة الجنس من خلال الزواج في الاسلام يحول الانسان من فقير الى غني، وهذه المسألة بالحقيقة بحاجة الى بحث طويل ومفصّل، فهي غير مفهومة وصعبة الاستيعاب على من تشبعوا بالنظريات الاقتصادية المادية والحياة البعيدة عن الدين والاخلاق. لكنها سهلة وبسيطة للغاية لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ويتوكل عليه تعالى، لا على غيره.

ونقل عن عمدة نيويورك، (مايكل بلومبيرغ) قوله: "لدينا مسؤولية، عندما تكون لديك نسبة ولادات عالية ومعدلات أمراض جنسية منقولة عالية، مثل ما لدينا في المدينة، ينبغي عليك أن تحاول القيام بشيء ما.. العار علينا إن لم نفعل شيئاً".وحسب التقارير الواردة فان مقررات التربية الجنسية في الولايات المتحدة الأمريكية تتضمن موضوعين أساسيين:

١- الامتناع عن ممارسة الجنس واستبداله بالزواج. أي أن العلماء وضعوا تعليمات مشددة بعدم ممارسة الزنا.

٢- تعريف الطلاب بمساوئ الزنا والمشاكل الاجتماعية الكثيرة التي يسببها والأمراض التي تصيب من يتبع هذا الطريق.

أمام كل هذا التخبط والضياع في بلد يعتد بنفسه ليس فقط سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، انما ثقافياً ايضاً، نجد الاسلام يقف شامخاً امام كل الادعاءات الكاذبة والمزيفة بحماية حقوق الانسان وتلبية حاجاته الاساسية. فهذا القرآن الكريم وسنة اهل البيت عليهم السلام، يضعون لنا وللبشرية جمعاء حلاً اساسياً لاشباع الغريزة الجنسية، بحيث تتحول هذه الغريزة ليس فقط لخلق المتعة واللذة، وانما لبناء المجتمع وتحقيق مصالح الانسان في الحياة. انه الزواج...

طبعاً الى جانب الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم في الحثّ على الزواج وبناء الاسرة، حذر الكتاب المجيد من عواقب (الزنا) كما شرّع له عقوبة لمن يرتكب هذه الجريمة بحق نفسه وبحق المجتمع لتكون رادعاً وعبرة للغير.

لنقرأ الآية الكريمة: "وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله"، انه امر صريح ودعوة لممارسة الجنس في ظل التعاليم الدينية والقيم الاخلاقية، بل واكثر من ذلك، فان الله تعالى يعد من يلبي هذه الدعوة بالعطاء والغنى من لدنه تعالى، وهذه بالحقيقة تعد سابقة في كل الديانات والشرائع التي عرفتها البشرية، بمعنى ان ممارسة الجنس من خلال الزواج في الاسلام يحول الانسان من فقير الى غني، وهذه المسألة بالحقيقة بحاجة الى بحث طويل ومفصّل، فهي غير مفهومة وصعبة الاستيعاب على من تشبعوا بالنظريات الاقتصادية المادية والحياة البعيدة عن الدين والاخلاق. لكنها سهلة وبسيطة للغاية لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ويتوكل عليه تعالى، لا على غيره.

هناك موضوع مهم آخر نقرأ ونسمع عنه كثيرا ويسبب ألماً وحسرة وندامة للذين خاضوا تجربته ، وخاصة الفتيات اللواتي توسمن خيراً فيمن أحببن ، إلا أن حظهن قد تعثر وحلمهن قد تبعثر فعضوا أصابع الندم حسرة وألماً ، وهذه الأمورتنتظر حلاً لمشكلة أو تورط عاطفي من نوع معين فتجدهن يبحثن عن حل هنا وهناك لينقذهن أو ليجدن مخرجاً عند بعض المواقع الإستشارية أو البرامج التوعوية أو الجهات المتخصصة .

ولكي نكون منصفين ، لابد أن نبدي ملاحظة هي أن الأمر قد يكون معكوساً فيأتي الغدر من الفتاة أوالمرأة وليس من الرجل ، ولكننا نأخذ بالأعم الأغلب ، وهو الأمر الذي دعاني إلى اقتطاف بعض تلك القصص المنشورة التي تبحث مرسلاتها عن حل لمشكلة وقعت لهن أو ورطة تورطن بها ،لعل في تلك القصص عظة وعبرة .

١ . أرسلت إحد ى الفتيات رسالة تطلب فيها استشارة وقالت في رسالتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والحمد لله رب العالمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخواني أنا اخترتكم ولجأت لكم بعد الله لما توسمت فيكم الخير ولا أزكيكم على الله ... لعل ربي سبحانه وتعالى يجعل حل مشكلتي على يديكم...

القصة باختصار هي أني جديدة في عالم النت ... وفي يوم وصلني إيميل كدعاية لأحد المنتديات الصغيرة ... دخلت المنتدى ولقيته يشترط التسجيل حتى أتمكن من قرآءة مواضيعه ... اشتركت وتابعته ولقيته منتدى نظيفاً ... ومازاد في ثقتي بذلك المنتدى أن مظهر الاستقامة كان عاماً على المنتدى –حسب ما ظهر لي يومها– فالأغاني . على سبيل المثال . ممنوعة تماماً في المنتدى ... وصاحب المنتدى شخص خلوق يشرف بنفسه على كل شي ويظهر للجميع حرصه على الدين والأخلاق .

صرت أكتب هناك موضوعات عامة ولاحظت أن صاحب المنتدى يرد على جميع مواضوعاتي ويثني علي كثيراً ... وهذا حاله مع الجميع ... بحكم أن عدد الأعضاء قليل.

استمريت فترة في المنتدى وهو يتودد لي مثل ما يتودد لغيري بردوده في المنتدى (لكن لاحظت إنه خصني بعناية خاصة) . وبعدها انقطعت وقلّ دخولي لمنتداه، وبعد فترة من الإنقطاع فوجئت به يرسل لي رسالة خاصة يسألني فيها عن سرغيابي ويطلب مني أن أرجع وأكتب وأتواجد بكثرة مثل ما كنت أفعل من قبل .

لم ارد عليه لشك راودني ، بعكس باقي الأعضاء إذا أرسلوا لي كنت أرد عليهم ... والآن أنا أدرك أن المراسلات بين الشباب والبنات خطأ ... ولا أحتاج لمن يشرح لي ذلك لأنني اكتشفت أنه كان يتجسس على الرسائل الخاصة ويعرف عن كل شي يدور بين الأعضاء.... بصفته المشرف على المنتدى .وفي يوم من الأيام رن هاتفي ، وكان الرقم غريباً فتفاجأت بشخص يسب ويشتم ويصفني بأبشع

الصفات .كنت أسمع تلك الشتائم وأنا مذهولة حتى أنني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة لأن تربيتي لاتسمح لي بذلك ، ولكنني فهمت من كلامه إنه صاحب المنتدى وإنه استطاع أن يخترق جهازي وأن يعرف عني كل شي : اسمي بالكامل ، رقم جوالي ، أرقام أبي وأخواني وأسماءهم ، كل شي كل شي . وختم مكالمته لي بالتهديد بتنكيد حياتي عقاباً لي لأنني تجاهلته ولم أعبره .

والآن أنا قلقة كثيراً ... وخائفة من أن يتصل بالوالد أو بأحد أخواني وأن يقذفني بكلام كاذب ، خصوصاً إنهم بعيدون عني كثيرا ، ومن الصعب التفاهم معهم ، ومن الممكن أن يصدقوا أي شي يقوله لأن علاقتنا مع بعض جافة بعض الشيئ وبيننا فجوة مع الأسف . لاأدري كيف أتصرف؟ لا أقدر أن أحكي للوالد ولا لأحد من أخواني.إن أسهل شي سيقولونه عني هو أنني تجاوبت معه ،وإلا كيف أمكنه التجرؤ علي ،ومن الممكن أن يوسوس لهم الشيطان بأمور أسوأ من هذا ... خاصة لو اتصل واتهمني بأمور ربي يشهد إني بريئة منه ومنها.

ثم اختتمت رسالتها بنداء قالت فيه :أرجوكم ساعدوني ..... والله العظيم أحتاج مساعدة ... وبشكل عاجل

٢ . رسالة أخرى لفتاة تقول فيها :

الى من يغار على اعراض المسلمات ، اكتب ما يعصر قلبي ألما ويداي ترتعشان ، فقصتي قد لاتحدث كثيرا ولكنها حدثت لي ،فلي قريب من بعيد وصديق لأخي في المدرسة ،ويعمل مدرساً ولكنه كان ودوداً مع الطلاب ويزورهم في بيوتهم ويطلع معهم البر ربما لأنه لم يكن كبيراً في السن . حسب ما يقول اخي . وكان يزور أخي في بيتنا من ضمن أصدقائه الذين يزورونه بالبيت ،وكنا متضايقين من علاقته القوية باخي لأنه إنسان غير ملتزم دينياً . وذات يوم، فوجئت به يرسل رسالة لي وجدتها في مدخل البيت عند رجوعي من الكلية ، اخذت الورقة وقرأتها بيد مرتعشة ، فوجدت فيها كلام الغزل مثل : انا احبك ومعجب باخلاق اخيك، وفراستي تدفعني لعرض زواجي منك ، وبعد تلك المقدمات أمهلني اسبوعين لكي أرد عليه ،وذيل رسالته بكتابة رقم جواله . وبعد أن قرأت الرسالة لم ألقها أي اعتبار ولم أرد عليه ، صحيح أنه روعني بعض السيء ،ولكنني تجاهلته وحاولت أن أتناسى رسالته ، لكن المفاجأة جاءتني قبل رمضان حينما وجدت في نفس المكان رسالة عرفت مباشرة أنها منه فقلت في نفسي ربما يريد أن يرجوني مرة ثانية ،ولكن لما قرأتها أحسست بحجم المشكلة لأنه كتب فيها: أنا اعرف أنك لم تردي على رسالتي الأولى لأنك لاتريدينني ، ولكن انا ماسك عليك حاجة ،وانا شايف صورتك وانت

جميلة ،وشفت صورتك وانت لابسه كذا ، وخلفك كتاب كذا. وقصده بقول كذا يعني أن عنده صوري في البيت ،فذهبت ابحث مسرعة في صوري فوجدته صادقا ،فهناك صور مثل ما قال . والآن أنا خائفة لأنه أرسل لي رسالة ثالثة هددني فيها بانه سيفضحني في الانترنت وينشر صوري التي بحوزته إذا لم أوافق على الزواج منه .

وقالت الفتاة في آخر الرسالة : "لا أحد من اهلي يدري عن الموضوع ، وانا مقهورة وأتساءل من أين جاءته الصور ، فمن غير المعقول أن يعطيه اخي صوري ،ولاأذكر أنني أعطيت صوري لأي من صديقاتي البنات ، وأنا لا أرتاح إليه ومستحيل أن أتزوجه فما العمل ؟وما هو الحل في الخلاص من ورطة الصور أولا ومن الخطبة ثانيا ، فلو جاء لأهلي يخطبني ،ماذا سأقول لهم عن سبب الرفض! ولو صارحتهم برسائله وكلامه ربما تحدث مشاكل عائلية بين أهلنا .قولوا لي مالعمل الله يخليكم ؟

أختكم لمياء

كانت هناك محاولات لمساعدة الفتاة في مشكلتها التي عرضتها عبر ردود منها:

السلام عليكم ياهلا اختي لمياء...

اولا انت لست بمشكلة بل هو .

ثانيا اذهبي مباشرة الى والدتك واعطيها رسائله واخبريها بكل شيئ وسوف تتفهم موقفك بدل ان تسمعي كلامه وتدخلي في مشاكل اكبر ،ومن ثم امك سوف تتصرف لانها تعرف حسن أخلاق ابنتها، وإن لم تستمع إليك فاذهبي لاختك او لشخص يعرف اخلاقك جيدا يكون اكبر من اخيك ليفهمه ويشرح له اخطاء مخالطة هؤلاء الناس.

ثالثاً : اعتقد انه من الخطاء إهداء الصور لأي كان ، أو رميها في كل زاوية من المنزل ، ابحثي عن صورك واحفظيها في مكان امن وان لم تستطيعي ذلك فاحرقيها لانها سبب المشاكل مادام أن هناك من يدخل منزلكم وهو غير مؤتمن عليه وعلى أهله حتى وإن كان قريباص لكم ،والا كيف وصلت صورك إليه ،من المؤكد أنه إما وجدها ملاقاة في مكان او أنك أعطيته الصورة وبما انك لم تعطه الصورة يبقى انه وجدها في مكان في المنزل.

رابعـــاً :اتمنـــى ان تلجـــأي لامـــك فهـــي افضـــل مـــن يحـــل لـــك هـــذه المشـــكلة وحتى لأبيك لأنه العالم بحالك وافضل من يحميك من اخوانك ومن الشباب الفاسد كهذا الشاب ، وصدقيني غضب ابي عندي افضل مليون مرة من ان اخاف من شاب واتساهل معه..

إنتهى الردعلى تلك الأخت المطعونة من حيث لاتدري ،وأنا أضم صوتي إلى صوتها بأن المرارة في أن الطعنة جاءتها من قريب وليس من غريب ،وأحياناً تأتيك الطعنة من المقربين إليك وممن كنت تعتقدين أنهم أحرص الناس عليك . وهذا الغدر . وللأسف . لا يحدث لك وحدك ، أوللنساء فقط ،ولكن حدث لآخرين من الرجال والنساء . وهذا ما حصل لابن معصوم المدني الذي قال أبياتا يصف فيها حاله الشبيه جاء فيها :

يـــا للرجـــال لخطـــب جـــلَّ فادحـــه
حتـــى المعـــارفُ ضـــاعت عنـــدها الـــذممُ
مـــا إن وثقـــت بخـــلّ أو أخـــي ثقـــة
إلاَّ دهـــاني بخطـــب شـــرُّه عَمـــمُ

وكـــــلٌ ذي رَحـــــمٍ أوليتُـــــه صـــــلة
شـــكت إلـــى ربِّهـــا مـــن قطعِـــه الـــرَّحِمُ
هـــذا ابـــن أمـــي الـــذي راعيـــت قربتـــه
مـــا كـــان عنـــدي بســـوء الظـــنِّ يُـــتَّهم
أدنيتـــــه نظـــــراً منـــــي لحرمتـــــه
وذو الديانـــــة للأرحـــــام يحتـــــرمُ
أضـــحى لعِرضـــي مـــع الأعـــداءِ منتهكـــا
وراح للمـــــال قبـــــل النـــــاس يلـــــتهم
مـــا صـــانَ لـــي نســـباً يومـــاً ولا نشـــبا
ولا رعـــى لـــي عهـــوداً نقضُـــها يَصِـــمُ
قـــد كنـــتُ أحســـبَه بالغيـــب يحفظنـــي
ولـــو زوانـــي عنـــه المـــوت والعـــدم
حتـــى إذا غبـــت عنـــه قـــام منتهبـــا
داري وراح لمـــــا خلَّفـــــتُ يغتـــــنمُ
تـــالله مـــا فعـــل الأعـــداء فعلتـــه
كـــلا ولا اهتضـــموا مـــا ظـــل يهتضـــم
هـــــلاَّ نَهـــــاهُ نُهـــــاه أو حفيظتُـــــه
عـــن ســـلب مـــا حلـــي النســـوان والحـــرم
وافـــى بهـــن ومـــا أوفـــى بذمتـــه
ســـلباً عواطـــل لا ســـورٌ ولا خـــدم
أيـــن الفتـــوة إن لـــم ينهـــه ورعٌ
ولـــم يَخَـــفْ غـــبَّ مـــا قـــد راح يجتـــرم
هبـــه أضـــاعَ إخـــائي غيـــر محتشـــمٍ
ألـــيس عـــن دون هـــذا المـــرء يحتشـــم
كأنَّـــه كـــان مطويّـــاً علـــى إحـــنٍ
فعنـــدما غبـــت عنـــه راح ينـــتقم

مـــا كـــان هـــذا جزائـــي إذ رعيـــتُ لـــه
حـــقَّ الاخـــاءِ ولكـــن للـــورى شـــيمُ
فقـــل ســـلامٌ علـــى الأرحـــام ضـــائعة
فقـــد لعمـــري أضـــاعت حقَّهـــا الأمـــمُ

٣ . رسالة ثالثة من فتاة مخطئة تقول فيها :

خطبني شخص وأثناء الخطبة أخطأت معه وبعد ذلك تغير رأيي فيه ولا أريد الزواج منه.. والآن خطيبي يهددني بالفضيحة، كيف أتخلص من خطيب لا أحبه ؟أخطأت معه ، ولكن ليس إلى درجة كبيرة تمنعني من الزواج ولم أفقد عذريتي ،ندمت على علاقتي به لا أريد الزواج منه لأنني أحسست أنه استغل ضعفي وحبي تجاهه وهو يهددني إما الزواج منه أو أن يفضحني لأنه سجل شريط فيديو لنا عند وقوع الخطيئة دون علمي!

وقد تلقت تلك الفتاة ردوداً منها :

هل ندمت علي علاقتك به أو علي خطأك معه ؟أم ندمت لأنك اكتشفت وضاعته وخسته ؟ أم تراك ندمت علي الخطيئة وعلي إغضابك لربك وابتذالك لنفسك من أجل من لا يستحق ؟.

علي أي الأحوال المهم أن تكوني قد تعلمت من التجربة وأن تتعلم كل فتاة أن أي مخلوق في الكون مهما علت درجته فلن يعلو علي خالقها ،ولن يفيدها أن ترضيه وتغضب ربها ، مهما كانت درجة الحب أو القرب بينها وبين هذا الشخص ، ولو كنت أرضيت ربك فقط ما استطاع شخص مهما كان أن يهددك ، أو يستغلك . هذا الشخص لا يؤمن جانبه ،لكن قدر الله وما شاء فعل ، ولا حل أمامك الآن سوي إتمام الزواج بأي شكل ،ويا ليت كل فتاة تتعظ ولا تسلم نفسها بهذه السهولة لكل عابث يستغلها ويهتك براءتها ، أنا أعلم أنه الآن لا وقت للنصيحة ولا وقت حتى للندم ، بل لا وقت للتفكير والاختيار والمفاضلة ، بين الاستمرار أو الانفصال ، بل ما يجب أن تفكري فيه الآن هو إتمام الزواج قبل أن ينفذ تهديده بالفعل وتكونين في هذه الحالة قد خسرت كل شيء .وأهم شيء قد تخسرينه هو سمعتك، بل وسمعة عائلتك بكاملها ومستقبلك، ليس نتيجة تسرعك فقط بل نتيجة تعجلك للعلاقة قبل الأوان ، وكونك سلمت نفسك بسرعة لشخص لم تكتشفي عيوبه إلا مؤخراً ،فقد ضيعت علي نفسك كل فرصة للاختيار.

رغم ما أن ما فعله بك من تصوير وتهديد وخلافه ، خال من كل معاني المروءة والأخلاق والشرف ، لكن الحق أنه ليس ملاماً وحده فإن هو تصرف معك بهذه الخسة فذلك، لأنك منحته الفرصة الذهبية ،ولكن رغم ماهوعليه من أخلاق، ورغم ما قد يظنه فيك بعدما حدث بينكما ،ولكن قد يكون تمسكه بك هو أنه فعلاً يحبك رغم أن أخلاق المحبين أرفع من ذلك ، فقد كان من الممكن أن يحدث بينكما ما حدث وأكثر ويتركك غير نادم أو آسف ، و حتى لو كان لم يعد الآن يعجبك أو يروق لك فقد مضي وقت الاختيار والمفاضلة بين أن تتركيه أو تتزوجيه ، لأنك بما فعلت فوت علي نفسك فرصة الاختيار ووضعت نفسك أمام طريق لم يعد فيه إمكانية للتراجع ، لقد انتهى وقت التفكير وجاء وقت التنفيذ ، تنفيذ الزواج والمضي في هذا الطريق ، ولعل كل الفتيات يفكرن ألف مرة قبل التسرع الذي لن يعقبه إلا الندم .

أنا أعرف جيداً أن الزواج بهذه الطريقة قد لا يكون موفقاً لأن المقدمات الخاطئة تؤدي إلي نتائج خاطئة ، لكنك الآن في وقت لا يسمح لك بالاختيار، ليس لأن الخطبة هي ورطة بل إن الخطبة كما شرعها الإسلام معروفة بأنها فترة اختبار. ولو أنك كنت منحت نفسك الفرصة لتتعرفي علي خطيبك حق المعرفة وتتركي لنفسك فرصة لاكتشاف صفاته ، لكنت بالتأكيد سارعت بفسخ الخطبة الآن وأنت مطمئنة ، لكن لأن الوقت فات فلابد من الزواج فذاك هو الحل الوحيد أمامك الآن ، واطلبي من الله أن يغفر لك ولخطيبك وأن يهديه فيكون ذلك هو الخطأ أو الخطيئة الكبرى في حياتكما ، ولعله يدرك أنه أخطأ في حقك وفي حق نفسه وفي حق دينه فيستغفر ويبدأ معك حياة جديدة .

إن الموافقة علي الزواج والتوبة من الذنب والاستغفار الكثير هو كل ما يمكنك أن تفعلينه الآن ، لعل الله يجعل لك يسراً بعد عسر وفرجا بعد الضيق ، واحمدي ربك أنه متمسك بالزواج منك مهما كانت أسبابه ، لأن نبل الغاية لا يبرر له رخص الوسيلة ودناءتها.

عواطف عبد الحميد .

٤ . هذه قصة أخرى من قصص العض على أصابع الندم ، تقول من بعثت بها:

شاب يهددني بالصور حسبي الله ونعم الوكيل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يابنات الله يعطيكم العافيه ويستر عليكم انا تعرفت على شاب ايام كنت في الثانويه ، وكان هناك صور بيننا في تلك الفترة ،ولكننا تركنا بعضنا بعد ذلك ،ومرت الأيام تخرجت فيها من الجامعة ثم بدأت احضر للماجستير ولله الحمد ، ولكن المصيبه ان هذا الشاب بعد تلك الفترة الطويلة ، واعتقادي أنه نسي ماكان بيننا ، حاول الاتصال بي ، فلم ارد عليه ، فأرسل رسائل تهديد يقول فيها كلاماً مشيناً مثل : والله لافضحك فضيحه وسأتفنن في الفضيحه، سواءً بصورك أو بغير صورك. انا لاأدري مالذي ذكره بي ، انا تبت لوجه الله والحمدالله التزمت بالدين منذ زمن، ولاأدري ماذا أفعل ! أخبرت أخواتي فقلن لي أبلغي الهيئه وانا خائفه من الفضيحة ، خصوصا أن أهلي محافظون ولو انكشف الأمر فحتماً ستكون ردة فعلهم عنيفة . أنا خائفة جداً وطول الوقت ، اصلي وادعو منه أن ينقذني من هذه الورطة ، أنا خجولة مما حدث لي ،أرجوكم ساعدوني وليس لي إلا الله ثم انتم، ارجو المساعده والدعاء في ظهر الغيب بالستر الجميل الذي لاينكشف .

بعدما قرأت هذا الموضوع ، تساءلت في نفسي لماذا غالباً ما تكون الفتاة هي ضحية مثل هذه العلاقات , ورأيت أن الفتيات بشكل عام هن الأقرب لتصديق كل كلام معسول، ربما لأن المرأة عاطفية حساسة أكثر من الرجل . وهي أكثر جديه في الحب من الشاب و تحب بصدق وتصدق اي كلام يقال لها . ولكن لايجب ظلم كل الشباب فهناك شباب صادقون في شعورهم ويريدون علاقة جدية تنتهي بالزواج ،إنما اللوم على شباب آخرين يعتبرون أن علاقتهم بالفتيات عبارة عن لهو ولعب ومغامرة وعلاقات طارئة خالية من العاطفة .

أما الفتاة التي تتعرف على أحد الشباب ظانة أنه فتى أحلامها الذي سيحملها على كفوف الراحة إلى عش الزوجية ، فقد يصدق حدسها لتنتهي قصتها نهاية سعيدة ولكنها ربما أنها تغامر مغامرة تعض بعدها أصابع الندم إن لم تأخذ حذرها وإن لم يكن أهلها على علم بكل خطواتها لأنها قد تكون ضحية ذئب مفترس . ولذلك فإن الفتاة الواعية هي التي تشرك أهلها في قصتها منذ البداية ، فقد تكون فرصها في النجاة من الذئاب أكبر من غيرها لأن شعور الذئب بأن الأهل يراقبون الأوضاع عن كثب سيردعه من الاستفراد بالضحية . ولايجب على الفتاة أن تشعربأن روحها معلقة بمن قد لايستحق منها كل ذلك الشعور الفياض ،كما لايجب عليها أن تعتقد أن الفرصة إذا فاتت فلن تعوض وعليها أن تحكم عقلها حتى وإن كان طرياً وتتأكد من أنها فعلاً فرصة لن تندم عليها،بل ربما يهيئ لها الله من هو أفضل من هذا العابث بها وبمستقبلها ، يقول الشافعي :

اذا المـــــــرء لا يرعـــــــاك إلا تكلفـــــــا
فدعـــــــه ولا تكثـــــــر عليـــــــه التأسفـــــــا
ففـــي النـــاس ابـــدال وفـــي التـــرك راحـــة
وفـــي القلـــب صـــبر للحبيـــب ولـــو جفـــا
فمـــا كـــل مـــن تهـــواه يهـــواك قلبـــه
ولا كـــل مـــن صـــافيته لـــك قـــد صفـــا
إذا لـــم يكـــن صفـــو الـــوداد طبيعـــة
فـــلا خيـــر فـــي خـــل يجـــيء تكلفـــا
ولا خيـــر فـــي خـــل يخـــون خليلـــه
ويلقـــاه مـــن بعـــد المـــودة بالجفـــا
وينكـــر عيشـــا قـــد تقـــادم عهـــده
ويظهـــر ســـرا كـــان بـــالامس قـــد خفـــا
ســـلام علـــى الـــدنيا اذا لـــم يكـــن بهـــا
صـــديق صـــدوق صـــادق الوعـــد منصـــفا

وقد أعجبتني تجربة في المملكة العربية السعودية الشقيقة قرأت عنها بعد أن طور جهاز رقابي نفسه لمعالجة هذه المشاكل ، هو جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد قرأت عن ذلك من خلال ردود استشارية على رسائل بعض الفتيات تقول السيدة التي بعثت بالرد :

"أختي تأكدي أن الهيئه ستحل مشكلتك بأذن الله بسريه تامه بدون علم أهلك ،شاهدي مقطعاً من برنامج رأت عيني على اليوتيوب الآتي :

وأدرجت عنوان الهيئة

http://www.youtube.com/watch?v=i4hQk...layer_embedded

وأدرجت عنوان الهيئة عنوان مركز هيئة الأسكان بجنوب الرياض لمن يريد المساعدة .وقالت إن هذا المركزمتخصص بقضايا الإبتزاز والتهديد وتحول له بعض القضايا من هيئات الرياض ولديهم كوادر مدربة وكفؤة جدا للتعامل مع جميع أنواع الإبتزاز سواءا الكترونيا عن طريق الأنترنت او عن طريق

الجوال ،فمن لديه أي قضية عليه بالإتصال بهذا الرقم فانت معهم بأمان بإذن الله ونحن نحميك بعد توفيق الله ،وقد وضعت الإستشارية هواتف هيئة الإسكان بمدينة الرياض، ولاأدري إن كان الرقم لازال يعمل أم لا ولكن على من يريد الإستعانة بالهيئة التأكد من الرقم وهو جوال / .....

وبعد أن قرأت هذا الرد من الإستشارية انتبهت إلى الوجه الإيجابي الآخر لتلك الهيئة بعد أن كانت الصورة عنهم سلبية وامتلأت بها الصحف والمنتديات المعادية لتلك الهيئة . وهذا مادفعني لقراءة المزيد عن الهيئة فوجدت أن أعضاءها يتعرضون لمخاطر وهم يدافعون عن الفتيات المظلومات . ومن بين ماقرأت هذه الحادثة :

أشعل مجهولون النيران في سيارة أحد أعضاء مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرمة بعد أن تمكنوا من سرقة سيارته أثناء توقفها في مقر عمله بمركز الهيئة, وما أن تقدم ببلاغ لمركز شرطة العزيزية اذ به يفاجأ باتصال من الجهات الأمنية أكدت له أن سيارته تم العثور عليها والنيران تشتعل فيها في حي بطحاء قريش بعد أن تمكن الجناة من الفرار بها الى منطقة خالية من السكان وأشعلوا النيران فيها. وحسب صحيفة «الوئام» تلقت عمليات الدفاع المدني بلاغا عند الساعة العاشرة من مساء الجمعة يفيد باحتراق سيارة أمام مركز متاجر وطني الواقع بحي بطحاء قريش وعلى الفور تواجدت عدة جهات أمنية في الموقع لمعاينة الحادثة وتمكنت فرقة الدفاع المدني من اخماد النيران.

وقد وجه عضو الهيئة اتهاما لشخصين يعملان في قطاع مهم بعد أن تمكن من تحرير فتاة من يدهما بعد أن حاولا اختطافها وقام بمتابعتهما ومنعهما من اركاب الفتاة في سيارتهما والتي تمكنت من الهروب منهما ودخلت لأحد الفنادق ومنعهما حراس الأمن من ملاحقتها الى بهو الفندق ورغم ذلك حاولا استغلال منصبهما الوظيفي بتهديد حراس الأمن، وفي تلك الأثناء تمكن عضو الهيئة من استدعاء زملائه في دوريات الهيئة وتم القبض على الشخصين وإحيلا لجهات التحقيق.

وأثناء تواجد عضو الهيئة في مركز التحقيق فقد مفتاح سيارته وأحضر المفتاح الآخر ولم يكن يعلم أن المفتاح سقط في يد الجناة والذين وجه عضو الهيئة اتهاما صريحا لهما بأنهما قاما بسرقة السيارة واحراقها.

العنوسة والندم

بعد أن تطرقنا إلى العلاقة العاطفية الراقية التي تستهدف تكوين أسرة مباركة ، وبعد أن تطرقنا لسوء استغلال تلك العاطفة من قبل البعض لتتحول حياة من ذقن أو ذاقوا مرارة الغدر والخيانة ونكث العهود إلى جحيم يعضون بعده اصابع الندم ، نتطرق عن تحليل لدافع يدفع بعض الفتيات للبحث عن علاقة جدية مثمرة . هذا الدافع مصدره هاجس العنوسة ، فكثير من الفتيات يشعرن بأن شبح العنوسة يلاحقهن . حتى وإن كن فتيات صغيرات في السن . فيعتقدن أن الفرصة ملائمة للتخلص من هذا الشبح في أول فرصة تمر بهن ،بينما الشاب ، حتى إذا كبر، فإنه لايعاني من هذه المشكلة ،ولذلك فإن الشاب يشعر بأنه على غير عجلة من أمره، وينعكس ذلك على استجابة الفتاة لمثل تلك العروض فتكون العاطفة عندها مشوبة بالخوف من المستقبل ، وتكون أقرب لتصديق العرض العاطفي المقدم لها ، وتعتقد أن فارس الاحلام الذي يطرق بابها سينقذها من ذلك الشبح قبل أن يفوتها قطار الزواج فتقيم علاقة عاطفية بقصد الزواج ،ولكنها ربما تعض أصابع الندم بسبب تلك التجربة .

إن كلمة "عانس".. لفظة ثقيلة على النفس، وكلما كبرت المرأة دون أن تتزوج ،تكبر معها مخاوفها من العنوسة ، وهي حالة ترفضها الكثيرات ،وحتى إذا تقبلها أخريات فإنهن يفعلن ذلك على مضض لأنهن لا يجدن مفرًا منها بعد أن خبت جذوة الأمل في قلوبهن .خاصة وأن الإحصائيات في العقود الأخيرة تطالعنا بأرقامٍ خطيرةٍ بل مفزعةٍ، تجعل من "العنوسة"، أو "تاخر زواج المرأة" ظاهرةً مخيفةً تستوجب الدراسة، والبحث، والتصدي لها. وربما كانت احد الاباب المهمة للعلاقة المتعجلة التي تتطلع من خلالها الفتيات إلى الزواج والإستقرار ، ولكن تلك العلاقة ربما تكون تلك العلاقة علاقة مثمرة وربما تكون علاقة مدمرة .

قرأت أن دراسة أجراها الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء في مصر أظهرت أن عدد من وصلوا إلى سن الخامسة والثلاثين دون زواج وصل إلى تسعة ملايين شخص، منهم ما يزيد على ثلاثة ملايين امرأة، وستة ملايين رجل. كما أوضحت إحصائية وزارة التخطيط السعودية أن عدد النساء اللاتي بلغن الثلاثين دون زواج وصل إلى مليون و ٩٠ ألف.ووفقا للإحصائيات الرسمية الجزائرية فإن نسبة النساء العازبات وصلت إلى ٥١% من إجمالي عدد النساء، من بينهم أربعة ملايين فتاة لم يتزوجن رغم تجاوزهن الرابعة والثلاثين عاماً.وأوضحت الدراسة التى أعدها أستاذ علم الاجتماع الأردنى الدكتور إسماعيل الزيود بعنوان (واقع العنوسة فى العالم العربى) أن ٥٠ % من الشباب السورى عازبون،

و ٦٠% من الفتيات السوريات عازبات، وأن النسبة الكلية لمن بلغوا سن الزواج في الأردن يصل إلى نحو ٥٥%.وفي نفس السياق فإن نسبة العازبين بلغت ٢٠% في كلٍّ من السودان والصومال، وفي العراق ٨٥ % ممن بلغن سن الزواج وتجاوز عمرهن الخامسة والثلاثين .وأظهرت الدراسة أن نسبة العازبات في البحرين أكثر من ٢٠%، وفي الكويت ٣٠%، وأن ٣٥% من الفتيات في كل من الكويت وقطر والبحرين والإمارات بلغن مرحلة العنوسة أو (اليأس من الزواج)، وانخفضت هذه النسبة في كل من السعودية واليمن، بينما بلغت ٢٠% في كل من السودان والصومال، وبلغت١٠% في كل من سلطنة عمان والمملكة المغربية، وكانت في أدنى مستوياتها في فلسطين حيث لم تتجاوز فتاة واحدة من بين كل مائة فتاة. هذه الأرقام . إن صدقت نتائج الدراسة . تعتبر نتائج مفزعة لم تكن معهودة من قبل ،ولكنها أرقام تحتاج إلى وقفة وتحليل حتى لاتلقي بظلالها السلبية على مجتمعاتنا العربية والمسلمة التي تعتبر العلاقة الزوجية والزواج أساس كل مجتمع طبيعي ومؤسسة اجتماعية وفطرية وتربوية ودينية متكاملة . ومن هنا جاء الإهتمام بالعوامل الإيجابية التي تهيئ لزواج مثمر وناجح وتفادي العوامل السلبية التي تعرقل نجاح تلك المؤسسة أو عدم قيامها ، بما في ذلك ظاهرة العنوسة .

تشير الأستاذة "تهاني عبد الحميد" (مستشارة نفسية) إلى الأسباب العميقة لانتشار العنوسة في العالم العربي، وتقول إن السبب الرئيسي وراء انتشار هذه الظاهرة هو وقوع المجتمعات العربية في حالة من الفصام الثقافي الحاد، وذلك بعد أن تشبعت بمباديء وافدة وغريبة تُحقر من "الزواج المبكر"، وتعتبره مجازفة بصحة الفتاة، وإهدارًا لحريتها.

وتضيف قائلةً: لقد شهدت القرون الأخيرة انبهارًا ثقافيًا بالغرب، وأصبح من المعتاد أن نعالج الخلل في مجتمعاتنا وفق منظورٍ غربيٍ، فإذا كان البعض في مجتمعاتنا العربية يزوج الفتاة وهي صغيرة السن وغير مؤهلة للزواج، ويجبرها أحيانًا عليه، فإن علاج هذه الأخطاء لم يتم وفق المنهج الإسلامي، بل جاء محمولاً على رياح غربية تشنع من الزواج المبكر للجنسين، وتعتبره انتهاكًا لحق الفتية والفتيات في حياة اللهو والتجريب.

وتؤكد أ/ "تهاني" على أن الكثير من المسلمين تشبعوا وجدانيًا بتأخير سن الزواج، واقتنعوا بأن الزواج المبكر "أضحوكة" لأنه زواج أطفال، ولكنهم لم يتنبهوا للمأزق الذي وقعوا فيه؛ فالغرب يسمح لهؤلاء الصغار –زعما– بحرية جنسية، بل إنه يفتح الباب على مصراعيه أمام اجتماع الرجل والمرأة في

إطار اجتماعي غير الزواج وهو ما يعرف إسلاميًا بـ"اتخاذ الأخدان"، ويعتبر من الزواج أمرًا اختياريًا لمن اختبروا حياة الأزواج سنينا.

وتردف: ولكن المسلمين لديهم حدود دينية، وموروثات ثقافية، وطبيعة مجتمعية، تمنعهم دون هذا التفلت المحموم، لذلك فإنهم وقعوا في فخ الفصام، ولم يكونوا قادرين على كلفة الفكرة الوافدة المشنعة على "الزواج المبكر" والتي للأسف تقبلوها، ربما أكثر من أصحابها –أحيانًا–.

وتقول أ "تهاني عبد الحميد" إن بداية الحل تأتي انطلاقا من قول النبي ﷺ ((إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)).وعلى الأم أن تربي ابنها وابنتها على السواء تربية مسئولة، وأن تعلمهم الاعتماد على النفس، وتهيأهم لحياة مستقلة، بعيدًا عن الحماية الزائدة، حتى يكونوا مؤهلين في السن الطبيعي لتحمل مسئولية الزواج.وتضيف: الصورة ليست قاتمة، فهناك نماذج لآباء وأمهات اهتموا بالدين والخلق، ويسروا الزواج على الشباب، فأصبحوا بمثابة الأبناء لهم، ونعم الأزواج لبناتهن.

أما المحامية "سمية ابراهيم"، ٣٢ عاما،فقد اعتبرت أن تأخر النضج الفكري والنفسي لدى الشباب المعاصر هو من أهم أسباب عنوسة المرأة.وقالت المحامية "سمية" إن الشاب يظل معتبرًا نفسه طفلاً طوال فترة مراهقته، وينظر إلى نفسه كمراهق في فترة شبابه، فثمة مرحلة كاملة ضائعة في حياة شباب هذه الأيام إلا ما ندر، لذا فإنه لا يفكر في الزواج تفكيرًا جديًا إلا بعد تقدمه في السن.وتضيف: لم يعد الزواج يحتل نفس مكانته القديمة وأهميته السامية لدى شباب اليوم، وذلك لضعف الإحساس بالمسئولية، بل الخوف والنفور منها، فالزواج لم يعد في حس الكثيرين سكنًا ومودة ورحمة، بل أصبح قيدًا وسياجًا.

ولنأخذ وجهة نظر إحدى بنات هذا الجيل كممثلة عن تلك الشريحة، وهي فتاة جامعية اسمها "ريهام .ح"، لازالت تدرس بالفرقة الرابعة بكلية التجارة جامعة القاهرة،حيث رفضت إطلاق لقب (عانس) على المرأة التي تأخر زواجها، مؤكدةً على أن هذه الصورة يجب أن تتغير لان الفتاة لم تعد مهيئة للزواج في سن مبكرة بسبب استكمال تعليمها ودراستها الجامعية.وتقول: إن المجتمع كان . قديما . يعتبرالفتاة إذا بلغت العشرين عانسا، وهذا التصور لا يتفق مع واقعنا اليوم؟ فمن الخطأ . من وجهة نظرها . أن نضع رقما وحدا عمريا أمام المرأة للحكم على بلوغها سن العنوسة ، ولكن "ريهام"تستدرك فتقول : ليس معنى كلامي أنني أقلل من خطورة تأخر الزواج، ولكنني أرفض لقب عانس وتحديده بسن معينة، فأنا رغم أنني مازلت في أوائل العشرينات، إلا أنني خائفة أن يتاخر زواجي، أو ألا أتزوج أصلا.

وعن سر هذا الخوف، تقول الفتاة العشرينية: لقد تقدم لخطبتي العديد من الأشخاص الأكفاء، ولكن أهلي للأسف رفضوا لأسباب غير كافية، ففي البداية كان سبب الرفض هو أنني في بداية حياتي الجامعية، وقد يهدد الزواج حصولي على الشهادة، أما بعد ذلك فكانت التكاليف المادية الباهظة هي كلمة السر وراء رفض المتقدم للخطبة.

وتعلق "ريهام" على طريقة أهلها قائلة: إنهم ينظرون إلى اللحظة الحالية وكوني في العشرين، وعلى قدر من الجمال، وكأن هذه اللحظة ستدوم، وكأن الخيارات ستظل متعددة، وجيدة، ولا يقدرون أن طريقتهم ربما تجعلني أقبل أي شخص في مستقبل أيامي.

أما "فاطمة.ن"، ٤١ عاما،فقد قالت وبمزيج من السخرية والألم: "أنا عانس رسمي"، والسبب هو الروايات العاطفية.وأضافت: كنت قارئة نهمة للروايات العاطفية، وطوال سنين مراهقتي وشبابي كنت أبني أحلامًا رومانسية، وصورة لزوج المستقبل تشبه أبطال القصص، فرفضت الكثيرين من الأشخاص الأكفاء ، ولم يستطع أهلي إقناعي ولا إجباري، فمضى بي العمر أسيرة لقصور بنيتها فوق الماء.وأردفت: كنت أرفض بشدة الزواج دون حب أو ما يسمونه (زواج الصالونات أو الزواج التقليدي) بل كنت أعتبره إهانة لي كفتاة متعلمة ومثقفة، ولكن أفكاري كانت خاطئة، فغالبية صديقاتي ومثيلاتي تزوجن في إطار الأسرة ثم وجدن الحب بعد الزواج والعشرة.

أما "محمد الدريني"، ٣٠ عاما، فيقول: عندما أفكر في الزواج فإنني أشعر أنني وسط البحر ، فقد مضت سنوات من عمري من الدراسة والعمل ، ولكنني لم أحقق شيئا يذكر من الناحية المالية يقربني من إمكانية تكوين أسرة.ويضيف: أعتقد أن الناس قديمًا لم يكونوا يتعاملون مع الزواج بهذه الطريقة الغريبة، فالزواج كان إطارًا للحياة في عمر مبكر للفتى والفتاة، ومن خلال هذا الإطار، وفي ظل الزواج يحققان أهدافهما، وينجح الرجل، ويعمل ويبني نفسه، في حالة من الاستقرار النفسي والجسدي والاجتماعي.ويستدرك قائلا: أما الآن فالزواج أصبح هو المنتهى، والحلم الذي يعمل المرء من أجله، فهو نهاية المطاف، وليس بداية الرحلة!!، فالفتيات وأهلهن لا يقبلون أن تشاطر ابنتهن شابًا في أول حياته رحلة كفاحه، ولا يريدون الاستمتاع بتحقيق النجاح، وإنما يسعون وراء تناول ثمرة جاهزة ومعلبة لم تشارك الفتاة في حصدها أو جنيها، وإذا لم يكن الشاب ينتمي إلى أسرة غنية، أو يهبط عليه مال بسبب أو بآخر.. فكيف سيلبي مطلب الشقة التمليك الواسعة، والسيارة الجديدة، قبل أن يتم الخمسين من عمره؟واعتبر "الدريني" أن الطمع والمغالاة هما السببان الرئيسان وراء عنوسة البنات، وعزوبة الشباب.

أما الشاب محمد زياد –٢٩ عامًا– فيقول: إن العديد من أصحابي لهم سلوكيات منحرفة ، بل ويعرضون علي أن أشاركهم في الخطيئة؛ لكنني ولله الحمد لم أفعل ، أريد أن أتزوج طلبًا للعفة؛ لذلك عرض والدي شقتنا التمليك للبيع حتى نستأجر شقتين في منطقة شعبية... كل هذا من أجل أن أتزوج ،فأنا أكبر إخوتي الخمسة.

وتعترف الدكتورة ش.م أنها صورة حية، ونموذج متكرر، لأحد أهم أسباب العنوسة وتعقيد الزواج، وهي تعتبر هذا الأمر حقًا من حقوقها.فهي كأم لخمس بنات تتراوح أعمارهن بين السادسة والعشرين والخامسة والثلاثين "وجميعهن غير متزوجات أو مخطوبات" تدافع عن حقها في رفض العريس "غير الجاهز".وتقول: لقد نجحت في تربية بناتي على أرقى مستوى، وتخرجن من كليات مرموقة، وحصلن على وظائف جيدة، فكيف ألقي بهن في زيجات لن تسعدهن؟!ولكن الزيجات السعيدة من وجهة نظر هذه الأم تستند أساسا على فكرة "الراحة المالية"، حيث تؤكد على أنها غير متعنتة أبدا، وأن رفضها المتكرر للخاطبين ليس بسبب طلبها للكمال فهي تقبل عيوب كثيرة، ولكن العيب الذي لا تستطيع قبوله هو "عدم الثراء"، لأنه . وعلى حد تعبيرها . (ما يعيبش الراجل غير جيبه).

وللنظر في هذا الموضوع من وجهة الخبرة العملية ، فعلينا أن أن نستمع إلى رأي الخاطبات اللواتي عايشن ويعايشن قضايا الخطوبة والزواج بشكل يومي . ربما تكون مهنة "الخاطبة" بشكلها التقليدي القديم قد انقرضت في ظل ثورة الاتصالات، وشيوع مكاتب الزواج، ولكن الحاجة "نادية عبد الكريم" تؤكد على أنها خاطبة ولكن بصورة عصرية وتطوعية.

وتقول خاطبة وأسمها الحاجة نادية إنها في البداية لم تكن تقوم بدور الخاطبة عن وعي، وإنما نظرًا لتوسع علاقاتها الاجتماعية، نجحت في المساهمة في توجبه الأم إلى عريس مناسب لابنتها، أو عروسة لابنها، ومع الوقت قررت أن تنخرط في هذا الأمر بشكل أكبر في دائرة معارفها وصديقاتها، وأن تقوم بعملية تصنيف واختيار المرشحين للزواج قبل أن توصل الأسرتين ببعضهما.

وألقت الخاطبة العصرية الضوء على سبب مهم لمشكلة العنوسة من وجهة نظرها وهو " الشروط التعجيزية للشباب".وأكدت على أنها رأت خلال عملها عجبًا من مطالب الشباب في زوجات المستقبل، حتى إنها كادت أن تتوقف عن الاستمرار في هذه المهنة من فرط يأسها وغضبها.

وتفسر "الحاجة نادية" هذا الأمر بقولها: يطلب بعض الشباب شروطًا شكلية تفصيلية تجعلني في حيرة من أمري، هل يريدون زوجات حقيقيات يشاركنهم الحياة، أم لوحات للعرض؟وتضيف: أنا لا أعترض أبدًا على أن يشترط الشاب قدرًا من الجمال، أو القبول الشكلي فهذا حقه، ولكنني أتعجب من دقة المقاسات والألوان التي يطلبونها، والجواب دائما هو: "ربما أعثر على هذه الفتاة، ولكنني لا أعطي عليها ضمان عدة سنوات!!، فشكلها قد يتغير بعد الزواج والحمل والإنجاب".واعتبرت أن من أهم أسباب العنوسة هو نزوع الشاب القادر على الزواج إلى الكمال في مطالبه، سواءًا من الناحية الشكلية، أو التعليمية، أو الاجتماعية، ولسان حاله يقول: " أنا شاب قادر ماليًا على الزواج وعملة نادرة فالأختر من أشاء".كما عرجت على أمر آخر يصعب من إتمام عملية الزواج وهو "التشدد في أمور فرعية"، مثل قيمة الشبكة، وتفاصيل تجهيز منزل الزوجية، وترتيبات العرس، وهو الأمر الذي لا يقتصر على الأسر المتوسطة أو الفقيرة، وإنما أيضًا بين الأغنياء.

ولا يمكن اختزال سبل مواجهة خطر العنوسة في سبيل واحد، بل يجب تكاتف أسباب التيسير، وإزالة العوائق الفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعرفية أمام الزواج.

وأطلق مجموعة من الشباب والشابات حملة على الفيس بوك تحت شعار (جوزونا) تهدف إلى القضاء على العادات التي تعقد الزواج.وأسس بعض الشباب رابطة اجتماعية تابعة للحملة اسمها (رابطة كارهي النيش)، والنيش قطعة أثاث تحمل العديد من المقتنيات الباهظة،و غير الضرورية.

وفي رأي الباحث السعودي الدكتور "عبد الرحمن الصايغ" فإن "أزمة العنوسة" تحتاج إلى مشروع وطني للتصدي لها، ليس على المستوى المحلي وحده، بل على مستوى العالم العربي والإسلامي.وأكد الباحث الاجتماعي في دراسته (الزواج من أجل الحياة) على أن القضاء على العنوسة يحتاج إلى حلول إجرائية واضحة، منتقدًا الدراسات التي تقتصر على نصائح عامة.وترتكز فكرته على أن تقوم كل دولة عربية إسلامية تعاني من هذه المشكلة بتأسيس لجنة وطنية ترتبط بها لجان محلية في كل مدينة ومحافظة ومنطقة ريفية، تكون بمثابة أذرع اللجنة الوطنية التي تُفعل تنفيذ هذا المشروع، وأن يكون أعضاء تلك اللجان من القيادات الاجتماعية في مجتمعاتهم رجالا ونساء، ممن لهم تأثير وكلمة مسموعة في مجتمعهم المحلي، وممن عرفوا بالصلاح وحب الخير للمجتمع.ويهدف المشروع إلى تحريك الآلاف من الرجال والنساء للتطوع من أجل الإسهام في حل أزمة العنوسة، من خلال أهداف واضحة وجداول أعمال ومهام محددة وواضحة ومخطط لها وحاصلة على الموافقة الرسمية.وأوضح الصايغ أن أحد عوامل

وجود حالات عنوسة في المجتمع السعودي هو قضية "تكافؤ النسب"، مطالبا بتدخل واعٍ في محاولة لتغيير مثل هذه الاتجاهات لدى الناس، مؤكدًا أنه بعد إنجاح المشروع لعدد من الحالات . ولو كانت قليلة . سيولّد ذلك اتجاهاً إيجابيًا عند الشرائح الاجتماعية بتجاهل قضية تكافؤ النسب.كما دعا إلى معاقبة كل من يتسبب في تصاعد أزمة العنوسة، موضحًا أن الهدف هو الوصول إلى تغير ثقافي منشود لحل الأزمة.

شباب اليوم والزواج

للاسف بعض الشباب أحيانا يتزوجون من غير بنات جلدتهم ويتركون الفتيات المسلمات العربيات، وقد تنجح تلك الزيجات وتكون سبباً في هداية الزوجة غير المسلمة ،ولكن الأمر نسبة وتناسب، فإذا كثر عدد هؤلاء المتزوجين من أجنبيات فلمن تترك بناتنا ،وماهو أسوأ من ذلك أن هناك من هؤلاء الشباب من يبررون عزوفهم عن الزواج من بنات جلدتهم فيتهكمون عليها ويذمونها ويقللزن من شأنها بشكل مباشر أو من خلال مواقع الشبكة العنكبوتية أو المنتديات ،فبعضهم يبحثون عن الحرام ويلجاون للعلاقات المحرمة السهلة بالسفر إلى الدول الغربية والشرقية التي تختلف نظرتهم لمعنى الأسرة.

هذه المجتمعات كانت في يوم من الأيام محافظة مثلنا ولكن المجتمع ترك نفسه طليقاً بلاحدود بعد أن استعبدته الحرية المطلقة فهبط مفهوم الأسرة من نظام شبيه بنظامنا العربي والإسلامي إلى نظام لاعلاقة له بالزواج التقليدي ، ومنها حرية الرأي والاختيار يصيبه العجب من كثرة اللغط مما يطرح من أراء تدل على جهل عميق عن الحريات الشخصية و ممارساتها في الغرب،فممارسة الجنس في الغرب كانت مقيدة كما هو في الشرق و كان لعفة الرجل و بكارة المرأة اعتبار في المجتمع. ولكن بمرور الأجيال ،ونتيجة للتطرف في استخدام مفهوم الحرية وللتفكك الأسري انسلخت العفة و البكارة تدريجيا من مفهوم الشرف والعيب حتى أصبحت حاليا من اعم الحريات و عدم ممارستها أمر شاذ.

ودفع الغرب مقابل ذلك ثمنا اجتماعيا و ماديا و نفسيا باهظا ،فانتشرت الإمراض الجنسية و في مقدمتها الايدز و تزايدت إعداد اللقطاء الذين ترك اغلبهم بلا رعاية مما تركهم عرضة للجريمة. وتعددت العلاقات المؤقتة للرجال والنساء فساهم ذلك في تفشي ظاهرة الدياثة والانحلال العاطفي وانتشار الأمراض النفسية و اللجوء إلى تعاطي المخدرات و المنبهات و المشروبات الكحولية، والنتائج السلبية للحرية الجنسية في الغرب لا تحتاج إلى برهان .

كل ذلك يعود الى السبب الرئيسي وهو فقدان الوازع الديني والاخلاقي، ومنذ فترة ليست بالقصيرة والمجتمعات الغربية تعاني من الآثار السلبية لما خلفه لهم علماؤهم ومفكروهم، فالزنا والمثلية وإدمان المشاهد الاباحية، أوجدت حالات مرضية خطيرة على صحة الانسان البدنية وعلى سلامة المجتمع بشكل عام، فاضافة الى الامراض الشائعة والمعروفة والتي بدأت تتسلل حتى الى بلادنا الاسلامية، عم المجتمعات العربية التفكك الاسري بسبب عدم وجود ضوابط والتزامات بين افراد الاسرة الواحدة. وهذا ما جعل اصوات المطالبة بالاصلاح والتغيير ترتفع في بعض الدول منها الولايات المتحدة الامريكية رغم انها معروفة كأول بلد في العالم يحترم حقوق الانسان ويضمن الحرية الفردية للانسان، ولعل هذا ما جعلها تكون عرضة اكثر من غيرها لمساوئ الاباحية الجنسية. فقد تزايدت حالات الانتحار والخيانة الزوجية وقتل الاطفال الرضع، وهذه الجرائم والانحرافات يكون ابطالها على الاغلب من الشباب، بين سن الخامسة عشر والعشرين عاماً.من هنا بادرت ادارة التعليم في مدينة نيويورك الى نشر تعليمات جديدة تدعو التلاميذ من المراهقين للابتعاد عن الممارسة الجنسية، علماً ان التعليم الجنسي يُعد من المناهج الاساسية في امريكا ومعظم بلاد الغرب، وهذا بحد ذاته يعد اهم عامل لتحفيز المراهق والمراهقة على الممارسة الجنسية، ويبدو ان التعليم في الغرب غفل عن ان دروسه النظرية في هذا المجال ستأخذ طريقها الى الدروس العملية...!! وجاء ان إدارة التعليم بنيويورك، (تؤكد على أن البرنامج يبدأ بالتعليم الجنسي في المرحلة المتوسطة، وأنه يوفر تعليمات معمقة وتواصل تعليم "مقرر الامتناع عن الجنس"). ويقول المستشار بإدارة تعليم نيويورك، دينيس والكوت: إن مقرر الامتناع عن الجنس يعتبر جزءاً مهماً من منهاج التعليم الجنسي ككل. ولكن "لدينا مسؤولية أيضا بضمان أن يفهم المراهقون، الذين يرغبون بممارسة الجنس، العواقب المحتملة لتصرفاتهم". وحسب المصادر فان إدارة التعليم في نيويورك بدأت العمل على فرض التعليم الجنسي على كل المدارس قبل نهاية عام ٢٠١٢. فإلى من يترك أبناؤنا بناتنا الطاهرات العفيفات ويتزوجون من هؤلاء الأجنبيات الذين تختلف عاداتهم وتقاليدهم الحديثة عن عاداتنا وتقاليدنا .

الحب الحقيقي

ونقول لهؤلاء الشباب ولتلك الشابات :إن الحب الحقيقي هو الحب الذي يثبت به الحبيبان الإخلاص والمودة بعد الزواج ، وهذا هو الحب الذي يظل محتفظاً بزخمه إلى النهاية ،ولنقارن هذا الحب بالفوضى الجنسية التي تتعدد بها التجارب حتى يتعود اصحاب الفوضى الجنسية على هذا النمط من الحياة فلايستطيعون الفكاك منه حتى بعد الزواج ،ومن يطلع على تجارب الغرب قبل الفوضى الجنسية القائمة وبعدها لوجد أن حالة بهيمية تعتمد على الغرائز غيرت مفهوم الحب وتدنت به إلى مرحلة غير مستقرة من الشعور والعاطفة الحقيقية ، ولنقارن ذلك بالإستقرار والمحبة والالفة التي يحب الرجل من خلالها زوجته وازوجتة زوجها بصدق ، وهذا هو الحب الصحيح الذي لا مراء فيه، وهو الحب العميق الذي ثبتت جذوره في أعماق الواقع بعكس . أما الحب قبل الزواج فإن بعضه قد يؤدي إلى الزواج ،وهذا هو الغاية والهدف من الحب ،ولكن الحب الذي يقوم على الخيال ربما ينتهي بالزواج وربما ينتهي بالندم وربما يتبخَّر ذلك الحب بعد الزواج وكأنه شمع تعرَّض للشمس..فالحب الافتراضي يبدأ قبل الزواج والحب الحقيقي يبدأ بعده . وفي تراثنا الشعري الكثير من القصص والقصائد التي تعكس "غلاء" الزوجة وصدق حب الزوج لها بعد أو رغم السنين الطوال، كقصيدة جرير ، وهو القائل في رثاء زوجته بعد موتها:

ندمت ندامة الكُسَعِيّ لما

غدتء مني مطلقة نَوَارُ

قال جرير وهو يرثي زوجته بعد موتها:

لولا الحياء لهاجني استعبار

ولزرت قبرك والحبيبُ يُزار

كيف لا يحب المرء زوجته التي تقف معه في سرائه وضرائه ؟ لقد حضنا ديننا الحنيف على تلك المحبة بقوله تعالى "وجعل بينكما مودة ورحمة " ، بل إنه يطلب من الزوج المبادرة على عدم ترك حتى الأشياء البسيطة التي يدخل الزوج فيها الفرحة إلى قلب زوجته , أما المفتونون بالغرب والمحتقرين

لثقافة الدين الإسلامي الاجتماعية ممن يشاهدون في الأفلام والمسلسلات الأجنبية ، فإذا شاهدوا رجلاً أوربياً يعامل زوجته برقة ، كأن يكونا في مطعم يأكلان، فتجد الزوج يقطع قطعة اللحم ويضعها في فم زوجته بالشوكة.فتعجب الزوجات بمثل هذا الموقف وتسمعهم يقلن:هذا مانفتقده في ديننا ! ولكننا نقول لهؤلاء الأخوات الكريمات : عفواً ياأختاه فإن ذلك ليس عيباً في الدين ولكنه عيب في الأزواج ، ويكفي أن نقرأ عليك حديث رسول الله(ص) حين قال :"أعظَم الصّدقة لقمة يضعها الرجل في فم زوجته"؟ أليس هذا مايفعله الأوربي ونترفع عنه .ولنروي قصة حب زوج أحب زوجته وأحبته فأراد أن يفعل كل مابوسعه لإسعادها ، ذلك الزوج المحب هو ابن زريق . فمن هو ابن زريق وما هي قصته ؟.

ابن زريق

هو أبو الحسن علي (أبو عبد الله) بن زريق الكاتب البغدادي

(420هـ 1029 / م) وقد اشتهر ابن زريق بقصيدة رائعة عبر فيها عن ندمه لاصراره على الترحال وترك زوجته ،ولكنه ظل يتذكرها في غربته ويندم على فراقها أشد الندم.. وهو شاعر عباسي لا نعرف عن حياته الكثير ، ولكنه كان يحب زوجته حباً شديداً ، وهي كذلك تبادله نفس المحبة ،ولكن مسّه الفقر وهو الذي يريد أن يجعل زوجته تعيش بسعادة فأراد الهجرة إلى الأندلس لعله يكسب مالاً يسعدها به، ولكن زوجته رجته بحرارة ودموعها تنزل مدراراً ألا يسافر ويتركها فرفض وأصر وسافر بعيداً إلى الأندلس ليجمع المال فيسعدها ، وفي رواية أخرى أنها ابنة عمه التي خطبها فطلبت مهراً لايملكه رغم أنها تحبه وتريد الزواج منه، فقرر ابن زريق السفر للبحث عن مهرها ولكنها لم توافقه الرأي وطلبت منه البقاء في بغداد. وأياً كان السبب فقد سافر إلى أبي عبد الرحمن الأندلسي وتقرب إليه بنسبه فأراد أبو عبد الرحمن أن يختبره فأعطاه شيئا قليلاً من المال، فقال ابن زريق إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت البراري والقفار والبحار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء القليل فانكسرت نفسه حتى اعتل فمات. وشغل عنه الأندلسي إياما ثم سأل عنه فخرجوا يطلبونه فانتهوا إلى الخان الذي هو فيه وسألوا عنه فقالوا إنه كان في هذا البيت ومذ أمس لم يبصره أحد فصعدوا فوجدوه مغلقاً فدفعوا الباب فإذا به ميت وعند رأسه رقعة مكتوب فيها قصيدة ، فلما قرأ أبو عبد الرحمن الأندلسي هذه الأبيات بكى حتى خضب لحيته ،وقال وددت أن هذا الرجل حي وأشاطره نصف ملكي وكان مكتوباً في رقعة الرجل منزلي ببغداد في الموضع الفلاني المعروف بكذا والقوم يعرفون بكذا فحمل إليهم خمسة آلاف دينار وعرفهم بموت ابن زريق .

هذه القصيدة التي لم يعرف لزرياب سواها ،وجدت معه عند موته سنة ٤٢٠ من الهجرة،وخاطب فيها زوجته ، ليؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته. وليروي خلاصة أمينة، لتجربته مع الغربة والرحيل، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع لها. وهو في ختام القصيدة نادم..حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي، فمات متصدع القلب من اللوعة والأسى حيث لا أنيس ولا رفيق معين.

أما القصيدة الوداعية المبكية التي كتبها ابن زرياب ندماً على فراق زوجته ، فقد احتوت على الأبيات التالية :

لا تَعذَلِيه فَإنَّ العَذلَ يُؤلِمة

قَد قَلتِ حَقاً وَلَكِن لَيسَ يَسمَعُهُ
جاوَزتِ فِي لَومهُ حَداً أَضَرَّبِهِ

مِن حَيثَ قَدرتِ أَنَّ اللَومَ يَنفَعُهُ
فَاستَعمِلِي الرِفق فِي تَأنِيبِهِ بَدَلاً

مِن عَذلِهِ فَهُوَ مُضنى القَلبِ مُوجعُهُ
قَد كانَ مُضطَلَعاً بِالخَطبِ يَحمِلُهُ

فَضُيِّقَت بِخُطُوبِ المَهرِ أَضلُعُهُ
يَكفِيهِ مِن لَوعَةِ التَشتِيتِ أَنَّ لَهُ

مِنَ النَوى كُلَّ يَومٍ مايُروعُهُ
ما آبَ مِن سَفَرٍ إلّا وَأَزعَجَهُ

رَأيُ إلى سَفَرٍ بِالعَزمِ يَزمَعُهُ
كَأَنَّما هُوَ فِي حِلّ وَمُرتحلِ

مُوَكَّلٍ بِفَضاءِ اللهِ يَـذرَعُهُ
إِنَّ الـزَمانَ أَراهُ فـي الرَحِيلِ غِنىً

وَلَو إِلى السَدّ أَضحى وَهُوَ يُزمَعُهُ
تـأبى المطامعُ إلا أن تُـجَشّمه

للرزق كداً وكم ممن يـودعُهُ
وَمـا مُجاهَدَةُ الإِنسانِ تَوصِلُهُ

رِزقَـاً وَلادَعَةُ الإِنسانِ تَقطَعُهُ
قَد وَزَّعَ اللهُ بَينَ الخَـلقِ رِزقَهُمُ

لَم يَخلُقِ اللهُ مِن خَلقٍ يُضَيّعُهُ
لَـكِنَّهُم كُلِّفُوا حِرصاًفلَستَ تَرى

مُستَرزِقاً وَسِوى الغاياتِ تُقنُعُهُ
وَالحِرصُ في الرِزاقِ وَالأَرزاقِ

قَد قُسِمَت بَغِيُ أَلّا إِنَّ بَغيَ المَرءِ يَصرَعُهُ
وَالمَهرُ يُعطِي الفَتى مِن حَيثُ يَمنَعُه

إِرثاً وَيَمنَعُهُ مِن حَيثِ يُطمِعُهُ
اِستَودِعُ اللهَ فِي بَغدادَ لِي قَمَراً

بِالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارَ مَطلَعُهُ
وَدَّعتُهُ وَبِوُدّي لَو يُوَدِّعُنِيهِ

صَفوَ الـحَيـاةِ وَأَنّـي لا أَودعُـهُ
وَكَم تَشبَّثَ بـي يَومَ الـرَحيلِ ضُحَىً

وَأَدمُعِي مُستَهِلّاتٍ وَأَدمُعُهُ
لا أَكُذبث اللهَ ثوبُ الصَبرِ مُنخَرقٌ عَنّي بِفُرقَتِهِ لَكِن أَرَقّعُهُ
إِنّـي أَوَسِّعُ عُذري فِي جَنايَتِهِ

بِالبينِ عِنهُ وَجُرمي لا يُوَسِّعُهُ
رُزِقتُ مُلكاً فَلَم أَحسِن سِياسَتَهُ

وَكُلُّ مَن لا يُسُوسُ المُلكَ يَخلَعُهُ
وَمَن غَدا لابِساً ثَوبَ النَعِيم

بِلاشَكرٍ عَلَيهِ فَإِنَّ اللهَ يَنزَعُهُ
اِعتَضتُ مِن وَجهِ خِلّي بَعدَ فُرقَتِهِ

كَأساً أَجَرَّعُ مِنها ما أَجَرَّعُهُ
كَم قائِلٍ لِي ذُقتُ البَينَ قُلتُ لَهُا

لذَنبُ وَاللهِ ذَنبي لَستُ أَدفَعُهُ
أَلا أَقمتَ فَكانَ الرُشدُأَجمَعُهُ

لَو أَنَّنِي يَومَ بانَ الرُشدُ اتبَعُهُ
إِنّـي لَأَقطَعُ أَيّامِي وَأَنفِذُها

بِحَسرَةٍ مِنهُ فِي قَلبِي تُقَطِّعُهُ
بِمَن إِذا هَجَعَ النُوّامُ بِتُّ لَهُ

بِلَوعَةٍ مِنهُ لَيلى لَستُ أَهجَعُهُ
لا يَطمِئنُّ لِجَنبي مَضجَعُ

وَكَذالا يَطمَئِنُّ لَهُ مُذ بِنتُ مَضجَعُهُ
ما كُنتُ أَحسَبُ أَنَّ المَهرَ يَفجَعُنِي

بِهِ وَلا أَنّض بِي الأَيّامَ تَفجعُهُ
حَتّى جَرى البَينُ فِيما بَينَنا

بِيَدٍعَسراءَ تَمنَعُنِي حَظّي وَتَمنَعُهُ
حَتّى جَرى البَينُ فِيما بَينَنا بِيَدِ

عَسراءَ تَمنَعُنِي حَظّي وَتَمنَعُهُ
فِي ذِمَّةِ اللهِ مِن أَصبَحَت مَنزلَهُ

وَجادَ غَيثٌ عَلى مَغناكَ يُمرِعُهُ
مَن عِندَهُ لِي عَهدُ لا يُضيّعُهُ

كَما لَهُ عَهدُ صِداقٍ لا أُضَيّعُهُ
وَمَن يُصَدِّعُ قَلبي ذِكرَهُ وَإِذا

جَرى عَلى قَلبِهِ ذِكري يُصَدِّعُهُ
لَأَصبِرَنَّ لِمَهرٍ لا يُمَتِّعُنِي بِهِ

وَلا بِيَ فِي حالٍ يُمَتِّعُهُ
عِلماً بِأَنَّ اِصطِباري مُعقِبُ فَرَجاً

فَأَضيَقُ الأَمرِ إِن فَكَّرتَ أَوسَعُهُ
عَسى اللَيالي الَّتي أَضنَت بِفُرقَتَنا

جِسمي سَتَجمَعُنِي يَوماً وَتَجمَعُهُ
وَإِن تُغِلُّ أَحَداً مِنّا مَنيَّتَهُ

فَما الَّذي بِقَضاءِ اللهِ يَصنَعُهُ

"استودع الله في بغداد لي قمراً

بالكَرخِ، من فلكِ الأزرار مطلعُهُ

ودّعتُهُ وبودّي أن يودّعني

طيبُ الحياة وأنّي لا أودّعُهُ

وكم تشبَّث بي يومَ الرحيل ضحىً

وادمعي مستهلاّتٌ وأدمعُهُ

لا أكذبُ الله ثوبُ الصبر منخَرقٌ

عني بفرقتِهِ، لكن أرقّعُهُ يعني أقول الصدق بأنني غير صابر

إنّي أوسّعُ عذري في جنايتِهِ

بالبين عنه وجرمي لا يوسعُهُ

رزقت ملكاً فلم أحسن سياستَهُ

وكلُّ من لا يسوسُ الملكَ يخلعُهُ

ومن غدا لابساً ثوبَ النعيم بلا

شُكرٍ عليه، فإنَّ اللهَ ينزعُهُ"

وكانت زوجته قد رجته وهي تبكي ألاَّ يسافر وحين ألح أخذت تلومه بشدة لشدة حبها له وحرصها عليه فقال في ذلك:

قَد كانَ مُضطَلَعاً بالخَطبِ يَحمِلُهُ

لا تعذليه فإنَّ العذل يولعُهُ

قد قلتِ حقّاً ولكن ليس يسمعُهُ

جاوزتِ في لومِهِ حدّاً أضرَّ بِهِ

من حيثُ قدّرت أن اللوم ينفعُهُ

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً

من عذله، فهو مضنَى القلب موجعُهُ

قد كان مضطلعاً بالخطبِ يحملهُ

فضيّقت بخطوب الدهر أضلعُهُ

يكفيهِ من لوعة التشتيت أنّ لهُ

من النوى كلّ يومٍ ما يروّعُهُ

ما آبَ من سفرٍ إلاّ وأَزعَجَهُ

رأيٌ إلى سَفَر بالعزم يزمعُهُ

كأنما هو في حلّ ومرتَحَلٍ

موكّلٌ بفضاء الله يذرعُهُ

وما مجاهدةُ الإنسان توصلُهُ

رزقاً، ولا دَعَةُ الإنسان تقطعُهُ

قد وزّع اللهُ، بينَ الخلق رزقهُمُ

لم يخلق اللهُ من خلق يضيعُهُ

لكنهم كلفوا حرصاً فلست ترى

مسترزقاً وسوى الغايات تقنعُهُ

إنَّ الـزَمانَ أَراهُ في الرَحِيلِ غِنىً

وَلَو إِلى السَدّ أَضحى وَهُوَ يُزمَعُهُ

تأبى المطامعُ إلا أن تُـجَشّمه

للرزق كداً وكم ممن يـودعُهُ

وَالمَهرُ يُعطِي الفَتى مِن حَيثُ يَمنَعُه

إرثاً وَيَمنَعُهُ مِن حَيثِ يُطمِعُهُ

والحرص في الرزق – والأرزاقُ قد قسمت

بغيٌ ألا أن بغيَ المرء يصرعُهُ"

وحكمتُهُ هذه لم تخرج من برج عاجي أو تنظير بارد، بل من مرارة التجربة وقد تقاذفته الأسفار كريشةٍ في مهب الرياح حيث المعاناة والأخطار وذل الغربة ووحشة الوحدة، ولهذا ندم أشد الندم على فراق زوجته المحبة المحبوبة فهو يتذكرها بوجد الثكلى.. يقول:

"استودع الله في بغداد لي قمراً

بالكَرخِ، من فلكِ الأزرار مطلعُهُ

ودّعتُهُ وبودّي أن يودّعني

طيبُ الحياة وأنّي لا أودّعُهُ

وكم تشبَّث بي يومَ الرحيل ضحىً

وادمعي مستهلاّتٌ وأدمعُهُ

لا أكذبُ الله ثوبُ الصبر منخَرقٌ

عني بفرقتِهِ، لكن أرقّعُهُ يعني أقول الصدق بأنني غير صابر

إنّي أوسّعُ عذري في جنايتِهِ

بالبين عنه وجرمي لا يوسعُهُ

رزقت ملكاً فلم أحسن سياستَهُ

وكلُّ من لا يسوسُ الملكَ يخلعُهُ

ومن غدا لابساً ثوبَ النعيم بلا

شُكرٍ عليه، فإنَّ اللهَ ينزعُهُ"

" اعتضتُ من وجه خلّي بعد فرقتِهِ

كأساً أجرَّع منها ما أجرّعُهُ

كم قائلٍ لي ذُقتَ البينَ؟ قلتُ له:

الذنبُ و الله ذنبي لستُ أدفعُهُ

ألا أقمتُ فكانَ الرُّشدُ أجمعُهُ؟

لو أنني يومَ بان الرشدُ أتبعُهُ

إني لأقطعُ أيامي وأنفذها

بحسرةٍ منهُ في قلبي تُقَطِّعُهُ

بمَن إذا هَجَعَ النُّوَّامُ بتُّ لهُ

– بلوعةٍ منهُ – ليلي لستُ أَهجعُهُ

لا يطمئنُّ لجنبي مَضجعٌ، وكذا

لا يطمئنُّ له مذ بنتُ مَضجَعُهُ

ما كنت أحسبُ أنّ الدهرَ يفجعني

بِهِ، ولا أنّ بي الأيامُ تفجعُهُ

حتى جرى البينُ فيما بيننا بيدٍ

عسراءَ تمنعني حظّي وتمنعُهُ

قد كنتُ من ريب دهري جازعاً فرقاً

فلم أوقَّ الذي قد كنتُ أَجزعُهُ

بالله يا منزلَ! العيش الذي دَرَسَت

آثارُهُ وَعفَت مُذ بِنتُ أربعُهُ

هلِ الزمانُ معيدٌ فيكَ لذَّتنا

أم الليالي التي أَمضتهُ ترجعُهُ؟

في ذمَّة الله من أصبحتَ منزلهُ

وجادَ غيثٌ على مغنَاك يمرعُهُ

مَن عندَه لي عهدٌ لا يضيّعُهُ

لَأَصبِرَنَّ لِمَهرٍ لا يُمَتِّعُنِي بِهِ

وَلا بِيَ فِي حالٍ يُمَتِّعُهُ
عِلماً بِأَنَّ اِصطِباري مُعقِبُ فَرَجاً

فَأَضيَقُ الأَمرِ إِن فَكَّرتَ أَوسَعُهُ

كما له عهدُ صدقٍ لا أُضيّعُهُ

ومَن يصدِّع قلبي ذكرَهَ وإذا

جرى على قلبِهِ ذكري يصدّعُهُ

عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا

جسمي، ستجمعني يوماً وتجمعُهُ

وَإِن تُغِلُّ أَحَداً مِنّا مَنيَّتَهُ

فَما الَّذي بِقَضاءِ اللهِ يَصنَعُهُ

١ . ابن زريق

هو أبو الحسن علي (أبو عبد الله) بن زريق الكاتب البغدادي

(420هـ 1029 / م) وقد اشتهر ابن زريق بقصيدة رائعة عبر فيها عن ندمه لاصراره على الترحال وترك زوجته ،ولكنه ظل يتذكرها في غربته ويندم على فراقها أشد الندم.. وهو شاعر عباسي لا نعرف عن حياته الكثير، ولكنه كان يحب زوجته حباً شديداً ، وهي كذلك تبادله نفس المحبة ،ولكن مسّه الفقر وهو الذي يريد أن يجعل زوجته تعيش بسعادة فأراد الهجرة إلى الأندلس لعله يكسب مالاً يسعدها به، ولكن زوجته رجته بحرارة ودموعها تنزل مدراراً ألا يسافر ويتركها فرفض وأصر وسافر بعيداً إلى الأندلس ليجمع المال فيسعدها ، وفي رواية أخرى أنها ابنة عمه التي خطبها فطلبت مهراً لايملكه رغم أنها تحبه وتريد الزواج منه، فقرر ابن زريق السفر للبحث عن مهرها ولكنها لم توافقه الرأي وطلبت منه البقاء في بغداد. وأياً كان السبب فقد سافر إلى أبي عبد الرحمن الأندلسي وتقرب إليه بنسبه فأراد أبو عبد الرحمن أن يختبره فأعطاه شيئا قليلاً من المال، فقال ابن زريق إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت البراري والقفار والبحار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء القليل فانكسرت نفسه حتى اعتل فمات. وشغل عنه الأندلسي إياما ثم سأل عنه فخرجوا يطلبونه فانتهوا إلى الخان الذي هو فيه وسألوا عنه فقالوا إنه كان في هذا البيت ومذ أمس لم يبصره أحد فصعدوا فوجدوه مغلقاً فدفعوا الباب فإذا به ميت وعند رأسه رقعة مكتوب فيها قصيدة ، فلما قرأ أبو عبد الرحمن الأندلسي هذه الأبيات بكى حتى خضب لحيته ،وقال وددت أن هذا الرجل حي وأشاطره نصف ملكي وكان مكتوباً في رقعة الرجل منزلي ببغداد في الموضع الفلاني المعروف بكذا والقوم يعرفون بكذا فحمل إليهم خمسة آلاف دينار وعرفهم بموت ابن زريق .

هذه القصيدة التي لم يعرف لزريق سواها ،وجدت معه عند موته سنة ٤٢٠ من الهجرة،وخاطب فيها زوجته ، ليؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته. وليروي خلاصة أمينة، لتجربته مع الغربة والرحيل، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع لها.

وهو في ختام القصيدة نادم..حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي، فمات متصدع القلب من اللوعة والأسى حيث لا أنيس ولا رفيق معين.

أما القصيدة الوداعية المبكية التي كتبها ابن زريق ندماً على فراق زوجته ، فقد احتوت على الأبيات التالية :

لا تعذليـــــه فـــــإنَّ العـــــذل يولعُـــــهُ
قـــد قلـــتِ حقّـــاً ولكـــن لـــيس يســـمعُهُ
جـــاوزتِ فـــي لومِـــهِ حـــدّاً أضـــرَّ بِـــهِ
مـــن حيـــثُ قـــدّرت أن اللـــوم ينفعُـــهُ
فاســـتعملي الرفـــق فـــي تأنيبـــه بـــدلاً
مـــن عذلـــه، فهـــو مضـــنَى القلـــب موجعُـــهُ
قـــد كـــان مضـــطلعاً بالخطـــبِ يحملـــهُ
فضـــيّقت بخطـــوب الـــدهر أضـــلعُهُ
يكفيـــهِ مـــن لوعـــة التشـــتيت أنّ لـــهُ
مـــن النـــوى كـــلّ يـــومٍ مـــا يروّعُـــهُ
مـــا آبَ مـــن ســـفرٍ إلاّ وأَزعَجَـــهُ
رأيٌ إلـــى سَـــفَر بـــالعزم يزمعُـــهُ
كأنمـــا هـــو فـــي حـــلّ ومرتَحَـــلٍ
موكّـــلٌ بفضـــاء الله يذرعُـــهُ
ومـــا مجاهـــدةُ الإنســـان توصـــلُهُ
رزقـــاً، ولا دَعَـــةُ الإنســـان تقطعُـــهُ
قـــد وزّع اللهُ، بـــينَ الخلـــق رزقهُـــمُ
لـــم يخلـــق اللهُ مـــن خلـــق يضـــيعُهُ
لكـــنهم كلفـــوا حرصـــاً فلســـت تـــرى
مســـترزقاً وســـوى الغايـــات تقنعُـــهُ
إنَّ الـــزَمانَ أَراهُ فـــي الرَحِيـــلِ غِنـــىً

وَلَـــو إِلـــى السَـــدّ أَضـــحى وَهُـــوَ يُزمَعُـــهُ
تـــــأبى المطـــــامعُ إلا أن تُـــــجَشّمه
للـــــرزق كـــــداً وكـــــم ممـــــن يـــــودعُهُ
وَالمَهـــرُ يُعطِـــي الفَتـــى مِـــن حَيـــثُ يَمنَعُـــه
إِرثـــــاً وَيَمنَعُـــــهُ مِـــــن حَيـــــثِ يُـــــطمِعُهُ
والحـــرص فـــي الـــرزق – والأرزاقُ قـــد قســـمت
بغـــــيٌ ألا أن بغـــــيَ المـــــرء يصـــــرعُهُ"

وحكمتُهُ هذه لم تخرج من برج عاجي أو تنظير بارد، بل من مرارة التجربة وقد تقاذفته الأسفار كريشةٍ في مهب الرياح حيث المعاناة والأخطار وذل الغربة ووحشة الوحدة، ولهذا ندم أشد الندم على فراق زوجته المحبة المحبوبة فهو يتذكرها بوجد الثكلى.. يقول:

"اســـــتودع الله فـــــي بغـــــداد لـــــي قمـــــراً
بـــــالكَرخِ، مـــــن فلـــــكِ الأزرار مطلعُـــــهُ
ودّعتُـــــــهُ وبـــــــودّي أن يـــــــودّعني
طيـــــبُ الحيـــــاة وأنّـــــي لا أودّعُـــــهُ
وكـــم تشـــبَّث بـــي يـــومَ الرحيـــل ضـــحىً
وادمعـــــــي مســـــــتهلاّتٌ وأدمعُـــــــهُ
لا أكـــــذبُ الله ثـــــوبُ الصـــــبر منخَـــــرقٌ
عني بفرقتِهِ، لكن أرقّعُهُ يعني أقول الصدق بأنني
غيـــــــــــــــر صـــــــــــــــابر
إنّـــــي أوسّـــــعُ عـــــذري فـــــي جنايتِـــــهِ
بـــــالبين عنـــــه وجرمـــــي لا يوســـــعُهُ
رزقـــــت ملكـــــاً فلـــــم أحســـــن سياســـــتَهُ
وكـــــلُّ مـــــن لا يســـــوسُ الملـــــكَ يخلعُـــــهُ

ومـــن غـــدا لابســـاً ثـــوبَ النعـــيم بـــلا
شُـــــكرٍ عليـــــه، فـــــإنَّ اللهَ ينزعُـــــهُ"
اعتضـــتُ مـــن وجـــه خلّـــي بعـــد فرقتِـــهِ
كأســـاً أجـــرَّع منهـــا مـــا أجرّعُـــهُ
كـــم قائـــلٍ لـــي ذُقـــتَ البـــينَ؟ قلـــتُ لـــه:
الـــذنبُ والله ذنبـــي لســـتُ أدفعُـــهُ
ألا أقمـــتُ فكـــانَ الرُّشـــدُ أجمعُـــهُ؟
لـــو أننـــي يـــومَ بـــان الرشـــدُ أتبعُـــهُ
إنـــي لأقطـــعُ أيـــامي وأنفـــذها
بحســـرةٍ منـــهُ فـــي قلبـــي تُقَطِّعُـــهُ
بِمَـــن إذا هَجَـــعَ النُّـــوَّامُ بـــتُّ لـــهُ
– بلوعـــةٍ منـــهُ – ليلـــي لســـتُ أَهجعُـــهُ
لا يطمـــئنُّ لجنبـــي مَضـــجعٌ، وكـــذا
لا يطمـــئنُّ لـــه مـــذ بنـــتُ مَضـــجَعُهُ
مـــا كنـــت أحســـبُ أنّ الـــدهرَ يفجعنـــي
بِـــهِ، ولا أنّ بـــي الأيـــامُ تفجعُـــهُ
حتـــى جـــرى البـــينُ فيمـــا بيننـــا بيـــدٍ
عســـراءَ تمنعنـــي حظّـــي وتمنعُـــهُ
قـــد كنـــتُ مـــن ريـــب دهـــري جازعـــاً فرقـــاَ
فلـــم أوقَّ الـــذي قـــد كنـــتُ أَجزعُـــهُ
بـــالله يـــا منـــزلَ! العـــيش الـــذي دَرَسَـــت
ثـــارُهُ وَعفَـــت مُـــذ بِنـــتُ أربعُـــهُ
هـــلِ الزمـــانُ معيـــدٌ فيـــكَ لـــذَّتنا
أم الليـــالي التـــي أَمضـــتهُ ترجعُـــهُ؟
فـــي ذمَّـــة الله مـــن أصـــبحتَ منزلـــهُ
وجـــادَ غيـــثٌ علـــى مغنَـــاك يمرعُـــهُ

مَـــــن عنـــــدَه لـــــي عهـــــدٌ لا يضـــــيّعُهُ
لأصبِـــــرَنَّ لِمَـــــهرٍ لا يُـــــمَتِّعُنِي بِـــــه
وَلا بِـــيَ فِـــي حـــالٍ يُـمَتِّعُـهُعِلـماً بِـأَنَّ اِصـطِباري
تـــــــــــــــــعقِبُ فَرَجـــــــــــــــــاً
فَـــــأَضيَقُ الأَمـــــرِ إِن فَكَّـــــرتَ أَوسَعُـــــه
كمـــــا لـــــه عهـــــدُ صـــــدقٍ لا أُضـــــيّعُهُ
ومَـــــن يصـــــدِّع قلبـــــي ذكـــــرَهَ وإذا
جـــــرى علـــــى قلبِـــــهِ ذكـــــري يصـــــدّعُهُ
عســـــى الليـــــالي التـــــي أضـــــنت بفرقتنـــــا
جســـــمي، ســـــتجمعني يومـــــاً وتجمعُـــــهُ
وَإِن تُغِـــــلُّ أَحَـــــدَاً مِـــــنّا مَـــــنيَّتَهُ
فَمـــــا الَّـــــذي بِقَضـــــاءِ اللهِ يَصنَعُـــــهُ

٢ . عبد الرحمن صدقي

شاعر هذا الديوان هو عبد الرحمن صدقي، شاعر مصري ، ولد في المنصورة بمصر عام ١٨٩٦م ،لم يكمل تعليمه الجامعي ، عمل في وزارة المعارف ، ثم مشرفاً على دار الأوبرا ، صدر له بالإضافة إلى ديوانه من وحي المرأة ديوان حواء والشاعر ، توفي سنة ١٩٧٣م. كان عازفاً عن الزواج متحالفاً في هذا العزوف مع الكاتب اللامع عباس محمود العقاد ، ولكنه نقض هذا التحالف وتزوج، وأرسل إلى العقاد يحثه أن يفعل كما فعل:

هـــذي هديـــة عرســـي إلـــى فتـــى "عـــين شـــمس"
عـــدوى تثـــاؤب عمـــرو فـــي يومنـــا مثـــل أمـــس
أنعـــم بعـــدوى زواجٍ أعـــدى بحـــب وأنـــس
يا مبدعاً ما تأسى قد حان وقت التأسي

فأجابه العقاد:

لـــم يغـــن ترســـك شـــيئا فهـــل ســـينفع ترســـى

إذا تـــــزوج "صـــــدقي" فلســـت أضـــمن نفســـى

ولســـت أنجـــو ولـــو فـــي دار (المعـــرى) حبســـى

فاهنـــأ بعـــرس اختيـــار بعـــد اختبـــار ودرس

راضـــت شماســـك حبـــا والحـــب رائـــض شـــمس

وطوعتـــــك بســـــحرٍ مـــن عطفهـــا لا ببـــأس

لولا فضائل فيها ما كنت صاحب عرس

وكـان زواج عبـد الـرحمن صـدقي عـام ١٩٤٠م ، وأصـيبت زوجتـه بـالحمى وتوفيـت فـي ٢٩ /١/١٩٤٥م.

كل من يهبه الله حب القراءة والكتابة يتمنى أن يرزقه الله بزوجة تعينه على السير في هذه الموهبة، فمن هؤلاء من لا يوفق في أمنيته، فتثور المشاكل بينه وبين زوجته فيصبح (فيلسوفاً!)

أما شاعرنا عبدالرحمن صدقي فقد رزقه الله زوجة مثقفة محبة للقراءة شغوفة بها، لهذا كانت سعادته بها كبيرة وإعجابه بها عظيماً، وظهر ذلك كله في الديوان الذي خصصه لرثائها.

لم تعش معه أكثر من أربع سنوات، ولم تنجب له أطفالاً، ولكنها كانت له شريكاً معيناً في مواهبه ، فأشاعت في البيت جواً من الهدوء تناسب زوجين مثقفين.

القصائد التي أنشأها الشاعر في رثاء زوجه أربع وثلاثون قصيدة نظمها في شهر واحد، ابتداءً من اليوم الذي ماتت فيه إلى نهاية اليوم الثلاثين من هذا التاريخ.

ويكاد هذا التوافق الثقافي بين الزوجين أن يكون محور القصائد جميعها، لا تخلو قصيدة من الإشارة إليه، من أمثلة ذلك:

شريكة درسي، تلك أسفار مكتبي خرسن، وكانت في جوارك تنطق

فمالي للأسفار بعدك نهضة ولا متعة فيما يشوق ويرفق

ومثال آخر :

تنـــاغينني بالحـــب والكتـــب فمغنـــاك مـــن هـــذين مغنـــى

وحدنا ومكتب

وآخر :

تمثلتهـا قربـي تطـالع سـفرها وتشركني في علمها وتناظر

تمثلها وسني تغالب نومها فقـد طـال درسـي وهـي يقظـى

تساهر

وفي المعاني نفسها

حياتـك بـدع فـي الغـوانى النـواعم ولا بـدع فـي هـذى الحيـاة بسـالم

حياتـك كانـت كلهـا درس دارسٍ وحلـم مفـن شـاهد الحـس حـالم

سما بك درس عن مجانة ماجنٍ وألهـاك حلـم عـن سـآمة سـائم

فلـم تعرفـى لغـو الغـوانى وسـأمها وســأم الغــوانى مســلم للمــآثم

وقفت علـى التحصيل همة عـازم وزهـرة عمـرٍ أخضـر العـود نـاعم

وهمـك سـر الكـون والغيـب خلفـه ومعظـم هـم النـاس هـم البهـائم

وكنـت – إلـى هـذا – العـروب ولم يدر ما طعم الهوى مثل عالم

لزوجها

وأروع ما قاله في هذا المعنى هذه الأبيات:

فمـا حـاجتي علـم وشـعر وحكمـة ... وكيـــف، ويـــومي مســـتطار
وكيـف ، وكـل العلـم مـذكرنى بهـا ... عصبصـــــــــــــــــــــــب
وكيـف، وهـذا الشـعر كـان نشـيدنا ... ألـم تـك تغـرى بـالعلوم وتطلـب
وهــذى تــواريخ، وتلــك مشــاهد ... وذى صــفحة للفــن كنــا نقلــب
وتمتـدّ كفـى نحـو سـفرٍ أريـده ... عبرنـا بهـا سـيان شـرق ومغـرب
فهـذا كتـابي، رب ! هـذا كتابهـا ... فترجــع كالمــلدوغ مســته عقـرب
أفـانين بحـث أو متـون تفلسـفٍ ... قرأنـــاه نستقصـــي معـــاً وننقـــب
أيا زوجتي ، قد كنت حافظ مكتبي ... بهـن حـواشٍ، وهـى ذاك المعقـب
لمن أستجد الكتب في كل مطلبٍ ... وقارئـــه قبلـــي، ونعـــم المرتـــب
فكم من علوم كنت من نهم الحجى ... وقد كنت لا يعدو اهتمامك مطلب
تفوقـت تحصـيلاً وحسـن إفـادةٍ ... جهينتهـا، تـروين منهـا وأنغـب
وكنـت تـرجين الحيـاة لتقرئـى ... ولـم تكتبـي يومـاً وقـد كنـت أكتب
وحيـدان نسـتوحى الـدفاتر علمهـا ... إلى جانبي، والصنو للصنو يطرب
خلونا، وفي هذا التفرد أنسنا ... صـــموتان لا نلغـــو ولا نتغضـــب
وفي صمتنا نجوى الهوى والتحبب

ماتت زوجه بالحمى

وما ذكرت الحمى في الشعر إلا تذكرنا "حمى المتنبي" فقد وصف المتنبي الحمى التي أصابته وهو بمصر وفي ملك كافور وصفاً طار في الآفاق وأعجب به الأدباء من كتاب وشعراء، كما أعجب به من يتذوق الشعر ويطرب له، ولا زلنا حتى يومنا هذا نردد أبيات المتنبي في وصف حماه:

وزائرتـــي كـــأن بهـــا حيـــاءً ... فلـيس تـزور إلا فـي الظـلام
بـذلت لهـا المطـارف والحشـايا ... فعافتهـا وباتـت فـي عظـامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوســـــعه بـــــأنواع الســـــقام

ويصدق وعدها، والصدق شرٌّ، إذا ألقاك في الكرب العظام

إلى أخر هذا الوصف الموفق.

والمتنبي أوتي موهبة في الوصف لا يدانية فيها شاعر آخر، ولو زعم بعض الدارسين غير ذلك، وحتى وهو يصف البداوة ويقارن بينها وبين الحضارة وفق توفيقاً مطلقاً لازلنا ونحن نعيش بعده بأكثر من ألف عام نعجب به، ووصف شعب بوّان في شيراز وشعوره بالغربة هناك لا زال وصفاً سائراً على ألسنة المتأدبين.

والحق أن شعب بوان متنزه رائع، زرته قبل أربعين سنة، واستمتعت بجماله الأخاذ، وذكرت أبيات المتنبي في وصفه وأنا أتجول فيه:

نعود إلى الحمى ، فالمتنبي وصف شعوره الشخصي وهو يعاني آلام الحمى فأجاد ، أما شاعرنا عبد الرحمن صدقي فقد وصف آلام الحمى التي كانت تنتاب زوجه الشابة، وصفه وصفاً رائعاً لا يقل روعة عن وصف المتنبي إن لم يتفوق عليه، أقول هذا وأنا أواجه رهبة الاستماع إلى أكثر من عشرة قرون تقف فيها عبقرية المتنبي وصوته العالي يتحديان الشعر والشعراء على أمتداد هذه القرون ، وتقف قصيدته متحدية عجز عشرة قرون بشعرائها الأفذاذ عن معارضتها أو الأقتراب من روعتها .

وتالياً أعرض هذه اللوحة الشعرية الرائعة في وصف الحمى لرجل مفجوع بزوجه التي طال بحثه حتى وفق إليها، فتزوجها ولم يمر على هذا الزواج سوى أربع سنوات حتى سقطت صريعة الحمى.

أقرأ وتمتع لهذا الشاعر المفجوع يصف الحمى الغازية لجسد أحب الناس إليه ،وهو لم يضع لقصيدته عنوان "الحمى" بل كان العنوان "الواقعة" وهو عنوان دقيق لما يشعر به، وهو عنوان رائع لقصيدة رائعة.

الواقعة؟ ألا تذكرنا بقوله تعالى "إذا وقعت الواقعة" وأي هول أكبر من هول "الواقعة"؟!

أتى العام، فاستبشرت بالعام يطرق ... وقلـت كمـا قالـت: سـعيد موفـق

فلم يمض بعض الشهر إلا تبادرت ... غواشـي نـذير كالغياهـب تطبـق

ألمـت بهـا الحمـى عضـالاً ملحـةً ... تقـض وسـادينا معـاً وتـؤرق

فتُصـهد منهـا جسـمها ودماغهـا ... وتُصـهد قلبـي مـن لظاهـا وتحـرق

دعـوت لهـا الأفـذاذ فـي الطـب، ... وشـتى، ومَنْ غـربٌ نمـاه ومشـرق

جملـــــــــــــــــــــــــــــةً ... وقـد سـوروا دون الظنـون وخنـدقوا

فلـم يـأتلوا جهـداً ولا وجـه حيلـةٍ ... وأرسـل فـي إثـر الـدواء، وألحـق

نهـارى حيـران، ألاقـي أُسـاتها ... أراعـي إلـى أنفاسـها وأحملـق

وليلـي سـهران لصـيق فراشـها ... وأجهـش حتـى مـا يبـين منطـق

تقول بصـوتٍ قد تهضـمه الضـنى ... ولا تجزعـي، إن الشـفاء محقـق"

"أ أشفى؟" "أجل ياقرة العين لا تهي ... وبـين الرجـا واليـأس قلبـي مرهـق

مقالـــة ملتـــاع الجنـــان أقولهـــا ... تجلـي هـواه كلـه حـين يرمـق

وترمقنـي منهـا لـواحظ وامـقٍ ... وناظرهـا فـي نـاظريّ معلـق

نجرعهـا مـر الـدواء تسـيغه ... فترضـى، وهـذا جلـدها يتخـرق

وننحـي عليهـا إبـرة بعـد إبـرةٍ ... ولولاي ما كانت من الموت تفرق

تريد لتحيا، من رضاها بصحبتي ... يطـالعني منهـا – علـى السـقم –

وتحـرص أن تبـدو كعهـدي جميلـةً ... رونـــــــــــــــــــــــــــق

تعرقتَهـا يـاداء مـا شـئت جاهـداً ... ولكن حسن الروح في الوجه مشرق

إذا عُـرَواء الـداء فـارت برأسـها ... فليسـت –مـن الرجحـان– تهـذي

ولكـن قصـاراها إذا اشـتد برحهـا: ... وتحمـــــــــــــــــــــــــــق

تـردد "لا" فـي كـل حـين أبيـةً، ... "أيـا رب! لا أقـوى" بلحـنٍ يمـزق

ويغضبها أني – وقد ساء حالها – ... وعـيش الضـنى بـالرفض أحجـى

وتلمس أراداني، وتلهو بأصبعي وأليـــــــــــــــــــــــــــــق
وتوسعني لثماً، وتمسح خدها على النفس من شغلي بها لست
وما نسيتني في سباتٍ وصحوةٍ أشـــــــــــــــــــــــــــــفق
إلى أن تغشتها من الموت صرعة وتضغط كفي كفها وهي أرفق
فغاضت كما غاض الربيع، وإنما بخدي وكل بالدموعين مغرق
وقد ذكرتني وهي في النزع تشهق
مجدلة، والموت سهم مفوق
ربيعي بعد اليوم هيهات يورق

عندما نقرأ ما يصدر من دواوين نعجب لهؤلاء الذين يصدرونها وليست فيها قصيدة تُقرأ!!

وأخرى لا تكاد تجد من قصائدها التي يمكنك الإعجاب بها إلا القصيدة أو القصيدتين.

أما هذا الديوان، ديوان الشاعر عبد الرحمن صدقي "من وحي المرأة" فكل قصائده تُقرأ، وكل قصائده من الشعر العالي، ولو أرخيت لنفسي العنان لاخترت كل قصائده لأعرضها على القراء، ولأني أكتب مقالاً فلا بدلي أن أختار وأن أختصر في الاختيار.

قلت إن الشاعر نظم الديوان كاملاً في شهر، فتعجب منه أصدقاؤه وسألوه عن ذلك فقال:

تعجب أصحابي وطال سؤالهم يقولون لي : في كل يوم تُقَصِّد!
وما كان أغناهم عن القول لو دروا بأني طوال الليل يقظان مُسهد
وكنتِ عروسي في الحياة، فلا تني عروس قصيدي تلهمين وأُنشد

وعندما لامه أحبابه على هجرهم واختيار الوحدة والانصراف عن المجتمع قال:

تعجب هذا الناس أن لست أنقم على وحدتي فيهم، وأن لست أسأم
وما وحدتي؟ إني أعيش وزوجتي وإن غالها باغٍ من الموت مجرم

أعـيش وزوجـي خـاليين، ألـم يكـن هواهــا بــأن نخلــو معــاً نــتكلم!
أمــا همسـت فــي النــزع " (كنـت وكان المنى أني بقربك أهرم)!
سعيدة

وأختم قراءتي في هذا الديوان بأولى قصائد الشاعر التي تفجرت بها عواطفه وصاغها كلمات تنطق بالفجيعة والألم، وكان ذلك بعد ليلة واحدة من موت زوجه

كــان لــي فــي أخريــات الــ ـــعمر بيـــت فعدمتـــه
ســـــنوات أربـــــع؟ أمْ كـــان ذا حلمـــاً حلمتـــه
ليتـــه طـــال ، ولـــو طـــا ل لمـــا كنـــت ســـئمته
زوجتـــي صـــنوي ، ومـــا لـــي غيرهـــا صـــنو علمتـــه
هـــي لـــم تـــنقم علـــى نقـــ ـــصى ، ولا شـــيء نقمتـــه
همهـــا همـــي، فـــلا تعـــز م إلا مـــا عزمتـــه
همنـــا الـــدرس، ومـــا تفهمـــه منـــه فهمتـــه
نظمـــت بـــالعطف والتقـــ ـــكير عيشـــي ونظمتـــه
وارتضـــينا مـــن لقانـــا عوضـــا عمـــا حرمتـــه
برهـــة، وانتبـــه الدهـــ ـــر فعفـــى مـــا رســـمته
أتـــرى الرضـــوان ذنـــ ـــباً أَثِمتـــه وأَثِمتُـــه؟
أحـــرام أن ســـعدنا؟ أم خبـــال مـــا زعمتـــه؟
كل ما أعرف أني كان لي بيت عدمته

٢- أنات حائرة

شاعر هذا الديوان هو عزيز أباظة

ولد عزيز أباظة عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) وتوفي عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣) وهو من رجال الأدب واللغة والقضاء، يحمل شهادة الحقوق منذ عام ١٩٢٩م عمل في المحاماة ، كما عمل مدعياً عاماً ، وقاضياً، وحاكماً عسكرياً لمنطقة قناة الويس، ومديراً لمديرية أسيوط، واختير عضواً بمجلس الشيوخ بمصر .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمجمع العلمي العراقي ببغداد.

وعزيز أباظة وريث أحمد شوقي في المسرح الشعري ، كتب المسرحيات التالية:قيس ولبنى، العباسة، عبد الرحمن الناصر، شجرة الدر، أوراق الخريف، قافلة النور، قيصر، زهرة.

وله ديوان كامل في رثاء زوجته: "أناث حائرة" وهو موضوع دراستنا في هذا البحث.

توفيت زوجه عام ١٩٤٢ بعد أن عاشت معه سبعة عشر عاماً وأنجبت له بولد وبنتين، ومن المفيد أن نعلم أن اسم زوجته "زينب" وأنه في كل قصائد الديوان يناديها مرخمة " يا زَيْنَ" والترخيم حذف آخر حرف في الاسم المنادى .

قصائد الديوان قيلت في جوين مختلفين : بعد موت الزوجة، وفي أثناء رحلته إلى حج بيت الله الحرام.

بعد الصدمة أفاق على عالم جديد وحقائق جديدة.

أفاق على بيت غابت عنه مدبرته، وعلى ثلاثة أبناء، ولد وبنتين، وهو غارق في أعماله وأسفاره.

استمع إليه يخاطب أبناءه : (لقد كان لكم في يوم من الأيام بيت ناعم سعيد.... ولقد كانت لكم أم تجمعكم إليها. وتضمني وأياكم تحت جناحيها، ومذ ذهبت أمكم – رضى الله عنها وأرضاها – تجهم لنا الدهر ، ونبت بنا الدار، فإذا نحن متفرقون متباعدون.

ولهذا نسمعه يقول يخاطباً زوجه الراحلة:

يـــا أخـــت ذى الرونـــق وعـدل نفسـي مـن الـدنيا وأولادي
الموشـــيّ مـــن عمـــري وذاقـه فـي ربيـع العمـر أكبـادري
قد ذقت بعدك يتماً حز في نختال في نشوةٍ منها وإسعاد
كبـــــــــــــــــدي
كنـــا علـــى أيكـــة الـــدنيا
ورفرفها

ثم يذكر أيام السعادة معها:

والـــدار حاليـــة تزهـــو بربتهـــا كما ازدهى بالنمير السلسل الوادي
تضـمنا بجنـاحي رحمـة وهـدى كـالطير تخشـى علـى أفراخهـا
مُنىً تراءت فلما نلتها انقشعت العـــــــــــــــــــــادي
وخلفتني لبرحٍ رائح غاد

ويذكرها في يوم ميلاده، وكانوا يحتفلون به كل عام

أقـول والقلـب فـي أضـلاعه شـرق بالـدمع، لا عـدت لـي يـا يـوم
قـد كنـت فيمـا مضـى عيـداً فمـذ مـــــــــــــــــــــيلادي
ذهبـــــــــــــــــــــت أصـبحت أشـقى بأيـامي وأعيـادي
كـأن مـا غـاض مـن نعمائنـا نغـم مـا كـاد يفـرغ مـن تجويـده الشـادى
لو قد علمتَ بما أذكيت من شجنٍ لجئت تبكى دماً يا يوم ميلادى

ثم إنه زارها (بل زار قبرها) لأول مرة بعد موتها، فبكاها وأثنى عليها وقال :

وقفـت أناديهـا وأهتـف باسـمها وألحـف ، حتـى أوشـكت تـتكلم
وقلت لها: (يا زين) ما من فجيعةٍ تعـــاظمني إلا وفقـــدك أعظـــم

فأنــت لعينـــي مــذ تراءتــك قــرةٌ ... وأنــت لنفســي مــذ تملتــك تــوأم
وحبـب فيـك الـنفس عليـا خلائـقٍ ... إذا لــم تحببهــا الوشــائج والــدم
سـأكرم أكبـاداً تركـت فـإن أمـت ... فــإن إلــه النــاس بالنــاس أكــرم
عليــك ســلام الله "يــا أم واثــق" ... ووآلاك مــن جــدواه هتــان يــثجم
سيبكيك ، لا يقنى دموعاً ولا دماً ... مدى العمر، مكلوم الجوانح أيم

ثم أخذ يتراءى لـه طيفها في كل مكان حلا به، فيثير المكان في نفسه ذكريات مضت وأحلاماً تقضت ، وتثور نفسه الحزينة، وتتخيل أنها تسائله إن كان سيتزوج بعدها؟

أعرفتنـــي يــا دار؟ أم أنكرتنـــي ... نهـــب الأســـى والبـــث والآلام
أسـوان تهـوي نفسـه مـن وحشـة ... وتلــدد، فــي مثــل بحــر طــام
يـا دار قـد مـال الزمـان بأنسـنا ... وهــوى بمونــق شــملنا الملتــام
يــا أخــت آمــال الصــبا ومراحــه ... والضـاحك النشـوان مـن أحلامـي
إن تبعـدي فأنـا المقـيم بلاعجـى ... ومــودتي حتــى يحــين حمــامي
" يــا زيــن" والــدينا تغيــر أهلهــا ... والنـــاس رهـــن تقلـــب الأيـــام
أقسمت لا آوى لغيرك خلة ... عهدي إليك على المدى وذمامي

ويقول معبراً عن شدة قربها من قلبه وبليغ تأثيرها في يوم رحلت:

يــا مــلاذي إذا أفتقــدت مــلاذي ... وصـــديقي إذا تجنـــى صـــديقي
كيف خلفتني ، وقد كنت روحاً ... وسلاماً، أصلى عذاب الحريق

ويقول في هذا المعنى نفسه

ذكرتــك عنــد كــل جليــل أمــر ... وكــل يســيره، فبكيــت نفســي
إذا سكب الصباح فأنت همي ... وإن سكن المساء فأنت أنسي

وكانت زوجه تحنو على اليتامى ، وتحسن إليهم ، وعندما مات أخواها ضمت أولادهما إليها، ورعتهم وأحسنت إليهم ، وعن هذا يقول :

ذكرتك (زين) في دمع اليتامى ... وقد فقدوا بك الكهف الحفيا
بنو أخويك ذاقوا اليتم مراً ... وفي حضنيك ذاقوه شهيا
وكنت لهم غداة الروع أماً ... مفديةً وكنت أباً كفيا
سكبت عليهم الأمن المصفى ... وخفض العيش والعطف النديا
وما أنساك كالئةً نهاراً ... إذا وعكوا، وحاضنة عشيا
نسوا في ظل صدرك كل داءٍ ... ويجمع صدرك الداء الدويا
بكيت لهم إذا ضاقوا بأمرٍ ... فلم يجدوك ، فانفجروا بكيا
وما لاقيتهم إلا حزيناً ... ووالهة ومفئوداً شجيا
إذا اجتمع الشباب إلى مراح ... وأنس بينهم ، خلصوا نجيا
لقد كانت بيوتك جامعات ... وكان الشمل ملتئماً سوياً
فأضحت بعدك انهدمت عليهم ... كغض الطرف وانهدمت عليا
تخذتك في حياتي كل شيء ... فلما بنت ما أبقيت شياً

والزوجة الصالحة ملاذ زوجها، يبثها ما يلاقي من صعاب في مسيرة الحياة، وقد كثرت الشكوى من ذوي القربى في الشعر العربي، وهي شكاة ممتدة من الشعر الجاهلي حتى الشعر المعاصر، وإلى هذا الجانب من الشعر العربي في الشكاة من ذوي القربى ألقت انظار الدارسين.

ولم يخل شعر عزيز أباظة من هذا المنحى وهو يتذكر زوجه بعد مماتها:

فديتك ... من أطالعه بهمي ... ومن أشكو له بثاً وحزناً؟!
ومن أفضي له بحديث نفسي ... ونجواها إذا ما الليل جنا؟!
ومن في أذنه يا زين همسي ... إذا عم جفا، وأخ تجنى

وفي وضوح يقرر الشاعر بأن زوجته يجتمع فيها كل من يحب ، أو كل من يفترض فيهم أن يحبوه:

فقــدتك زوجـــة ؛ وأخـــا؛ وأختـــا ... وأمـــــاً بـــــرةً ، وأبـــــاً، وخـــــدنا
وناصـــحة تـــزفً الـــرأي فصـــلاً ... إذا مـــا أوجـــه الـــرأى اصـــطرعنا
وكنـت ، إذا جهلـت، بـذلت حلمـاً ... فعـــدت إليـــك معتـــذراً معنـــى
وكنـــت ، إذا حرجـــت، وضـــاق ... ســـكبت عليـــه أنســـك فاطمأنـــا
صـــــــــــــــــــــــــــــــدرى ... وذكرك في الجوانح ليس يفنى
ستفنى ذكريات الخلق عندي

عزيز أباظة شاعر ذو انتماء إلى دينه، يحب أن يؤدي فرائضه كما أُمر بها، والحج عند المسلم الحق أمنية وهدف، وكذلك يبدو في أشعار شاعرنا، ويبدو أنه كان يمني النفس بالحج مع زوجه الوفية، ولكن الزمن تراخى، ورحلت الزوجة دون أن تحج، فعزم هو أن يحج وأن يصحب معه من يحج عن زوجته.

يعبر عن هذه الأمنية فيقول :

أقـول وقلبـي سـابح فـي شـجونه ... وجفنـــي بمنهـــل الـــدموع غريـــق
هـل الله يهـديني إلـى حـج بيتـه ... فـــإني لنـــزاع إليـــه مشـــوق
لـئن حقـق الله الأمـاني لـم أبـت ... بـــأم القـــرى إلا وأنـــت رفيـــق
يـؤدي جليـل الفـرض عنـك موفـق ... أمـين علـى العهـد الوثيـق وثيـق
لعلى إذا جئت المحصب من منى ... وطوفـــت بالبيـــت الحـــرام أفيـــق
أفيق من الخطب الذي جل إصره ... الا كل خطب دونه لدقيق

ثم إن الله حقق له ما تمنى، فطاف واعتمر وزار الرسول ، وتنقل بين المعالم الكبرى للحج والزيارة ، وأنشأ في كل ذلك شعرا، وذكر زوجه في كل قصيدة متذكراً مترحماً داعيا....

قصائد الحج، كما يحلو لي أن أُسميها، تشكل أكثر من نصف قصائد الديوان، وعناوينها كما يلي: في بطحاء مكة، على عرفات، في عوالي مني، في أيام التشريق، على قبر خديجة، وحي يثرب، أُحد ، ساعة في البقيع.

فأنت ترى: أنها تسع قصائد فإذا أضفنا إليها قصيدة "أشجان رمضان" وهي من وحي الإيمان أيضاً أصبحت القصائد عشراً ، وكلها من المطولات ، يتنقل الشاعر في كل هذه الربوع، ويقول شعراً رائقاً ، وفي كل قصيدة يذكر زوجته أو يتذكرها ، ويلح على فضائلها وتمسكها بعرى الإيمان.

في ختام قصيدته "أشجان رمضان" يقول :

يا زين إن ثقل الوفاء على الورى ... فتصابئوا عن شرعه المسنون

فأنا المقيم وفاؤه ووداده ... عهدي إليك على المدى ويميني

ويقول في قصيدة "على عرفات" :

ذكرتك يوم النفر والدمع ساجم ... على عرفات والنزاع عرام

فأجهش قلبي جهشة راح بعدها ... وفيه مراح للضنى ومسام

وأنكر أصحابي بكائي ولوعتي ... وقالوا: أتبكيها وأنت حرام؟

بكيت لها أن لم تقف وقفة الرضا ... على عرفات والحجيج قيام

ولم تتطرف بالعتيق ولم تفض ... إلى روضة الهادى عليه سلام

وفي قصيدة "في عوالي منى" يقول :

عليك سلام الله (يا أم واثقٍ) ... تحية مقروح بكاك فبيَّنا

مكانك في بيتي مصون ومهجتي ... وذلك عهد الله (يا زين) بيننا

وفي قصيدة "أيام التشريق" يقول:

ولقد ذكرتك في ثلاث منى ... بالمـــأزمين فعقنـــي صـــبري
همـت الـدموع وأجهشـت كبـدي ... وتـرنح المسـكين فـي صـدري
وذكـــرت عزمـــك غيـــر وانيـــة ... والعـزم لـم يعطـل مـن الأجـر
فجعلـــت أســـتأنيك معتـــذراً ... بممـــــوه رث مـــــن العـــــذر
لـــم أنـــس قولـــك جـــد عاتبـــةٍ ... فـــي أدمـــعٍ تنهـــل كـــالقطر
هبني انتظرت لقابل أترى ... يطوى الزمان لقابلٍ عمري؟

وفي قصيدة "وحي يثرب " يقول

ذكرت التي كانت تمنى لو أنها ... تناهت إلى روض الرسول ركابها
دعتني فلم أطلب، وثنت فلم أجب ... فكـــان بكـــاء القانتـــات عتابهـــا
وقلـــت لهـــا فـــي قابـــلٍ فتهللـــت ... فمـــا إن دنـــا حتـــى دهانـــا ذهابهـــا
وددت بعيني لو أجبت طلابها ... وكان يسيراً أن يجاب طلابها

وأريد أن أختم الحديث عن هذا الجانب الإيماني في شعر عزيز أباظة ، بهذه الأبيات الفريدة الرائعة التي أنشدها الشاعر للمدينة المنورة (يثرب)

على يثرب منا سلام ورحمة ... كموشـــيّ أنـــداء الصـــباح
كفاهـــا ســـنى أن البقيـــع ترابهـــا ... أنســـــــــــــــــــــــكابها
وأن شفيع المرسلين رسولها ... وأن قبـــاب الروضـــتين قبابهـــا
وأن كتاب العالمين كتابها

وفي الديوان قصيدة من روائع الشعر ، يعارض فيها الشاعر قصيدة ابن زيدون الشهيرة "أضحى التنائي".

ولعل المناسبة التي شدت شاعرنا إلى قصيدة ابن زيدون هي الفقد، فقد ابن زيدون لمحبوبته (ولادة) ، وفقد عزيز أباظة لمحبوبته وزوجته (زينب).

وحين يقرأ القارئ هذه القصيدة يعيش في الجو الموسيقي لقصيدة ابن زيدون كما يحيا في جو الصلات الحميمة التي ظللت قصيدة ابن زيدون.

وفي رأيي أن القصيدة التي تستحق الخلود هي القصيدة التي حباها الله موسيقى متفوقة، ومعاني إنسانية عميقة، وعاطفة مشبوبة وخيالاً محلقاً، وقد نالت قصيدة ابن زيدون كل هذا ، وفي قصيدة عزيز أباظة كثير من هذا.

يقول عزيز أباظة في واحد من مقاطع هذه القصيدة:

نكاد من بهجة اللقيا وروعتها ... نرى الدنا أيكة، والدهر بستانا
ونحسب الكون عش اثنين يجمعنا ... والماء صهباء؛ والأنسام ألحانا
والعمر وصلاً، وآمالاً مذللة ... والغيب مؤتلق الآفاق مزدانا
لم نعتنق وذهول العرس يغمرنا ... وكم تعانق روحانا وقلبانا
ثم انثنينا وما زال الغليل لظى ... والوجد محتدماً، والشوق ظمآنا

ويقول في مكان آخر من القصيدة:

أشكو إلى الله بأساً ما أطيق ... حملاً ، وبثاً؛ وأحزاناً،
له ... وحرمانا
أشكو إليه وفاء قر في كبدي ... وخالط الدم شرياناً فشرياناً
فإن جنحت إلى السلوان أوسعني ... عتباً ، وضم إلى النيران نيرانا

ويختم القصيدة بهذين البيتين المحلقين:

ولا تمنيــت إلا أن تســالمني فيـك الـدنا يـا أحـب النـاس

قد كنت حسبي منها لو سلمت إنســـــــــــــــــــــانا

لنا وزالت الأرض بلداناً وقطانا

وبعد ، هذا ديوان "أناث حائرة" وهو ديوان من الشعر العالي ، المفعم بالعاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الزوجية التي وفقت إلى الانسجام والود والهدف المشترك ، عبر فيها عزيز أباظة عن عاطفته الخاصة نحو زوجته، وهي العاطفة نفسها التي تلف زوجين التقيا على طاعة الله وعلى الحب الصافي في هذه الحياة الدنيا.

٣- دموع لا تجف

ولد الشاعر طاهر أبو فاشا في دمياط بمصر عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وتوفي عام ١٤٠٩ (١٩٨٩م).

درس في دار العلوم بجامعة القاهرة، نال شهادتها عام ١٩٤٠ ، وعمل بعدها في سلك التدريس وبوظائف حكومية أخرى.

قدم عدة مسلسلات إذاعية كانت سبباً في شهرته .

له الدواوين الشعرية التالية:

١- صوت الشباب.

٢- القيثارة السارية.

٣- الأشواك.

٤- راهب الليل.

٥- الليالي.

٦- دموع لا تجف.

ثم جمعت هذه الدواوين في مجلد واحد.

صدرت الطبعة الأولى من ديوانه "دموع لا تجف" عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧م، وهو في رثاء زوجته (ناز لي المهدي) المتوفية في ١٩٧٩/٩/٢٩م كما أثبت ذلك في مقدمته.

الديوان من الحجم الصغير، فيه تسع قصائد، والقصائد أيضاً من الحجم الصغير (قصيرة النفس) بعضها من شعر الشطرين، وبعضها الآخر من شعر التفعيلة.

وإذا قارنا بين هذا الديوان والديوانين، السابقين (من وحي المرأة وأناث حائرة) لوجدنا فروقاً كثيرة، أهمها الفارق الكبير في حجم الديوان، وفي حجم القصائد، ثم التباين الواضح في الالتزام الموسيقي، فقد التزم الديوانان بشعر الشطرين أما هذا الديوان فقد نوَّع.

وهناك فارق آخر يتجلى في المستوى الفني بينهما وبينه.

ولعل من حسنات هذا الديوان أنه في رثاء زوجته، وظاهرة رثاء الزوجات في دواوين مستقلة ما شاعت أو ما أصبحت ظاهرة إلا لدى الشعراء المعاصرين.

وأنا أقرّ أن هناك فوارق ظاهرة بين الدواوين الثلاثة في منحى التناول، فعبد الرحمن صدقي الذي حلق في قصائده وأبدع وأطال نظم هذا الديوان الكبير في شهر واحد، وعزيز أباظة الذي حلق وأبدع أيضاً نظم الديوان في سنة وأطال الديوان والقصائد ، ونحا فيها منحى الإيمان، وربط بين هذا الإيمان وشعائر الإسلام ، ومثله العليا، أما طاهر أبو فاشا فإن قصائده على قلتها وقصرها – استغرق نظمها سبع سنوات إذا استدللنا بتاريخ الإهداء كمحطة أخيرة للنظم!

استخدم الشاعر "الكأس" كرمز في أكثرمن قصيدة، واستنجد في بعضها بمتعلقاتها حتى يوصل فكرته.

في المقدمة قال: هذه دموعي ، أنشرها وأطويها، وأجد نفسي فيها، إنها (الكأس) التي أهرب إليها كلما عاودتني مغارب الوحشة، وكلما أثقل عليّ صمت الوحدة بعد أن رحلت شريكة الحياة، وتركتني (أعاقر) الدمع وحدي.

إذا فالكأس هنا كأس الدموع ، واستعار لها كلمة (أعاقر) حتى يطعي ظلاً من الاندماج الذي يشعر به (معاقر الخمرة)!

والقصيدة الأولى في الديوان "قلت للكأس" يبدؤها بقوله:

قلت للكأس والليالي غريمي أين يا كأس كرمتي ونعيمي
جمع الليل (شاربيها) فمالي لا أرى بين شاربيها (نديمي)

والاستعارات هنا كلها من مجالس الشراب: الكأس (الدموع)، الكرمة (المنزل) الشاربين (الحزاني)، نديمي (زوجتي).

ثم ينتهي إلى الحكمة:

في رنين الكؤوس حارت عقول فهي في لحظة اللقاء تقول:
هكذا عيشنا لقاء قليل وفراق من بعد ذاك يطول

وعندما أقرأ هذين البيتين الأخيرين أشعر كأنني في حضرة عمر الخيام، ولعل شاعرنا في هذه القصيدة حاول أن يكون خياماً آخر.

ومثلما تأثر أبو فاشا بالخيام وحاول أن يحاذيه، فعل مثل ذلك مع الشاعر متمم بن نويرة في رثائه لأخيه مالك ، ولعل رثاء متمم لأخيه مالك من أبلغ وأعمق قصائد الرثاء في الشعر العربي، وفي قصائده أبيات سائرة، مثل قوله:

تقول:أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلــت لهــا إن الأســى يبعــث دعيني فهذا كله قبر مالك

الأسى

ولم يتتبع أبو فاشا أبيات متمم فقط، بل جعل عنوان قصيدته : كله قبر مالك!

والقبـــــور التـــــي أرى كـــل قبـــر مشـــاركي

فيـــــه ذكـــــرى وحولـــــه حســـــرات الهوالـــــك

لا تقل أين قبرها كله قبر مالك!

والقصائد مليئة بالإشارات والتصريحات التي تؤكد شيوع المحبة بين الزوجين، يثبتها الشاعر مبرراً بين يدي حزنه الكبير على فراقها ،استمع إليه بخاطبها بعد موتها:

لقــد كنــت ظــلاً أفــيء إليــه وأهــرب مــن يــومي المرهــق

وقــد كنــت أمنــاً لروحــي ممــاً أخـــاف أذاه ومـــا أتقـــى

وقــد كنــت قلبــاً كبيــر المنــى لغيـــر المحبـــة لـــم يخلـــق

وقد كنت روضاً، تخايل عيني مخايـــل مـــن ســـحنة الريـــق

وكنــت هتوفــاً تنــاغم ســمعي بلحــنٍ مــن الخلــد لــم يســبق

وكنــت قصــيداً جديــد الــرؤى شـــجياً معانيـــه لـــم تطـــرق

وكنت وكنت وكانت لنا عوالم من روحك المغدق

وفي مكان أخر يقول:

فياليت أن الله حين قضى بما قضاه ، طواني فاحتوانا معاً رمس!

ثم : هل من زواج بعد فراقها؟

يقولون لي : هلا تزوجت بعدها؟ وهل بعدها بعدّ، وهل قبلها قبلُ

يتغير الزمان وتتغير الأعراف ، ومعهما يتطور الشعر والشعراء فهذا زمان الاعتراف بموقع المرأة وبتأثيرها الاجتماعي ، وبموقفها من نفس زوجها ووجدانه.

هل هذه الدواوين التي اقتصرت على رثاء الزوجات دليل على احتلال المرأة لمكانتها اللائقة ،وأن عصرنا هذا عصر المرأة؟

وإلى من يعرضون عن الزواج ويؤخرونه لسبب أو لآخر كعدم الرغبة في تحمل مسؤولية الزواج أو اللهو أو الإعتقاد بأن حبال الحياة ممدودة إلى أجل غير مسمى ، أو البحث عن الزوجة التي لاتوجد إلا في الخيال، أو الخوف من تبعات الزواج ، نقول لهم توكلوا على اللهولاتؤخروا الزواج دون مبرر ، وطبقوا سنة الله في الزواج ، فإن غيركم جرب العزوبية المديدة ،ولكنه وجد أنها طريق مسدود ، فسارع إلى الزواج ليتماشى فعلك مع الطبيعة التي فطره الله الناس عليها، وسأروي لكم ماحدث مع الشاعر المصري عبد الرحمن صدقي ، كمثال على قصر فترة السعادة الزوجية بتاخير سن الزواج،والشاعر عبدالرحمن صدقي شاعر من مصر ،وقد ولد في المنصورة عام ١٨٩٦م ولم يكمل تعليمه الجامعي ، فعمل في وزارة المعارف ، ثم عمل مشرفاً على دار الأوبرا. وكان في بداية حياته عازفاً عن الزواج متحالفاً في هذا العزوف مع الكاتب المعروف عباس محمود العقاد ، ولكنه أدرك خطأه فنقض هذا التحالف وتزوج عام ١٩٤٠م ، وكتب إلى العقاد مبرراً سبب نقضه للعهد بينهما ونظم أبياتاً يحثه فيها على الزواج فقال:

هـــــــــذي هديـــــــــة عرســـــــــي
إلـــــــى فتـــــــى "عـــــــين شـــــــمس"
عـــــــدوى تثـــــــاؤب عمـــــــرو
فـــــــي يومنـــــــا مثـــــــل أمـــــــس
أنعـــــــــــم بعـــــــــــدوى زواجٍ
أعـــــــــدى بحـــــــــب وأنـــــــــس
يـــــــا مبـــــــدعاً مـــــــا تأســـــــى
قـــــــد حـــــــان وقـــــــت التأســـــــي
فأجابـــــــه العقـــــــاد قـــــــائلاً:

لـــــــم يغـــــــن ترســـــــك شـــــــيئا
فهـــــــــل ســـــــــينفع ترســـــــــى
إذا تـــــــــــــزوج "صـــــــــــــدقى"
فلســـــــــت أضـــــــــمن نفســـــــــى
ولســـــــــت أنجـــــــــو ولـــــــــو فـــــــــي
دار (المعـــــــــــــرى) حبســـــــــــــى
فاهنـــــــــأ بعـــــــــرس اختيـــــــــار
بعـــــــــــــد اختبـــــــــــــار ودرس
راضـــــــــــت شماســـــــــــك حبـــــــــا
والحـــــــــب رائـــــــــض شـــــــــمس
وطوعتـــــــــــــك بســـــــــــــحرٍ
مـــــــــن عطفهـــــــــا لا ببـــــــــأس
لـــــــــولا فضـــــــــائل فيهـــــــــا
مـــــــا كنـــــــت صـــــــاحب عـــــــرس

وفعلاً كان سعيداً في زواجه وقد رزقه الله زوجة مثقفة محبة للقراءة شغوفة بها، لهذا كانت سعادته بها كبيرة وإعجابه بها عظيماً ووجد السعادة المفقودة التي كان يبحث عنها ، فأشاعت تلك الزوجة في بيته جواً من السعادة والهدوء الذي يناسب زوجين مثقفين .ولكنها سعادة متأخرة لأن الأقدار كانت لهما بالمرصاد ،إذ لم تنجب له أطفالاً ثم أصيبت بالحمى ولم تعش معه أكثر من أربع سنوات، وتوفيت في٢٩ /١٩٤٥/١م. فحزن عليها حزناً شديداً وظل يعيش على ذكراها متمنياً أن يكون قد تزوج منذ أمد بعيد حتى يعيش بسعادة لم يسعفه الوقت ليعيش في نعيمها ،فأنشأ أربعاً وثلاثين قصيدة نظمها في شهر واحد في رثاء زوجته الحبيبة، ابتداءً من اليوم الذي ماتت فيه ،قال في إحداها:

شـــــريكة درســـــي، تلـــــك أســـــفار مكتبـــــي
خرســـــن، وكانـــــت فـــــي جـــــوارك تنطـــــق
فمـــــالي للأســـــفار بعـــــدك نهضـــــة

ولا متعـــــــة فيمـــــــا يشـــــــوق ويرفـــــــق
ومثـــــــــــــــال أيضـــــــــــــــاً :
وفـــــــــــي المعـــــــــــاني نفســـــــــــها
حياتـــــك بـــــدع فـــــي الغـــــوانى النـــــواعم
ولا بـــــدع فـــــي هـــــذى الحيـــــاة بســـــالم
حياتـــــــك كانـــــــت كلهـــــــا درس دارسٍ
وحلـــــم مفـــــن شـــــاهد الحـــــس حـــــالم
ســـــما بـــــك درس عـــــن مجانـــــة مـــــاجنٍ
وألهـــــاك حلـــــم عـــــن ســـــآمة ســـــائم
فلـــــم تعرفـــــى لغـــــو الغـــــوانى وســـــأمها
وســـــــأم الغـــــــوانى مســـــــلم للمـــــــآثم
وقفـــــت علـــــى التحصـــــيل همـــــة عـــــازم
وزهـــــرة عمـــــرٍ أخضـــــر العـــــود نـــــاعم
وهمـــــك ســـــر الكـــــون والغيـــــب خلفـــــه
ومعظـــــم هـــــم النـــــاس هـــــم البهـــــائم
كنـــــت – إلـــــى هـــــذا – العـــــروب لزوجهـــــا
ولـــــم يـــــدر مـــــا طعـــــم الهـــــوى مثـــــل عـــــالم

وأروع مـا قالـه فـي هـذا المعنـى هـذه الأبيـات:

فمـــــا حـــــاجتي علـــــم وشـــــعر وحكمـــــة
وكيـــــف، ويـــــومي مســـــتطار عصبصـــــب
وكيـــــف ، وكـــــل العلـــــم مـــــذكرنى بهـــــا
ألـــــم تـــــك تغـــــرى بـــــالعلوم وتطلـــــب
وكيـــــف، وهـــــذا الشـــــعر كـــــان نشـــــيدنا
وذى صـــــــفحة للفـــــــن كنـــــــا نقلـــــــب

وعندما لامه أحبابه على هجرهم واختيار الوحدة والانصراف عن المجتمع قال:

تعجـــــب هـــــذا النـــــاس أن لســـــت أنقـــــم
علـــــى وحـــــدتي فـــــيهم، وأن لســـــت أســـــأم
ومـــــا وحـــــدتي؟ إنـــــي أعـــــيش وزوجتـــــي
وإن غالهـــــا بـــــاغٍ مـــــن المـــــوت مجـــــرم
أعـــــيش وزوجـــــي خـــــاليين، ألـــــم يكـــــن
هواهـــــا بـــــأن نخلـــــو معـــــاً نـــــتكلم!
أمـــــا همســـــت فـــــي النـــــزع " (كنـــــت ســـــعيدة
وكـــــان المنـــــى أنـــــي بقربـــــك أهـــــرم)!

وحينما مضى شهر نظم فيه الديوان كاملاً ، تعجب منه أصدقاؤه وسألوه عن ذلك فقال:

تعجـــــب أصـــــحابي وطـــــال ســـــؤالهم
قولـــــون لـــــي : فـــــي كـــــل يـــــوم تُقَصِّـــــد!
ومـــــا كـــــان أغنـــــاهم عـــــن القـــــول لـــــو دروا
بـــــأني طـــــوال الليـــــل يقظـــــان مُســـــهد
وكنـــــتِ عروســـــي فـــــي الحيـــــاة، فـــــلا تنـــــي
عـــــروس قصـــــيدي تلهمـــــين وأُنشـــــد

وقد تفجرت عواطفه بعد موت زوجته فصاغ كلمات تنطق بالفجيعة والألم بعد ليلة واحدة من موت زوجه فقال :

كـــــان لـــــي فـــــي أخريـــــات ألـــــ
ـــــعمر بيـــــت فعدمتـــــه
ســـــنوات أربـــــع؟ أمْ
كـــــان ذا حلمـــــاً حلمتـــــه
ليتـــــه طـــــال ، ولـــــو طـــــا
ل لمـــــا كنـــــت ســـــئمته

زوجتـــــــي صـــــــنوي ، ومـــــــا لـــــــي
غيرهـــــــــا صـــــــــنو علمتـــــــــه
هـــــــي لـــــــم تـــــــنقم علـــــــى نقـــــــ
ـــــــصى ، ولا شـــــــــيء نقمتـــــــــه
همهـــــــا همـــــــي، فـــــــلا تعـــــــز
م إلا مـــــــــــــــا عزمتـــــــــــــــه
همنـــــــــا الـــــــــدرس، ومـــــــــا
تفهمـــــــــه منـــــــــه فهمتـــــــــه
نظمـــــــــت بـــــــــالعطف والتفـــــــــ
ـــــــكير عيشـــــــــي ونظمتـــــــــه
وارتضـــــــــينا مـــــــــن لقانـــــــــا
عوضـــــــــا عمـــــــــا حرمتـــــــــه
برهـــــــــة، وانتبـــــــــه الدهـــــــــ
ـــــــر فعفـــــــى مـــــــا رســـــــمته
أتـــــــــرى الرضـــــــــوان ذنبـــــــــا
أَثِمتـــــــــــــــه وأثِمتُـــــــــــــــه؟
أحـــــــــــــــرام أن ســـــــــــــــعدنا؟
أم خبـــــــــال مـــــــــا زعمتـــــــــه؟
كـــــــل مـــــــا أعـــــــرف أنـــــــي
كـــــــان لـــــــي بيـــــــت عدمتـــــــه

ووصف هذا الشاعر المفجوع الحمى الغازية لجسد زوجته وصفاً دقيقاً ومعاناتها مع المرض ، وهو ملازم لها حتى الرمق الأخير فقال:

أتـــى العـــام، فاستبشـــرت بالعـــام يطـــرق
وقلـــت كمـــا قالـــت: ســـعيد موفـــق

فلـــم يمـــض بعـــض الشـــهر إلا تبـــادرت
غواشـــــي نـــــذير كالغياهـــــب تطبـــــق
ألمـــــت بهـــــا الحمـــــى عضـــــالاً ملحـــــةً
تقـــــض وســـــادينا معـــــاً وتـــــؤرق
فتُصـــــهد منهـــــا جســـــمها ودماغهـــــا
وتُصـــــهد قلبـــــي مـــــن لظاهـــــا وتحـــــرق
دعـــوت لهـــا الأفـــذاذ فـــي الطـــب، جملـــةً
وشـــــتى، ومَـــــنْ غـــــربٌ نمـــــاه ومشـــــرق
فلـــــم يـــــأتلوا جهـــــداً ولا وجـــــه حيلـــــةٍ
وقـــــد ســـــوروا دون الظنـــــون وخنـــــدقوا
نهـــــارى حيـــــران، ألاقـــــي أُســـــاتها
وأرســـــل فـــــي إثـــــر الـــــدواء، وألحـــــق
وليلـــــي ســـــهران لصـــــيق فراشـــــها
أراعـــــي إلـــــى أنفاســـــها وأحملـــــق
تقـــول بصـــوتٍ قـــد تهضـــمه الضـــنى
وأجهـــش حتـــى مـــا يبـــين منطـــق
"أ أشـــفى؟" "أجـــل يـــاقرة العـــين لا تهـــي
ولا تجزعـــــي، إن الشـــــفاء محقـــــق"
مقالـــــة ملتـــــاع الجنـــــان أقولهـــــا
وبـــين الرجـــا واليـــأس قلبـــي مرهـــق
وترمقني منها لواحظ وامقٍتجلى هواه كله حين
رمـــق
نجرعهـــــا مـــــر الـــــدواء تســـــيغه
وناظرهـــــا فـــــي نـــــاظريّ معلـــــق
وننحـــــي عليهـــــا إبـــــرة بعـــــد إبـــــرةٍ
فترضـــــى، وهـــــذا جلـــــدها يتخـــــرق

تريـــد لتحيـــا، مـــن رضـــاها بصـــحبتي
ولـــولاي مـــا كانـــت مـــن المـــوت تفـــرق
وتحـــــرص أن تبـــــدو كعهـــــدي جميلـــــةً
يطـــالعني منهـــا – علـــى الســـقم – رونـــق
تعرقتَهـــــا يـــــاداء مـــــا شـــــئت جاهـــــداً
ولكـــن حســـن الـــروح فـــي الوجـــه مشـــرق
إذا عُـــــرَواء الـــــداء فـــــارت برأســـــها
فليســـت –مـــن الرجحـــان– تهـــذي وتحمـــق
ولكـــــن قصـــــاراها إذا اشـــــتد برحهـــــا:
"أيـــــا رب! لا أقـــــوى" بلحـــــنٍ يمـــــزق
تـــــردد "لا" فـــــي كـــــل حـــــين أبيـــــةً،
وعـــيش الضـــنى بـــالرفض أحجـــى وأليـــق
ويغضـــبها أنـــي – وقـــد ســـاء حالهـــا –
علـــى الـــنفس مـــن شـــغلي بهـــا لســـت أشـــفق
وتلمـــــس أرادانـــــي، وتلهـــــو بأصـــــبعي
وتضـــــغط كفـــــى كفهـــــا وهـــــى أرفـــــق
وتوســـــعني لثمـــــاً، وتمســـــح خـــــدها
خـــــدي وكـــــل بالـــــدموعين مغـــــرق
ومـــــا نســـــيتني فـــــي ســـــباتٍ وصـــــحوةٍ
وقـــد ذكرتنـــي وهـــي فـــي النـــزع تشـــهق
إلـــى أن تغشـــتها مـــن المـــوت صـــرعة
مجدلـــــة، والمـــــوت ســـــهم مفـــــوق
فغاضـــت كمـــا غـــاض الربيـــع، وإنمـــا
ربيعـــى بعـــد اليـــوم هيهـــات يـــورق

عقوق الوالدين والندم

كانت إمرأه تعيش بسلام مع إبنها..وأصبح في سن يؤهله للزواج ..فطلب من أمه أن تبحث له عن إنسانه مناسبة..لكي تسعده فرحت ألام كثيراتزوج الولد من ابنه أحد أقاربه..وبعد مرور شهرين على زواجه.....طلبت الزوجة من زوجها أن يأخذ أمه إلي دار المسنين لأنها كانت تريد العيش لوحدها .....وبإلحاح شديد على زوجها و بقولها إنها هناك ستعيش حياه أفضل..وأنا أريد العيش لوحدي مع زوجي وابني ...فرح الزوج كثيرا عندما علم أن زوجته حامل...فقال لها سأنفذ جميع طلباتك ...فقالت خذ أمك إلى دار العجزة لكي تأخذ الرعاية الكافية من هناك فأنا لا أستطيع أن قوم برعايتها ورعايتك يا حبيبي ورعايةطفلي في آن واحد...وبعد يومين أخذ الزوج أمه بقوله لها..أمي أود أن آخذك إلى طبيب للكشف والاطمئنان على صحتك..فوافقت آلام وذهبت معابنها..ولا تعلم إلى أين هي ذاهبة..فقد أوصلها أمام باب رعاية المسنين...ومن ثم أخذها وجلس معها في حديقة المستشفى ...وطلب منها الانتظار ودخل وسجل أسمها ووقع دخولها وعاد إلى أمه مسرعاا ..وهناك قال الولد لامه..آمي أريد أن تتفهمي لوضع زوجتي فهي حامل ولا تستطيع أن تخدمك وتخدمني و بابتسامة ظهرت على وجهه قال وأبشرك أن هناك جنين قادم إن شاء الله فزوجتي حامل ..فرحت الأم ولم تعلم أنها جالسة في فناء المستشفى الذي قرر ذلك الابن انه مكانها الأخير وقالت له مبروك وكادت تطير من الفرحة فقالت في شوق دعنا نعود للبيت فالخبر أسعدني وأنا الآن بخير ولا أحس بأي مرض أو تعب فالخبر أفرحني وربما تحتاجك زوجتك هيا فلنعود .. ولكن ما لبثت أن تبدل حالها إلى حزن وصمت رهيب عندما أخبرها ذلك الابن العاق أنه لا يستطيع أن يأخذها وأنها ستبقى هناك حتى تتحسن أوضاع زوجته ولكي ينعموا هو وزوجته بحياة سعيدة لا يعكرها وجود تلك ألأم العجوز التي ستحتاج الرعاية والاهتمام وذلك سيقلب حياتهم الزوجية إلى تعب وعناء .قالت ألام وعيناها مليئة بالدموع..حسنا اذهب يا ولدي فربما تحتاجك الآن!!

ذهب الولد وهو فرح لزوجته..وظلت ألام المسكينة تنتظر في باحة المستشفى إلى أن جاءت الممرضة وآخذتها إلى غرفتها ..واكتشفت ألام من الممرضة أنها ستبقى في دار المسنين إلى ماشاءالله حسب اتفاق الإبن العاق حزنت ألام كثيرا ولم تأكل شيئا ولم تهني بالمنام .. ولم تتوقع أن ابنها الذي ربته سوف يفعل هذا بها أما الزوجة والزوج الذي ضحى بأمه من اجل زوجته. فقد حانت ساعة الولادة فأخذها على كفوف الراحة وبنفس الجملة التي قالها لأمه هي لنذهب إلى

المستشفى للكشف والاطمئنان على صحة الطفل وهما في طريقهما للمستشفى حصل لهما حادث أدى إلى وفاه الزوجة واصابة الزوج إصابات خطيرة أدخلته العناية المركزة. استعاد وعيه بعد مرور ستة أشهر في العناية المركزة وكانت الطامة الكبرى عندما علم أن زوجته ماتت وكذلك طفلها وأنه أصبح مشلولا وسيبقى طريح السرير ..

المصدر :منتديات ترانيم الأمل – من قسم :منتدى القصص والروايات

تذكرنا هذه القصة بأبيات شعر جاء فيها :

أغرى امرؤ يوما غلاماً جاهلاً

بنقوده كي ما ينال به الوطر

قال ائتني بفؤاد أمك يا فتى

ولك الجواهر والدراهم والدرر

فمضى وأغرز خنجراً في صدرها

والقلب أخرجه وعاد على الأثر

لكنه من فرط سرعته هوى

فتدحرج القلبُ المعفرُ إذ عثر

ناداهُ قلبُ الأمِ وهو معفر

ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر

فكانَ هذا الصوت رغم حنوه

غضب السماء به على الولد انهمر

وارتد نحو القلب يغسله بما

فاضت به عيناه من سيل العبر

حزناً وأدرك سوء فعلته التي

لم يأتها أحدٌ سواه من البشر

واستل خنجره ليطعن نفسه طعناً

فيبقى عبرةً لمن اعتبر

ويقول يا قلب انتقم مني

ولا تغفر فإن جريمتي لا تغتفر

ناده قلب الأم كف يداً

ولا تذبح فؤادي مرتين على الأثر

كانت إمرأه تعيش بسلام مع إبنها..وأصبح في سن يؤهله للزواج ..فطلب من أمه أن تبحث له عن إنسانه مناسبة..لكي تسعده فرحت ألام كثيراتزوج الولد من ابنه أحد أقاربه..وبعد مرور شهرين على زواجه.....طلبت الزوجة من زوجها أن يأخذ أمه إلي دار المسنين لأنها كانت تريد العيش لوحدها .....وبإلحاح شديد على زوجها و بقولها إنها هناك ستعيش حياه أفضل..وأنا أريد العيش لوحدي مع زوجي وابني ...فرح الزوج كثيرا عندما علم أن زوجته حامل...فقال لها سأنفذ جميع طلباتك ...فقالت خذ أمك إلى دار العجزة لكي تأخذ الرعاية الكافية من هناك فأنا لا أستطيع أن قوم برعايتها ورعايتك يا حبيبي ورعايةطفلي في آن واحد...وبعد يومين أخذ الزوج أمه بقوله لها..أمي أود أن آخذك إلى طبيب للكشف والاطمئنان على صحتك..فوافقت آلام وذهبت معابنها..ولا تعلم إلى أين هي ذاهبة..فقد أوصلها أمام باب رعاية المسنين...ومن ثم أخذها وجلس معها في حديقة المستشفى ...وطلب منها الانتظار ودخل وسجل أسمها ووقع دخولها وعاد إلى أمه مسرعاا ..وهناك قال الولد لامه..آمي أريد أن تتفهمي لوضع زوجتي فهي حامل ولا تستطيع أن تخدمك وتخدمني و بابتسامة ظهرت على وجهه قال وأبشرك أن هناك جنين قادم إن شاء الله فزوجتي حامل ..فرحت الأم ولم تعلم أنها جالسة في فناء المستشفى الذي قرر ذلك الابن انه مكانها الأخير وقالت له مبروك وكادت تطير من الفرحة فقالت في شوق دعنا نعود للبيت فالخبر أسعدني وأنا الآن بخير ولا أحس بأي مرض أو تعب فالخبر أفرحني وربما تحتاجك زوجتك هيا فلنعود .. ولكن ما لبثت أن تبدل حالها إلى حزن وصمت رهيب عندما

أخبرها ذلك الابن العاق أنه لا يستطيع أن يأخذها وأنها ستبقى هناك حتى تتحسن أوضاع زوجته ولكي ينعموا هو وزوجته بحياة سعيدة لا يعكرها وجود تلك ألأم العجوز التي ستحتاج الرعاية والاهتمام وذلك سيقلب حياتهم الزوجية إلى تعب وعناء .قالت ألام وعيناها مليئة بالدموع..حسنا اذهب يا ولدي فربما تحتاجك الآن!!

ذهب الولد وهو فرح لزوجته..وظلت ألام المسكينة تنتظر في باحة المستشفى إلى أن جاءت الممرضة وآخذتها إلى غرفتها ..واكتشفت ألام من الممرضة أنها ستبقى في دار المسنين إلى ماشاءالله حسب اتفاق الإبن العاق .حزنت ألام كثيرا ولم تأكل شيئا ولم تهني بالمنام .. ولم تتوقع أن ابنها الذي ربته سوف يفعل هذا بها أما الزوجة والزوج الذي ضحى بأمه من اجل زوجته. فقد حانت ساعة الولادة فأخذها على كفوف الراحة وبنفس الجملة التي قالها لأمه هي لنذهب إلى المستشفى للكشف والاطمئنان على صحة الطفل وهما في طريقهما للمستشفى حصل لهما حادث أدى إلى وفاه الزوجة واصابة الزوج إصابات خطيرة أدخلته العناية المركزة. استعاد وعيه بعد مرور ستة أشهر في العناية المركزة وكانت الطامة الكبرى عندما علم أن زوجته ماتت وكذلك طفلها وأنه أصبح مشلولا وسيبقى طريح السرير

مرجع ٢٠

تذكرنا هذه القصة بأبيات شعر جاء فيها :

أغـــرى امـــرؤ يومـــا غلامـــاً جـــاهلاً
بنقـــوده كـــي مـــا ينـــال بـــه الـــوطر
قـــال ائتنـــي بفـــؤاد أمـــك يـــا فتـــى
ولـــك الجـــواهر والـــدراهم الـــدرر
فمضـــى وأغـــرز خنجـــراً فـــي صـــدرها
والقلـــب أخرجـــه وعـــاد علـــى الأثـــر
لكنـــه مـــن فـــرط ســـرعته هـــوى
فتـــدحرج القلـــبُ المعفـــرُ إذ عثـــر
نـــاداهُ قلـــبُ الأمِ وهـــو معفـــر
ولـــدي حبيبـــي هـــل أصـــابك مـــن ضـــرر
فكـــانَ هـــذا الصـــوت رغـــم حنـــوه

غضـــب الســـماء بـــه علـــى الولـــد انهمـــر
وارتـــــد نحـــــو القلـــــب يغســـــله بمـــــا
فاضـــت بـــه عينـــاه مـــن ســـيل العبـــر
حزنـــــاً وأدرك ســـــوء فعلتـــــه التـــــي
لـــم يأتهـــا أحـــدٌ ســـواه مـــن البشـــر
واســـتل خنجـــره لـــيطعن نفســـه طعنـــاً
فيبقـــــى عبـــــرةً لمـــــن اعتبـــــر
ويقـــول يـــا قلـــب انـــتقم منـــي
ولا تغفـــر فـــإن جريمتـــي لا تغتفـــر
نـــــاده قلـــــب الأم كـــــف يـــــداً
ولا تـــذبح فـــؤادي مـــرتين علـــى الأثـــر

التعاطي والندم

وبعد الندم على عقوق الوالدين الذي نهى عنه الله سبحانه وتعالى في آيات القرآن الكريم وتوعد من يفعله بالخسران المبين نتطرق إلى سبب آخر سببمن أسباب الندم، وهو الإدمان على المسكرات والمخدرات إذ أن هذه الأمور أصبحت مدعاة للحسرة والندامة،ونحن نسمع عن قصص مؤسفة للمدمنين على المخدرات أو الخمور، وهؤلاء يدمنون فيندمون .نقرأ عن مدمن على المخدرات والخمر ارتكب حماقات بعد أن كان حكيما وارتكب خيانات بعد أن كان شريفا وقام بانحرافات بعد أن مستقيما وبعضهم حاول قتل أقرب المقربين إليه ،فقبل أن تعض أصابع الندم إن كنت مدمن حبوب أو كحوليات ,, حاول تتعالج في أقرب فرصه ,, ولا يؤخرك عن ذلك كلام الناس ونظرتهم لك . إذا كان أخوك مدمن لا سمح الله ,, لا تحاول أن تتغاضى عن هذا الموضوع ,, وأعرف أن سكوتك عن إدمان أخيك هو دليل على شيء واحد فقط هو أنك لاتدرك مدى الخطر الذي يحيق به وبأسرتك فالحل بعد الله هو مراكز معالجة الإدمان الأمل يتعالج من السم اللي ممكن يدمر مستقبل وحياة أخوه .((تناقشوا بالأمر بصراحة وتكلموا عن هذا الموضوع ,, فهذا ابتلاء ولن تندموا على الكلام ,, ولا يهمكم كلام الناس وما قد يقال عنكم ,, لأن كل البيوت فيها مشاكل ,, وما لايوجد يت ما يخلو من المشاكل ,, ولكن أفضل البيوت هو الذي يحاول أفراده القضاء على أية مشكله تواجههم بسرعة وبحزم))

فليسارع المدمنون وأهليهم إلى طلب العلاج قبل أن يعض المدمن أصابع الندم ويطلب المهلة و يتمنى الرجعة و لكن بعد فوات الأوان {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٠٠}سورة المؤمنون .وإليك هذه الأبيات التي تحث على المبادرة إلى التوبة والأوبة إلى الله قبل فوات الأوان :

تـــزود مـــن التقـــوى فإنـــك لا تـــدري
إذا جـــن ليـــل هـــل تعـــيش إلـــى الفجـــر
فكـــم مـــن فتـــى أمســـى و أصـــبح ضـــاحكا
و قـــد نســـجت أكفانـــه و هـــو لا يـــدري
و كـــم مـــن صـــغار يرجـــى طـــول عمـــرهم
و قـــد أدخلـــت أجســـادهم ظلمـــة القبـــر
و كـــم مـــن عـــروس زينوهـــا لزوجهـــا
و قـــد قبضـــت أرواحهـــم ليلـــة القـــدر
كـــم مـــن صـــحيح مـــات مـــن غيـــر علـــة
و كـــم مـــن ســـقيم عـــاش حينـــا مـــن الـــدهر

ولكن مالذي يدفع الناس لتعاطي المخدرات والمسكرات ثم يعضون بعدها أصابع الندم ، وتلك الخموروالمخدرات لاتشرب فجأة ولكن وراء ذلك أمور كثيرة، فتعالوا بنا لنتعرف على أهم أسباب التعاطي لنحاول إغلاق باب الندم على من يتعظ :

السبب الأول: وهو أعظمها، ضعف الوازع الديني،فمخطئ من يظن أن الدين للعبادات أو المعتقدات فحسب ولكنه مرجع ليفرق به الناس بين الضار والنافع ،و هذه الحالة تثبت أن الكل بحاجة لتعاليم الدين حتى ألئك الذين لايصلون أو يصومون أو يؤدون الفرائض ، بل حتى الملحد بحاجة إلى الدين ليصون نفسه ويعصمها من الزلل ، فبالدين نحافظ على أنفسنا وأعراضنا وأموالنا، وبالدين تصلح حياتنا وبالدين نختلف بل نتميز عن غيرنا من الكائنات ، وبالدين نعيش سعداء متحابين.فإذا ضاع الدين لدى الإنسان فليبشر بالتعاسة والحرمان والذل والهوان.

لما كان للمدمنين نصيب من الإيمان كانوا في عزٍّ وأمان، وفي راحة واطمئنان، ولكن لما ضعف دينهم أصبحوا عبيدًا للشهوة، مرضى الغفلة، تنهشهم الفتن من كل مكان، بحثوا عن السعادة جاهدين فما وجدوها بزعمهم إلا عند حفنةٍ من المروجين، فباعوا دينهم بدنيا، وآثروا المعصية على التقوى:

وكل جرح يندمل إلا جرح الدين.وكل كسرٍ لعل الله جابرهُ وما لكسر قناة الدين جبرانُ

وصدق رسول الله (ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) [رواه البخاري ومسلم وغيرهما.]

السبب الثاني: رفقاء السوء، فهم رأس كل أذية، وأساس كل بلية، يصحبون فيسحبون، ويضيعون ويضحكون، رفقاء السوء يدسون السمَّ في الدسم، ويجرعون غيرهم الألم.اسألوا كل مدمن للمخدرات ما السبب في تعاطيك؟ وما الذي سوَّد ماضيك؟ سيقول وهو يعض أصابع الندم : إنهم رفقاء السوء، هؤلاء هم سوسٌ ينخر في المجتمع – لا كثرهم الله – فشلوا في الدراسة، وتقهقروا في الوظيفة، وانتحلوا كل صفة ذميمة، فغشوا وسرقوا وأدمنوا ، يهدموا في أيام ما بني في أعوام، لعل المدمن عندما تسوء به الحال يرجع فكره الوراء فيتذكر يوم كان في سعادة وراحة بال، لا هموم ولا مشاكل ولا ديون ولا أمراض.ثم لَّما صاحبهم بدأت حياته تتدهور، فأغروه بالدخان ثم بالمخدرات ثم عقوق الوالدين، والخروج من البيت ومحاولة إيجاد المال ولو عن طريق الحرام، وهكذا بدأ مسلسل الضياع، وربما سالت دمعته على خده وهو يستعرض شريط حياته المأساوي، وربما أتى اليوم الذي يعض فيه أصابع الندم، عندما يدخل السجن....هذا شاب عمره عشرون سنة سافر إلى إحدى دول جنوب شرق أسيا وكان غنيًا، فأخذ يتعاطى الهيروين ومكث قرابة السنة والنصف، فتخبط في الديون والأمراض والخلاعة، فعلم أهله فأحضروه وبالقوة عالجوه وأدخلوه (مستشفى الأمل) فوجد الراحة في العلاج، وبعد فترة طويلة خرج وإذا بزملائه الأشرار يتصلون به، وفي أول جلسة له معهم أعطوه كمية من المخدر فتعاطاها فمات في ساعته.

إذًا بات من الواجب على كل أب أن يعرف من هم أصحاب أولاده بداية من المدرسة والشارع، فيبعده عن السيئين ويحذره من الطائشين، ومن مصاحبة المدمنين حتى ولو كانوا من أقرب الأقربين، فأكثر المدمنين كانت بدايتهم بهذا الشر الوبيل، فإذا كانت الخمر هي أم الخبائث فإن الهيروين هو أبوها. إن مجالس يجلس فيها الشباب دون صحبة صالحة تكون بوابة المخدرات، تحدث بعض رواد هذه المجالس فقالوا إن بعض الشباب يعير بعضهم بعضاً فيوحون لهم بأن يتجاوزوا التدخين الذي أصبح موضة قديمة من وجهة نظرهم إلى درجة أعلى من النشوة ، فأصبحوا يلفون لهم فيها الحشيش على هيئة

السجائر، ويضعون الحبوب المخدرة في أكواب الشاي، فيوقعونهم في حبائل المخدرات، لذا أصبحنا نرى كثيرًا من الشباب يعقون أمهاتهم، ويتمردون على آبائهم، ويفشلون في دراستهم، والسبب صحبة السوء لكن الخافي سيظهر مهما طال الزمن، والكذب حبله قصير، فما هي إلا أيام ويعرف الأب أن ابنه متعاط للمخدرات ولكن متى؟ بعد فوات الأوان.

ولذلك وجب على الأب أن يحذر، لا تزكي ابنك، ولا تقل إنه من الصالحين، فكم رأينا ونرى ممن كانوا طيبين مسالمين أصبحوا فسقه مجرمين، والسبب: الرفقاء السيئين .

تعالت الصيحات: أدركوا الشباب من جحيم المشكلات والمخدرات، بعضهم يريد أن يتوب ويرجع ولكن ثمة عقبات أولها: الشيطان الذي يسول، ثم المروِّج الذي يموِّل، الذئب البشري قاطع طريق الحياة الهنيئة، ثم رفقاء السوء المدمنون لهذه السموم، يغرون هذا المسكين وربما أعطوه المخدرات دون مقابل لكي لا يهرب من القطيع، وربما لديهم عليه مماسك وصور يهدِّدونه ويبتزونه بها فيعيش معذبًا تلسعه حرارة المعصية والإجرام، وتفتك به الوساوس والأوهام، ويظل ضعيفًا من كل جهة لا يصارح أحدًا لا أبًا ولا أخًا ولا أهل خير لينقذوه من براثن الشر. وكأنه يردد قول القائل :

تبعثـــــــــــــــرت كلمـــــــــــــــاتي
لمـــــــــن سأفضـــــــــي شـــــــكاتي
أرى الحيـــــــــــــاة أمـــــــــــــامي
غريبـــــــــــة عـــــــــن حيـــــــــاتي
أعـــــيش فـــــي الكـــــون مـــــا لـــــي
حـــــــــول ســــــــوى نظراتـــــــــي
فـــــــي الليـــــــل أبكـــــــي وأخفـــــي
عنـــــــد الضـــــــحى عبراتـــــــي
النـــــــاس تحقـــــــر حزنـــــــي
لمـــــــــا رأوا مـــــــــن ثبـــــــــاتي
ومـــــــــــــا دروا أن قلبـــــــــــي
تلوكـــــــــــــه حســـــــــــــراتي
فاضـــــــــت دمـــــــــوعي لتبـــــــــدي

محطـــــــــــــــــم الأمنيـــــــــــــــــات
يـــــــا قـــــــوم مـــــــا بـــــــي قنـــــــوطٌ
مـــــــا زلـــــــت أســـــــمو بـــــــذاتي
رحمـــــــــــــاك إنـــــــــــي حســـــــــــير
أرجـــــــــــو إلهـــــــــــي نجـــــــــــاتي
الحمـــــــــــــــــد لله قلبـــــــــــــــــي
مـــــــا مـــــــات قبـــــــل ممـــــــاتي

هذه المناجاة تعبر عن حالة بائس تسللت المخدرات والمسكرات إلى قلبه ووعيه وجسده لو سألته عن سبب ماهو فيه لقال لك إنه ضعف الوازع الديني ورفقاء السوء هما أهم أسباب الانحراف والضياع وتعاطي المخدرات .

ومن هنا كانت عناية الإسلام باختيار الخليل أو الصاحب، ومما يؤسف له أن الكثير يغفلون عن ذلك، ويسيرون مع أصحابهم دون اختيار أو تدقيق ودون معرفة بآثار هذا الأمر الخطير؛ لذا يبين لنا رسول الله ﷺ «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». وفي هذا أيضا يقول الرسول ﷺ «**لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِناً وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»، ويقول علماء الاجتماع: الطباع يسرق بعضها من بعض، ولذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب»، ولأهمية الصحبة أرشدتنا الآيات القرآنية إلي أهل الخير نصاحبهم وحذرتنا من أهل الباطل في آيات كثيرة.

ولو أردنا أن نسترسل في موضوع ضعف الوازع الديني والصحبة السيئة لتعددت حلقاتنا دون أن نصل إلى نهاية لهذا الموضوع ، لذا سنقف هنا لأن هناك أسباباً أخرى سأذكرها على سبيل الإيجاز ومنها :

السبب الثالث: الفراغ وعدم العمل، فإن الفراغ قاتل كما يقال، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، فإذا عاش الإنسان بدون عمل يشغل وقته وعقله ويشبع نفسه؛ فإن الأفكار تأتيه من كل مكان، وتهديه نفسه الأمارة بالسوء إلى المخدرات.والمسكرات

السبب الرابع :الغنى وتوافر المال، فإن بعض الآباء قد أغدقوا على أبنائهم وفتحوا لهم باب الحياة على مصراعيه، ولسان حالهم بل مقالهم «اطلب تجد» فزرعوا في نفوس أبنائهم حبَّ الراحة والكسل والدعة، فليس لديهم مجال للعمل أو التفكير أو الصبر على نكبات الدهر، فكل شيء متوافر، وبطبيعة الحال فإن ما أتى براحةٍ وسكونٍ سيضيع بسرعة؛ لأن الإنسان لم يتعب عليه، ولم ينزل عرقه على جبينه في سبيل الحصول عليه، ولهذا تجد أمثال هؤلاء الشباب المترفين إذا توافر المال لديهم صرفوه في غير وجهه المشروع، فالبداية بالدخان ثم المخدرات، وصدق من قال

إن الفـــــــراغ والشـــــــباب والجـــــــده
مفســـــــدة للمـــــــرء أي مفســـــــده

السبب الخامس بعكس السابق وهو الفقر وقلة المال، فإن النفس تتوق إلى الراحة وتوافر المال وامتلاك ما يملكه الناس، وتهرب من الحاجة إلى الخلق، فهي مُرة كالعلقم، لذلك بعض الشباب يسعى جاهدًا للحصول على المال ليهرب من الفقر ومد اليد، فيهديه أحيانًا شيطانه إلى الطرق المنحرفة ومنها المتاجرة بالحبوب المخدرة لا سيما وهو يسمع من أصدقاء السوء أن صفقاتها بالآلاف بل بالملايين، فينجرف في تيار هذه السموم علَّه أن يكون غنيًا كغيره.

السبب السادس: حبُّ الاستطلاع، والإنسان بطبعه يحب التطلع والكشف عن المجهول، وبعض الشباب قد ملّ من حياته لأسباب كثيرة، فيحب أن يجرَّب مذاق الحبوب المخدرة وما هي اللذة التي يحكي عنها أصحابه المدمنون، فلمَ لا يأخذ حبةً فإذا فعل اشتاقت نفسه إلى غيرها، ثم يوهم نفسه بعد ذلك أنه لا يستطيع تركها فيتولع بها ولا يفيق إلا إذا وقع الفأس في الرأس، ويندم ولات ساعة مندم، ثم إذا لم يتدارك نفسه فإنه يهوي كما هوى غيره.

السبب السابع: تقليد الأفلام والممثلين الذين يسارعون إلى البارات لتناول الخمر حينما تواجه أحدهم مشكلة في حياته رغم مافي ذلك التصور من خطأ ورغم تأثير المنظر على المشاهدين القابلين للتأثر بهؤلاء الممثلين أو تلك المواقف .

وهذه الأفلام والمسلسلات التي تعرض في دور السينما وعلى بعض القنوات الفضائية والتي تسعى للربح عن طريق الاعلانات ولاتتورع عن بث الافلام الجارحة ولا تتورع عن عرض الحرام وتحبيبه

للمشاهد لا سيما من سكر ومخدرات وعرض لأجساد الممثلات والراقصات ،تدمر النفوس والعقول والأجساد بعلاج وهمي ،وهؤلاء يوهمون الشباب بأن ذلك هو بلسم الحياة ومفتاح السعادة وجلاء الهموم وغيرها، فيسمع الشاب ويشاهد ويحاول الاقتناء، أما القصد النهائي لتلك المحطات فهو زيادة عدد المشاهدين ليزداد عدد المعلنين والإعلانات التجارية .

السبب الثامن: التقليد الأعمى للغرب، فإن بعض الشباب يرى ونرى معه أن الغرب يستحق الاقتداء به في أمور إيجابية كثيرة وخاصة في العلوم والتكنولوجيا والتعامل الراقي ،وهذا أمر محمود ومشكور لكل من ساهم من إخواننا في البشرية في تقدم ورقي المجتمعات ونقلها من الجهل إلى العلم وتقديم كل مامن شأنه تسهيل الحياة لهم ، ولكن بعض الناس يبالغون في تصوارتهم فيعتقدون أن كل ما أتى به الغرب هو الحضارة وغيره تخلف ورجعية، فيتلقفون كل جديد حتى لو كان غير مفيد، فأدى ذلك إلى الانفتاح على فكر شيطاني وجري وراء كل تيارت منحرفة باسم الليبرالية ،ويأخذون تلك الأمور دون تمحيص للنافع منها والضار، لذلك تورط بعض الشباب في هذه الفتنة العصرية (المخدرات) تقليدًا لغيرهم.وهم أصبحوا يركزون على المرأة بحجة التحرر من مايسمونه التقاليد والعادا ت البالية حسب زعمهم حتى يتسنى لهم السيطرة عليها . فلذلك يجب على أخواتنا وبناتنا الإنتباه إلى هذه المسألة وعدم السقوط في حبائلهم وألإستماع إلى دعوات التحرر التي تجعل المرأة تثور لأتفه الأسباب وتعتبر أي توجيه أسر لها بمثابة انتقاص من قدرها وغمط لحقها ،فيستغلها تجار الجنس والشهوة والانحلال الأخلاقي ويصورون لها أَن الحرية والمساواة تعني تحررها من كل القيم الدينية والأعراف الأخلاقية بحجة المساواة مع الرجل ، ولكن إذا هرمت وكبرت وتغير شكلها واسود منها ماكان أبيضا وابيض منها ماكان أسودا تركوها وتناسوها واتجهوا إلى جيل الشابات ليكرروا معه نفس اسطوانة التحرر المشروخة التي دمرت المجتمعات الغربية وغيرت مفهوم الأسرة عن معناه المألوف لتتحول تلك الأسرة إلى كيان مفكك دون ارتباط بالأب أوالأم أو الأقارب ،وهم أنصح الناس إلى ماهو في صالح أبنائهم وبناتهم واستبدالهم برفاق ورفيقات السوء الذين تحدثنا عنهم .

السبب الآخر: الرغبة في النشاط والسهر للمذاكرة أو غيرها، فيلجأ بعض الشباب إلى العقاقير التي تجلب النشاط وتقوي الذاكرة بزعمهم، فيبحثون بذلك عن النشاطً الذي يكون مؤقتاً، ثم يعقب تلك التجربة المغرية في بدايتها والمدمرة في نهايتها الإرهاق والتعب المستمر، وقد تجرهم هذه الحبوب إلى

غيرها فتتنوع في شكلها وقوتها إلى أن يتعاطى الشباب المخدرات ويدمن عليها، والعامل المساعد في ذلك هو رفقاء السوء.

السبب الحادي عشر:انشغال الوالدين وسوء التربية وعدم رقابة الأب لأولاده، مما يجعلهم في حياة معزولة عن أبيهم يفكرون وينفذون، وإذا فعلوا لا أحد يسأل عنهم، لذلك قيل: من أمن العقوبة أساء الأدب، فالأب في تجارته وأعماله، والأم مشغولة بالزيارات، والولد يتجرأ على الانفلات والهروب من المدرسة ومصاحبة الشباب السيئين، فيصبح هؤلاء الشباب هم الأب وهم الأم، فيقع في أحضان لا تعرف الحنان ولا الرحمة.

لـــــيس اليتـــــيم مـــــن انتهـــــى أبـــــواه
مـــــــن هـــــــمَ الحيـــــــاة وخلّفـــــــاه
إن اليتـــــــيم الـــــــذي تلقـــــــى لـــــــه
أُمًـــــا تخلـــــت أو أبًـــــا مشـــــغولاً

السبب الثاني عشر :كون الأب قدوة سيئة لأولاده، فهذا من أكبر الوسائل المعينة على الانحراف، فإن الولد يحاول منذ صغره أن يحاكي أفعال والده، فيتعلم من والده الكذب، ويتعلم عدم المبالاة وربما ترك الصلاة وربما شرب الدخان، وينتهي به المطاف إلى التعلق بالمخدرات، فالأب مثالٌ يحتذي به الولد، فلينتبه كل أب إلى أن كل ما يفعله مأخوذ في الاعتبار من قبل ولده، فليتق الله فيه.

السبب الثالث عشر: القسوة على الأولاد قسوة مفرطة وحرمانهم من كل شيء، فالولد لديه طاقة لا بد أن يفرغها مع مراقبته في كيفية التفريغ، ولكن حينما تحبس هذه الطاقة فإنها ستكون كامنة لا تظهر إلا متأخرة، وعندها ستنفجر عند التفريغ، لذلك نرى ونشاهد الأولاد المحرومين والمكبوتين هم أعق الأولاد لآبائهم عندما يكبرون، وسيمارسون كل شيء حتى ولو كان محرمًا ولو لأجل العناد.

نعـــم القســـوة أحيانًـــا مطلوبـــة، والشـــدة مرغوبـــة، ولكـــن بضـــوابط كمـــا قـــال الشـــاعر.

قســـــا ليزدجـــــروا ومـــــن يـــــك حازمًـــــا
فلـــــيقسُ أحيانًـــــا علـــــى مـــــن يـــــرحمُ

أما إذا خرجت القسوة عن حدها فإنها تكون مدمرة، ، وبعض من تعاطوا المخدرات يعزون ذلك إلى قسوة آبائهم عليهم في الصغر.

السبب الرابع عشر: التفكك الأسري والاضطراب العائلي، فشجار الوالدين المتكرر أمام أطفالهما يولد مشاكل نفسية لديهم لا تحمد عُقباها في المستقبل فأسرة مشتتة تستيقظ على الخلافات والمشاكل، وتنام عليها كفيلة بضياع أفرادها، فهذا ولدٌ يتشاجر مع أبيه، وهذه بنتٌ لا تكلم أمها منذ سنوات ، وذاك أخ قد هجر أخاه، وإذا اجتمعوا لايراعى في ذلك الاجتماع والتوقير والإحترام ، فكيف يكون حال الأولاد وهم يرون الشتات والفوضى؟ إنهم سيشربون من هذا المستنقع العكر، وسيلجؤون إلى البحث عن السعادة في غير هذه البيئة، وبالتالي قد يدفعهم ذلك ،وهم في سنهم الصغير إلى تعاطي المسكرات والمخدرات، فالتفكك الأسري بوابة إلى الإدمان.

الخامس عشر: تهاون بعض الدول والأفراد في قضية المخدرات، والخوف من المروجين أو السكوت عنهم مما يتيح لهم الفرصة لإفساد الشباب وكذلك التساهل مع المتعاطين والمروجين والتستر عليهم بسبب بدافع العطف أو لكونهم من الأقارب أو الأصحاب أو بسبب ضعف الدولة في مواجهة مؤامرات خارجية تصدر لها السم الاصفر بطرق متعددة وملتوية للفتك بشبابها وشاباتها ،أو لليونة في التشريعات والاحكام القانونية المتساهلة ،وعدم فرض عقوبات صارمة وقوية كما هو الحال في بعض الدول ، فيما يسمى بسياسة المجتمع المتسامح كما في بعض الدول الغربية فتكتظ السجون بالمتعاطين والمدمنين والمروجين ،مما يضطر السلطات إلى تخفيف شروط القبض عليهم والإفراج عنهم، أو ربما لأن المروجين يحظون بحماية سلطة أو أحزاب سياسية مؤثرة مما يؤدي إلى عدم إفلات هؤلء المروجين من العقاب .

الأسباب كثيرة هذه بعضها، فلا بد أن نتجنبها ونضع الوسائل للقضاء عليها، وهذا واجب على الجميع، كلٌّ بحسب قدرته وإمكاناته.

أما المدمنون المبتلون بهذه الآفة ، فلابد أن يعلموا أن مرضهم خطير ن وغذا تصادف أن سقط أحد في مستنقع وهم المخدرات الكاذب، فعليه وعلى أهله ألا يترددوا للحظة واحدة في علاج ابنهم أو

ابنتهم ، فقد تم فتح مراكز متخصصة للعلاج وللتعامل مع هذا الداء لعل الله ينقذهم من براثن الادمان فيتوبوا إلى الله يا من تتعاطون المخدرات، وإذا كانت الأمور غير واضحة لقدماء المدمنين الذين سكنوا القبور بجرعة زائدة أو انتحاراً ، فما العذر لمن يقرأون عن تجاربهم ومعاناتهم ، فأنتم ترون ضررها واضحًا في أنفسكم، وآثار دمارها جلية في حياتكم، والله ميزكم عن سائر مخلوقاته بالعقل فكيف تخدرونه بالمخدرات؟ وتخمرونه بالخمر؟ واعلموا أنكم محاسبون أمام الله عن إضراركم بأنفسكم والإلقاء بها إلى التهلكة، وتفريطكم في أموالكم، وتفلتكم من المسؤولية الملقاة على عواتقكم، وإضاعتكم للأمانة التي بها كلفتم، فأغضبتم ربكم وتساهلتم في وعيد رسولكم الذي يقول (: «إن على الله عز وجل عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قالوا: وما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار» أي عرقهم وصديدهم [رواه مسلم] وقال: «من مات وهو مدمن خمر لقي الله وهو كعابد وثن». [رواه الطبراني وهو في صحيح الجامع].وقال: «من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، وإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من رَدَغة الخبال يوم القيامة، قالوا: وما ردغة الخبال؟ قال :عصارة أهل النار» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].وقال: «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة». [رواه مسلم].وقال: «ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر في أهله الخبث» [رواه أحمد وغيره.]

فيا أيها الشباب الذين ينتظر منكم أهلكم ومجتمعكم أن تكونوا مفخرة لهم ، ويا من أسرفتم على أنفسكم، لا زالت الفرصة سانحة، والباب مفتوحًا، فلا تقنطوا من رحمة الله، وليكن قدوتكم سلفكم الصالح الذي ضربوا أروع الأمثلة في ثبات النفس ورباطة الجأش أمام الشيطان والشهوات.

والأنسان يستطيع أن يتخلص من العادات السيئة والادمان عليها،والمؤمنون الأوائل كانوا يرفضون التداوي بشرب الخمر ليغيبوا عن وعيهم حتى مع عدم وجود أدوات التخدير الحديثة ، وكانوا يرفضون الخمر حتى ولو كان بها علاجهم ،رحم الله عبد الله بن حذافة السهمي لما أمسك به قيصر الروم وساومه على أن يتنصر أو يموت، فقال: أموت ولا أتنصر، فأدخلوه السجن وضيقوا عليه ومنعوا عنه الطعام ثلاثة أيام حتى برزت أضلاعه، ثم قدموا له الخمر لكي يشربها فأبى أن يشربها رغم

اضطراره إليها، والضرورة لها أحكامها، طلب الموت في عز، ورفض الحياة في ذل الخمر، وباع الحياة رخيصة طلبًا للجنة الغالية، فيا له من علو، ويا له من سمو، فانظروا واعتبروا.

وهذا عروة بن الزبير أصابته الآكلة في قدمه فأشاروا عليه أن يقطعها فقال: اصبر واحتسب، فاستفحل الداء فقالوا: تقطع الساق، فقال: اصبر، فبلغ به الألم منتهاه وانتقلت الآكلة إلى ما تبقى من رجله فقالوا: تقطع من الفخذ وإلا سيموت، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قالوا: نسقيك خمرًا حتى تغيب عن وعيك، ويخف عليك الألم، فرفض قائلاً: كلا والله لا أشربها وقد حرمها الله، ولكن إذا صليت واتصلت بربي وخلفت الدنيا ورائي فافعلوا ما تشاؤون، وفعلاً اتصل بربه وناجى خالقه وتعلق بجنته والقوم قد أبرزوا مناشيرهم وسكاكينهم، فلما سجد قطعوا رجله فغاب عن وعيه. فرحمك الله يا عروة، يا من تمسكت بأوثق عروة، وجعل الله صنيعك في ميزان حسناتك، وسقاك من خمر الجنة، فتأملوا يا شباب، ولتكن قصة عروة لكم قدوة.

وهذا أبو محجن الثقفي كان يشرب الخمر فيؤتى به إلى سعد بن أبي وقاص فيجلده عليها، ويقيم الحد عليه، ثم ذات يوم خرجوا للقتال إلى معركة القادسية فعاقب سعدٌ أبا محجن بأقسى عقوبة، أتدرون ما هي؟ منعه من القتال والاستشهاد في سبيل الله فيا للعجب! ربطه في خيمة حتى ينال عقابه لكن نفسه تتوق إلى الجهاد، فرحمته سلمى زوجة سعد، فحلت وثاقه بعد أن أقنعها بقوله: إن أنا مت استرحتم مني، وإن حييت رجعت إلى القيد والحبال، وفي يوم المعركة وعك سعد ولم يستطع القتال فلم يشارك في الغزو، فامتطى الثقفي فرس سعد واسمها (البلقاء) وأبلى في المعركة بلاءً حسنًا حتى إن سعدًا ليراه ويثني عليه وعلى قتاله وهو لم يعرفه يقول سعد: (الكرَّ كَرُّ البلقاء ، والضرب ضرب أبي محجن)، وبعد المعركة عرفه فقال له: لن أجلدك بعد اليوم، بعد ما رأيت من بلائك وشجاعتك، فقال الثقفي: يا سعد، والله إني كنت أشرب الخمر فتجلدني وتطهرني، أما وقد امتنعت عن جلدي وتطهيري ، فوالله لن تدخل الخمرة فمي، فرحمك الله يا أبا محجن، فلم تكن الخمرة خندقًا يحاصرك، هزك الإيمان فكنت أسدًا مقدامًا، اتعظوا يا شباب الإسلام.

أخي المتعاطي :

مامن مدمن إلا وندم على إدمانه والمدمنون ويعترف بأضرار المخدرات، ويصف الويلات بعدما تعاطاها، يقول أحدهم: الإدمان حلقة مفرغة ليس بداخلها سوى العذاب والحرمان والوحدة واحتقار الذات،

وفي كثير من الأوقات كنت أحسد الحيوانات على طبيعتها لأنني لم أعش حياة طبيعية بل عشت عبدًا ذليلاً للمخدرات.عشت وهم اللذة وواقع الألم ولسان حالي يردد:

يـــا جرعـــة المـــوت تجـــرى بـــين أوردتـــي
كـــل الشـــياطين تجثـــو فـــي شـــراييني
يـــا جرعـــة الألـــم المحمـــوم فـــي جســـدي
يـــا دفقـــة الـــدم يـــا بتـــر الســـكاكين
الـــذل ذقتـــه مـــن بعـــد فتنتهـــا
كأنمـــا الـــذل أضـــحى بعـــض تكـــويني
المـــال فـــي هلـــك والعـــرض فـــي دنـــسٍ
والـــرأس فـــي نكـــسٍ والـــداء يردينـــي
شـــريتها وأوردتنـــي عنـــد ســـطوتها
ســـوق النخاســـة أشـــريها وتشـــريني
مـــا بـــين صـــحبة ســـوء قـــد غرقـــت بهـــم
فـــي وحـــل مفســـدة فـــي القيـــد تبقينـــي
وبـــين خـــوف كجـــنح الليـــل منســـدل
أرى بـــه الســـيف كالأشـــباح تـــأتيني

فماذا تريد يا أخي من الخمور؟ وماذا ستجنيه منها غير الشرور؟ أتريد أن تكون مجرمًا سفاكًا للدماء؟ أو صعلوكًا منتهكًا للأعراض؟ أو أرضًا خصبة للأمراض؟ أو معرضًا كرامتك ومروءتك للإجهاض؟ أيعجبك حال الذين زنوا بأمهاتهم وبناتهم! أم يرضيك ما فعله ذاك الرجل المدمن حيث أخذ السكين وذبح زوجته أمام أطفالها ذبح الخراف في شهر ربيع الآخر ١٤٢٣هـ حيث أطلق الرصاص على والده الطاعن في السن في مزرعته بعد أن وطأ البر تحت أقدامه، وجعل العقوق في ميزانه، أم تحب أن تكون نهايتك سيئة، فوالله إنك ميت وإنهم ميتون، وبين يديك ويديهم يتدلى حبل المنون.

تفت فؤادك الأيام فتً وتنحت جسمك الساعات نحتا وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت أريد أنت وليس الموت هو النهاية، وليس الانتحار هو الخلاص، إنما هناك حساب وعقاب.

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياءِ، نهايات مؤسفة لبعض المدمنين يقول هؤلاء المدمنو الذين يريدون التوبة بعض أن عضوا أصابع الندم أنقذونا من بطش المخدرات، وارحمونا من فتك المسكرات، وخذوا على أيدينا قبل الندامة والحسرات، فنحن بين خمر وحبوب مخدرة ثم حشيش ثم إبر، ثم أزمة مالية ونفسية وصحية، وجرائم أخلاقية، ثم ترويج ثم تهريب ثم سجون، ثم قتل، فالبداية سهلة والنهاية مؤلمة.

إن دماء كثير من الشباب قد تلوثت بالمخدرات وقلوبهم استشربتها، قد تقولون: مبالغ، فأقول: اسألوا رجال مكافحة المخدرات وقضبان الحديد تصدق ذلك أو تكذبه، إن بعض الشباب يحمل الحبوب في جيبه، وبعضهم يكتبها في قائمة مستلزمات رحلته، وبين حين وآخر تكتشف مصانع للخمور، فالوضع لا يخفى على يقظان، وإني لأعجب للنائم لا يدري عن الحوادث كيف نام !فتفقدوا أبناءكم واسألوا عن أصحابهم ومع مَنْ يروحون ويجيئون حتى لا تكون الصدمة موجعة، والواقعة مفزعة، الحقيقة مُرة ولكن لا بد أن نتجرعها، فلنتكاتف على الشر، ولنحاصر الخطر قبل تفاقم الأمر، فلا زال بعض الناشئة في طور التعاطي ولم يصلوا إلى حد الإدمان. لنضع أيدينا في أيدي رجال الحسبة والأمن، ولنضرب بيد من حديد على كل من يحاول العبث في ممتلكات الأمة وتخريب أعمدتها، إياكم والسكوت، فيكفي الأمة ضياعًا وحسبها مصائب.

العـــــــــين تبكـــــــــي مـــــــــن مصـــــــــابك أمتـــــــــي

فـــــــــإلى متـــــــــى يـــــــــا أمتـــــــــي ننعـــــــــاكِ

العين تبكي من مصابك أمتي

فإلى متى يا أمتي ننعاكِ

يا رجال الحسبة والأمن، امضوا على الطريق جهودكم مباركة، وأعمالكم مرئية، كثفوا الدعوة وحملات التوعية، واعلموا أن الصراع بين الحق والباطل قائم، فلا تيأسوا قال الله تعالى: (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُـــــوا اللَّهَ لَعَلَّكُـــــمْ تُفْلِحُـــــونَ([آل عمـــــران.[200 :

وأنت أيها الأب: المسؤولية عليك أكبر من غيرك، راقب أبناءك، وتعهد غرسك من البداية حتى لا تزل أقدامهم، وتتعثر الخطى أمامهم، وأما من وقع منهم في المخدرات فلا تيأس، صحيح أن الجرح غائر والعقل حائر، ولكن الأمل بالله معقود، ومهما طال ليل الباطل فإن صبح الحق سيعود.

أمل يداعب خاطري وله أدينْ

الكون ردَّد صرختي عبر السنين

فإذا عجزت الحيل وسُدت الأبواب فباب الله مفتوح، فادع له

بالهداية والصلاح، وإذا نام الأنام فقم واسأل المولى العلام أن يصلح ولدك ويجنبه المخدرات والآثام.وادع لأبنائك بالسلامة من كل ضروردد قول من قال

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا

وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ

وقلت: يا عدتي في كل نائبة

ومن عليه لكشف الضر أعتمدُ

أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها

ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً

إليك يا خير من مُدَّت إليه يدُ

فلا تردنها يا رب خائبة

فبحرُ جودك يروي كل من يرد

أصلح لي البنت والولد

اجبر خاطري المكسور يا حمد

وأنت أيها الأب: المسؤولية عليك أكبر من غيرك، راقب أبناءك، وتعهد غرسك من البداية حتى لا تزل أقدامهم، وتتعثر الخطى أمامهم، وأما من وقع منهم في المخدرات فلا تيأس، صحيح أن الجرح غائر والعقل حائر، ولكن الأمل بالله معقود، ومهما طال ليل الباطل فإن صبح الحق سيعود.

أمـــــل يـــــداعب خـــــاطري ولـــــه أديـــــنْ
الكـــــون ردَّد صـــــرخـتي عبـــــر الســـــنين

فإذا عجزت الحيل وسُدت الأبواب فباب الله مفتوح، فادع له بالهداية والصلاح، وإذا نام الأنام فقم واسأل المولى العلام أن يصلح ولدك ويجنبه المخدرات والآثام.وادع لأبنائك بالسلامة من كل ضرورد قول من قال:

لبســـــــــت ثـــــــــوب الرجـــــــــا والنـــــــــاس قـــــــــد رقـــــــــدوا
وقمـــــــــت أشـــــــــكو إلـــــــــى مـــــــــولاي مـــــــــا أجـــــــــدُ
وقلـــــــــت: يـــــــــا عـــــــــدتي فـــــــــي كـــــــــل نائـــــــــب
ومـــــــــن عليـــــــــه لكشـــــــــف الضـــــــــر أعتمـــــــــدُ
أشـــــــــكو إليـــــــــك أمـــــــــورًا أنـــــــــت تعلمهـــــــــا
مـــــــــا لـــــــــي علـــــــــى حملهـــــــــا صـــــــــبر ولا جلـــــــــد
وقـــــــــد مـــــــــددت يـــــــــدي بالـــــــــذل مبـــــــــتهلاً
إليـــــــــك يـــــــــا خيـــــــــر مـــــــــن مُـــــــــدَّت إليـــــــــه يـــــــــدُ
فـــــــــلا تردنهـــــــــا يـــــــــا رب خائبـــــــــة
فبحـــــــــرُ جـــــــــودك يـــــــــروي كـــــــــل مـــــــــن يـــــــــرد
أصـــــــــلح لـــــــــي البنـــــــــت والولـــــــــد

اجبـــــــــــــــر خـــــــــــــــاطري المكســـــــــــــــور يـــــــــــــــا صـــــــــــــــمد

العين تبكي من مصابك أمتي

فإلى متى يا أمتي ننعاكِ

يا رجال الحسبة والأمن، امضوا على الطريق جهودكم مباركة، وأعمالكم مرئية، كثفوا الدعوة وحملات التوعية، واعلموا أن الصراع بين الحق والباطل قائم، فلا تيأسوا قال الله تعالى: (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُـــــوا اللَّهَ لَعَلَّكُـــــمْ تُفْلِحُـــــونَ([آل عمـــــران.[200 :

وأنت أيها الأب: المسؤولية عليك أكبر من غيرك، راقب أبناءك، وتعهد غرسك من البداية حتى لا تزل أقدامهم، وتتعثر الخطى أمامهم، وأما من وقع منهم في المخدرات فلا تيأس، صحيح أن الجرح غائر والعقل حائر، ولكن الأمل بالله معقود، ومهما طال ليل الباطل فإن صبح الحق سيعود.

أمل يداعب خاطري وله أدينْ

الكون ردَّد صرختي عبر السنين

فإذا عجزت الحيل وسُدت الأبواب فباب الله مفتوح، فادع له

بالهداية والصلاح، وإذا نام الأنام فقم واسأل المولى العلام أن يصلح ولدك ويجنبه المخدرات والآثام.وادع لأبنائك بالسلامة من كل ضروردد قول من قال

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا

وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ

وقلت: يا عدتي في كل نائبة

ومن عليه لكشف الضر أعتمدُ

أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها

ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً

إليك يا خير من مُدَّت إليه يدُ

فلا تردنها يا رب خائبة

فبحرُ جودك يروي كل من يرد

أصلح لي البنت والولد

اجبر خاطري المكسور يا صمد

نصيحة الأندلس الضائعة والندم

بعد أن فقد الأباطرة الرومان السلطة في القرون الوسطى لم يعد أبناء أوروبا يدينون بالولاء لحاكم واحد، إلا أن الكنيسة بدأت تسد الفراغ فأصبحوا ينضوون تدريجيًا تحت ظل الكنيسة التي كانت تمثل القوة الرئيسية في العصور الوسطى المبكرة في أوروبا الغربية؛ فقامت الكنيسة ، بتنصير البرابرة تدريجيًا.. وسافر أناس، أطلق عليهم المنصرون، مسافات كبيرة لنشر النصرانية.وساعد هؤلاء المنصرون على تحضير البرابرة عن طريق إدخال الأفكار الرومانية المتعلقة بالحكم والعدالة في حياتهم. وجمعت الكنيسة الضرائب واحتفظت بالمحاكم التشريعية لمعاقبة المجرمين. فضلاً عن أن مباني الكنسية كانت بمثابة مستشفيات للمرضى ونزل للمسافرين.وأصبحت المؤسستان الكنسيتان . الكاتدرائية والدير . مركزين للتعليم في العصور الوسطى المبكرة. وكانت الكاتدرائيات كنائس للأساقفة، وكانت الأديرة لمجموعات من الناس، يطلق عليهم اسم الرهبان، قد تخلوا عن الحياة الدنيا اعتقادًا بأنها الطريق لخدمة الله بالصلاة والعمل. وساعد رهبان بعض الأديرة ورجال الدين في الكاتدرائيات على استمرار القراءة والكتابة باللغة اللاتينية، وحافظوا على عدد كبير من المخطوطات القديمة النفيسة. كما أنهم قاموا بتشييد معظم المدارس في أوروبا.

ومع كل يوم يمضي كانت الكنيسة ورجالها يسيطرون على الحياة الدينية والدنيوية وكان لهم التاثير الأكبر على كل نواحي الحياة بما في ذلك تنصيب الملوك ،فقد تولّى البابوات والأساقفة، وآخرون من كبار النصارى، وظائف حكومية عديدة وكان الملوك يخطبون ود الكنيسة لأنها ،. ووصلت العصور الوسطى المبكرة إلى أوجها خلال العهد الطويل لشارلمان.فعمل شارلمان على حماية الكنيسة من أعدائها، والحفاظ على وحدة الشعب الأوروبي في ظل الكنيسة. وفتح شارلمان معظم أوروبا الغربية، ووحد أوروبا لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية.

استغاث ابن العربي حاكم برشلونة المسلم بشارلمان في عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة. فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرتات، وحاصر مدينة بمبلونا المسيحية، وعامل البشكنس مسيحي أسبانيا الشمالية الذين لا يحصى عددهم معاملة الأعداء، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها. غير أن الفتن الإسلامية التي وعد ابن العربي بإثارتها على الخليفة والتي كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة، وترامى إليه أن السكسون ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولوني Cologce، فرأى من حسن السياسة أن يعود بجيشه إلى بلاده، واخترق بهم في وصف طويل رفيع ممرات جبال البرانس. وبينما كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسفال Roncesvalles من أعمال نافاري إذا انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكنس، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨)، وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذي أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت أغنية رولان Chancno de Roland. وسير شارلمان في عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس، واستولى به على شريط ضيق في شمالي أسبانيا الشرقي وضمه إلى فرنسيا Francia.

استسلمت له برشلونة، وأقرت أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦). وكان شارلمان في هذه الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥)، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (٧٨٩)، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠–٨٠٥)، ثم أخلد في السنة الرابعة الثلاثين من حكمه والثالثة والستين من عمره إلى السلام[٤].

كانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة في الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة، وفي الشئون الدنيوية قومس (باللاتينية: Comes) (رفيق للملك أو كونت. وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان «مبعوثي السيد» (باللاتينية: missi dominici) الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين، ويطلعون على أعمالهم، وأحكامهم، وحساباتهم، ويمنعون الربا، والاغتصاب، والمحاباة، واستغلال النفوذ، ويتلقون الشكاوي، ويردون المظالم، ويحمون "الكنيسة، والفقراء، والذين تحت الوصاية، والشعب أجمع" من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته. وكان العهد الذي عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن توضع ال«ماجنا كارتا» لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون[٤].

[عدل] تشريعات شارلمان

تعد القوانين الست والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في العصور الوسطى. فهي لا تكون مجموعة منتظمة، بل هي توسيع القوانين "الهمجية" الأقدم منها عهداً وتطبيقاً على الظروف والمطالب الجديدة. ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللمباردي: فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى، والتحكم الإلهي، والمحاكمة بالاقتتال، والعقاب ببتر الأعضاء، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير –وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة. ولم تكن هذه كلها قوانين، بل منها ما كان فتاوي

وكان شارلمان سخياً غاية السخاء على الكنيسة، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم. وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس؛ وإن ما في أقواله من القوة لينفي عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية. فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين في البلاد الأجنبية، وكان يصر في مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة في معاملة رعاياهم

المسيحيين(٣٦). وكان للأساقفة شأن كبير في مجالسه، وجمعياته، ونظامه الإداري، ولكنه كان ينظر إليهم، رغم احترامه الشديد لهم، على أنهم عماله بأمر الله، ولم يكن يتردد في أن يصدر أوامره لهم، حتى في المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق. ولقد ندد بعبارة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد في أبرشيته، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم، وقضى على ما يحدث في الأديرة من تمرد، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع "الدعارة، والسكر، والشره" بين الراهبات. سأل القساوسة في أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين "أننا نرى" بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل، ليزيدوا أملاكهم، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدي لهذه الأغراض نفسها، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورثتهم الشرعيين". على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة، وأمر بأن يؤدي إلى الكنيسة عشر غلة الأرض، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج، والوصايا، وأوصى هو نفسه بثلثي ضياعه لأسقفيات مملكته(٣٧)، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا "هبات" قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة.

[عدل] الإمبراطورية الرومانية المقدسة

ولكن ذلك لم يمنع من أن يثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة إلى استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تستند إلى كل ما كان لروما الإمبراطورية والبابوية من هيبة، وقداسة، واستقرار. ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التي لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً. ولسنا نعرف من الذي لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا

ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة الرومان، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها. وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة احتفال فخم بعيد الميلاد. فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضعه على رأس الملك. ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجبه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج، فنادوا ثلاث مرات: "ليحي شارل الأفخم، الذي توجه الله إمبراطوراً عظيماً للرومان لينشر بينهم السلام!". ومسح رأس الملك بالزيت المقدس، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس، وتقدم إليهم بمراهم الولاء التي ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقي منذ عام ٤٧٦.

وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودي مع هارون الرشيد، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس. وردّ الإمبراطور الشرقي على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد، وانتهى الأمر في عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية.

أرسل نابليون حملته إلى أسبانيا وأصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية. أي بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس تقريبا.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية وهو (الكولونيل ليموتسكي) أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا كتب قال: " كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد)

العاصمة وكان الإمبراطور نابيلون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية غير أن هذا الأمر أهمل العمل به بسبب الإضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.

ولكن الرهبان الجزويت أصحاب دواوين التفتيش الملغى عمدوا على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقاماً من القرار الصادر وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

يقول الكولونيل ليموتسكي وبينما كنت أسير في إحدى الليالي لاجتاز شارعاً يقل المرور فيه من شوارع مدريد إذ باثنين مسلحين قد هجما عليّ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب. وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش فأسرعت إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد وقصصت عليه النبأ فقال المارشال سولت لا شك بأن من يقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع وهاجم دير الديوان واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة.. "

قاوم القساوسة ذلك وحدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى تم الدخول عنوة ثم يتابع قائلاً " أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً وعلى جنودهم وحراسهم توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراس هزازة وسجاجيد فارسية وصور ومكاتب كبيرة وقد صنعت أرض هذه الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهى القصور الفخمة التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع يوقد أمام صور الرهبان ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد ".

ويكمل الكولونيل ليموتسكي قائلاً : كادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها. فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش. فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت "دي ليل" استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟!!. قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً. فماذا تريد يا لفتنانت؟!.. قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة – وكنا نرقب الماء – فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط "دي ليل" من شدة فرحه، وقال ها هو الباب، انظروا، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضئ أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: يابني: لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.قلت له، يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك!؟!.

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء. ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممداً بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.(ولنلاحظ أن هذا كان مايزال يحدث حتى بعد ٤٠٠ سنة على إنشاء دواين التفتيش لإرغام المسلمين على ترك دينهم)

يقول الكولونيل ليموتسكي كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة،

والدماء الممزوجة باللحم المفروم. يقول الكولونيل ليموتسكي هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً.كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

ويقول الكولونيل ليموتسكي: وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً وسحقها سحقاً وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك. ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً ثم أخذ ينهب ما بالدير...

هذه الشهادة لأهوال محاكم التفتيش يشيب لها الولدان

"كان هدفها تنصير المسلمين بالقوة بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية في تلك الفترة

ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم رهبان الكنيسة الإسبانية ثوارًا وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم .

ولما جاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، مزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة، ففي يوليو ١٥٠١ م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرًا خلاصته "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال". (دولة الموحدين – الصلابي نقلًا عن مصادر أخرى)

لم يقف الأمر عند حد التهجير والتنصير، وإنما تلى ذلك أن قام رئيس الأساقفة الأسباني كان يُدعى كِنِيس وكان صليبيا حاقدا قام بحرق ثمانين ألف كتاب إسلامي من مكتبة قرطبة وإشبيلية وغرناطة في يوم واحد.

وهو نفسه الذي قام بعد ذلك بما سُمّي في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام، فكانوا إذا وجدوا رجلا يدّعي النصرانية ويخفي إسلامه، كأن يجدوا في بيته مصحفا، أو يجدوه يصلي، أو يصوم أو كان لا يشرب خمرا، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذابا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل ويفسخون الفك، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت.

كانوا أيضا يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.

كل هذه الآلات الفتاكة وغيرها شاهدها جنود نابليون حين فتحوا أسبانيا بعد ذلك، وقد صوروها في كتاباتهم، وعبروا عن شناعتها بأنهم كانوا يصابون بالغثيان والقيء، بل والإغماء من مجرد تخيل أن هذه الآلات كان يُعذّب بها بشر، وقد كان يُعذّب بها مسلمون، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

"ومما يذكر.. أن هناك عذابًا اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويُجلسونها على قبر من لقبور، يضعون رأسها بين ركتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخزن شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنّية لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتُترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعًا ورعبًا.

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدوا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها...

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.فإذا عُلم أن رجلًا اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلا لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابعوا النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته.

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب "الأوتودافي" وذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة". (دولة الموحدين – الصلابي نقلًا عن مصادر أخرى)

هذه المأساة التي آثرت أن لا أذكر كثيراً من أساليب التعذيب التي جرت والتي تقشعر لها الأبدان وبالإمكان الرجوع إلى ذلك من واقع كتب التاريخ خاصة أن في أسبانيا اليوم من يتحدث صراحة عن تلك الفترة المظلمة .

وما يهمنا أن نذكر أن سقوط الأندلس لم يكن بالسقوط المفاجئ، فقد كان هذا متوقعا منذ أكثر من مائتي عام قبل الهزيمة ، إلا أنها وبمدد من بني مارين مرة، وبخلاف النصارى مرة أخرى مع بعضهم البعض، صمدت وصبرت بعض الشيء، لكن الذي حدث في النهاية هو الذي كان متوقعا

لما ازدهرت الأندلس بفضل صدق الأولين وإخلاصهم جاء من بعدهم من الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة ، وارتبطت فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة والانحطاط الكبير في الأهداف،نسوا قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١)فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ(١٢)لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء:١١،١٢،١٣].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذُلّ كما لم تعملوا للعزة وللكرامة.

فلننظر إلى مثل هذا ونقارنه بأحوال الشباب الذين انحطتّ أهدافهم، حتى أصبح حلم حياتهم أن يُحدّث فتاة من الفتيات أو يخرج معها، أو يبادلها حبا غير مشروع لا يرتضيه هو لأخته أو لابنته.

لننظر حين يُصَوّر مثل هذا الشعر هذا الحب على أنه أسمى درجات الحب، فيضحي الرجل من أجله، ويسمو عنده فوق كل حب، حتى يسمو عنده فوق حب الدين وحب الله وحب رسوله وحب الجهاد وحب الوالدين وحب الوطن وحب الفضيلة، بل وقد يضحي بحياته انتحارا إذا فارق محبوبه.

فأي انحدار هذا؟! وأي انحطاط هذا؟! وأي سفاهة وأي تفاهة أكبر من هذا؟ وقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:٢٤].

وليس ببعيد عنا ما فعله زرياب وأمثال زرياب في تاريخ الأندلس، وكيف قادوا الشباب إلى هذه الميوعة التي أسقطتها في النهاية وإلى الأبد.

العامل الثاني:

ترك الجهاد في سبيل الله، وهو أمر ملازم لمن أُغرق في الترف؛ فالجهاد سنة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزة ويموتون في عزة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنّة ويُخلّدون فيها.

افتقدت الأندلس من كانوا ينتغون الدار الآخرة ولم ينسوا نصيبهم من الدنيا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أينوافتقدوا يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومن كان على شاكلتهم حين ذُلوا وأُهينو لما تركوا الجهاد في سبيل الله، يقول تعالىظنوا أن تغيير الحال من المحال ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(٣٨)إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة:٣٨،٣٩].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتزمين بالمنهج الإسلامي أن يضحوا بأرواحهم ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإن حقيقة الأمر على عكس ذلك تماما؛ إذ لو عاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجد، وفي سلطان وملك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنّة خالدين فيها بإذن الله.

العامل الثالث:

يتبع العاملين السابقين عامل الإسراف في المعاصي، فجيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنكم لا تُنصرون على عدوكم بقوتكم ولا عُدتكم، ولكن تُنصرون عليه بطاعتكم لربكم ومعصيتهم له، فإن تساويتم في المعصية كانت لهم الغلبة عليكم بقوة العُدّة والعتاد.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسولهم ﷺ كُتب عليهم الهلكة والذلّة والصغار، يقول رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ».

وإذا كان هذا حال محقّرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فما تزال تجتمع عليه حتى تهلكه، فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعن، وأكل المال الحرام، فأي نصر يُرجى ويُتَوقّع بعد هذا.

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرها الكثير مثل:

- الفُرقَة والتَشرذُم.

- موالاة النصارى واليهود والمشركين.

وقد قال سبحانه وتعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة:١٢٠]. وقال أيضا: {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} [التوبة:١٠]. وأيضا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١]. وآيات غيرها كثير.

– لقد وسد الأمر لغير أهله في الأندلس وكان ذلك واضحا جدا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضا ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.– الجهل بالدين

وقد وضح جيدا قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحَكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوّة بعد هذا العلم، ووضح أيضا أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة،واستبد حكامهم برأيهم وأهملوا مبدأ الشورى، والذي هو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها الناس، وكيف اعتدوا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

ومثل أيضا ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لإشبيليّلة، وقد تبعه الناس في ذلك ظنا منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأيّ جهل بالدين أكثر من هذا؟!

الدرس الثاني: أمل النصر لا تخبو جذوته أبدا

بعد الدرس الأول والوقوف على عوامل وأسباب السقوط كان هذا الدرس الثاني، وهو ما نستقيه من تاريخ الأندلس، حيث إنه لا يغيب الأمل أبدا في نصر الله، فإن الله دائما ما يقيض لهذه الأمة من ينصرها، ومن يجدد لها أمر دينها.

وقد حدث مثل ذلك كثيرا في تاريخ الأنلس، كان منه ما حدث في نهاية عهد الولاة، وذلك بقيام عبد الرحمن الداخل، ثم ما حدث أيضا في نهاية الإمارة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر، وهكذا في كل عهد تجد من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، تجد يوسف بن تاشفين، وتجد يعقوب المنصور الموحدي، وتجد يعقوب المنصور المارِيني، وغيرهم الكثير.

وقد يتساءل البعض قائلا: لقد انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلية، فأين ذاك القيام، الذي من المفترض أن يكون بعد هذا الانتهاء، طالما كانت قد جرت السنة على ذلك؟!

وفي معرض الرد على مثل هذا السؤال نسوق حدثا في غاية الغرابة، فقد حدث قبل سقوط الأندلس الأخير بنحو أربعين سنة حادثا عجيبا، وأعجب منه هذا التزامن الذي فيه، فقد فُتحت القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ= ١٤٥٣ م أي قبل سقوط الأندلس بأربعين عاما، فكان غروب شمس الإسلام على أوروبا من ناحية المغرب يزامنه شروق جديد عليها من ناحية المشرق، واستبدل الله هؤلاء الذين باعوا، وأولئك الذين خانوا من ملوك غرناطة في الأندلس بغيرهم من العثمانيين المجاهدين الفاتحين الأبرار، الذين فتحوا القسطنطينية وما بعدها، وقد بدأ الإسلام ينتشر في شرق أوروبا انتشارا أسرع وأوسع مما كان عليه في بلاد الأندلس وفرنسا.

وإنها وأيم الله لآية من آيات الله سبحانه وتعالى تبعث الأمل وتبثه في نفوس المسلمين في كل وقت وكل حين، مبشرة ولسان حالها: أمة الإسلام أمة لا تموت.

الدرس الثالث: فلسطين اليوم أندلس البارحة

كان الدرس الثالث من تاريخ الأندلس هو الأخطر من نوعه، وتبدو معالمه في سؤال ربما يكون قد شغل أذهان البعض كثيرا، وهو: لماذا انتهى الإسلام بالكليّة من بلاد الأندلس؟!

فبلاد الأندلس (أسبانيا والبرتغال) هي اليوم من أقل بلاد العالم في عدد المسلمين، والذين بلغ عددهم فيها مائة ألف مسلم فقط، أي أقل من عدد المسلمين في مدينة من مدن أمريكا.

ففي مدينة دالاس الأمريكية وحدها يصل عدد المسلمين إلى مائة ألف مسلم، وهي بعد لم تكن قد حكمت بالإسلام، بينما تعداد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) وبعد أن حُكمت ثمانية قرون بالإسلام لا يزيد عن مائة ألف مسلم، وهو أمر في غاية الغرابة.

ومن هنا كان هذا السؤال: لماذا انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكليّة كأفراد وشعوب ولم ينته من البلاد الأخرى، والتي استُعمرت استعمارا صليبيا، طال أمده في بعض الدول مثل الجزائر التي احتُلت ثلاثين ومائة سنة، ومصر التي احتُلت سبعين سنة، وفلسطين احتُلت مائتي سنة في زمن الصليبيين، وغيرها من الدول الإسلامية التي غُلبت على أمرها، ورغم ذلك لم يندثر المسلمون أيا كانت طريقة اندثارهم ولم يتغيروا، وظلوا مسلمين وإلى الآن؟!

وللإجابة على هذا التساؤل لننظر أولا ما كان يفعله الاستعمار الأسباني في بلاد الأندلس، فقد كان الاستعمار الأسباني استعمارا استيطانيا إحلاليا، ما إن يدخلوا بلدا إلا قتلوا كل من فيه من المسلمين في حرب إبادة جماعية، أو يطردونهم ويهجّرونهم إلى خارج البلد، ثم يُهجّروا إليها من النصارى من أماكن مختلفة من الأندلس وفرنسا من يحل ويعيش في هذه المدن وتلك الأماكن التي خلفها المسلمون، وبذلك لم يعد يبقى في البلاد مسلمون.

وحكم البلاد وعاش فيها بعد ذلك نصارى وأبناء نصارى، على عكس ما كان يحدث في احتلال البلاد الإسلامية الأخرى مثل مصر والجزائر وليبيا وسوريا وغيرها، فإن الاحتلال في هذه البلاد كان بالجيوش لا بالشعوب، واحتلال الجيوش ولا شك مصيره إلى ردة وزوال.

وإن مثل هذا ليضع أيدينا على شيء هو في غاية الأهمية، ذلك أن الاحتلال الاستيطاني هذا الذي حدث في بلاد الأندلس لم يتكرر في أيٍ من بلاد العالم إلا في مكان واحد فقط، وهو أيضا يخص المسلمين، وهو فلسطين.

وإن ما يحدث الآن فيها وعلى أرضها ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ما يفعله اليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة في الشعب الفلسطيني بالقتل والطرد والتشريد، وإصرارهم (اليهود) على

عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم، ثم الإكثار من بناء المستعمرات، كل ذلك وغيره ما هو إلا خطوة من خطوات إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني.

فقد شُرّد الشعب الفلسطيني وبات مصيره في طي النسيان، بات العالم أجمع ينسى قضيته يوما بعد الآخر، بل بات محتملا أن ينسى هو نفسه (الشعب الفلسطيني) قضيته، وأخشى والله أن ينسى الفلسطينيون المشردون القضية تماما كما نسيها أهل الأندلس الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وإلى تونس والجزائر بعد عام أو عامين، أو حتى بعد عشرة أو مائة عام، فقد مر الآن على سقوط الأندلس خمسمائة عام، فمن يفكر في تحريرها؟!

وهكذا وعلى هذا الوضع يسير اليهود ويجمعون ويُهجّرون شتاتهم إلى بلاد فلسطين لإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني.

فكانت قضية فلسطين شديدة الشبه بالأندلس، وتُرى لماذا عُقد اتفاق السلام الأخير بين اليهود وبين الفلسطينيين، ومن بين كل بلاد العالم هناك يعقد في إحدى مدن الأندلس القديمة في مدريد؟!

كانت مفاوضات السلام تدور في أوسلو وترعاها أمريكا وروسيا وغيرها من البلاد، ومع ذلك أُقيمت في "مدريد" وفي إزالة علامات التعجب أن ذلك كان بسبب أن المفاوضات قامت في سنة ١٩٩٢ م *، وهي ذكرى سقوط الأندلس، حيث كان قد مر على سقوطها خمسمائة عام.

ففي تلك الأثناء كانت شوارع "مدريد" مكتظة بالاحتفالات والمهرجانات، حيث هزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين في هذه الموقعة القديمة منذ خمسمائة عام، وكأنهم يبعثون برسالة مفادها: ها هو التاريخ يتكرر، وها هي أحداث الأندلس تتكرر من جديد في فلسطين، وها هي الانتفاضة التي تحدث في فلسطين تُقتَل كما قُتلت من قبل انتفاضة موسى بن أبي غسّان في غرناطة، ها هو التاريخ يتكرر، لا داعي للحرب ولا داعي للجدال والمحاورات الكثيرة؛ فإن مصيركم هو ما حدث في الأندلس من قبل.

أبو البقاء الرندي (٦٠١ – ٦٨٤ هـ / ١٢٠٤ – ١٢٨٥م) وقصيدته في رثاء الأندلس:

التعريف به:

هو صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرندي، أبو البقاء.

وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطيب وهو مشهور في المشرق بأبي البقاء.

وهو أديب شاعر ناقد قضى معظم أيامه في مدينة رندة واتصل ببلاط بني نصر (ابن الأحمر) في غرناطة.

وكان يفد عليهم ويمدحهم وينال جوائزهم وكان يفيد من مجالس علمائها ومن الاختلاط بأدبائها كما كان ينشدهم من شعره أيضاً.

وقال عنه عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة كان خاتمة الأدباء في الأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ونثره فقيهاً حافظاً فرضياً له مقامات بديعة في أغراض شتى وكلامه نظماً ونثراً مدون... "الموسوعة الشعرية"

مملكة غرناطة ودورها في سقوط إشبيلية

لم يبقَ في الأندلس بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب من المدن الإسلامية سوى ولاية غرناطة وولاية إشبيلية، وكان حاكم غرناطة قد عقد معاهدة مع ملك قشتالة، وكان من نصوص المعاهدة أن يحارب مع ملك قشتالة أيًّا كانت الدولة التي سيحاربها، ووصل الأمر إلى مساعدة ملك قشتالة في حصار إشبيلية، لتسقط هذه المدينة الإسلامية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م.

سقوط مملكة غرناطة

بعد أن سقطت إشبيلية نقض النصارى الهدنة مع غرناطة، واتجهوا ليحاصروها، ومن ثَمَّ استعان الأندلسيون بيعقوب بن منصور المارِيني وولده يوسف ليساعدوهم في الانتصار على أعدائهم النصارى، ولكن أثناء مساعدتهم لهم شعر الأندلسيون بالخوف على ملكهم بعد رد الهجمات عليهم أن يأخذه المرينيون الذين هبوا لمساعدتهم ،وبدلاً من وضع يدهم بيد إخوانهم المسلمين الذين جاؤوا لينقذوهم ضاق أفقهم وغلبت عليهم الأنانية فاستعانوا بأعدائهم على إخوانهم بالنصارى ضدهم، لا بل إنهم احتلوا سبتة في بلاد المغرب ،وبذلك انقطعت المساعدات بلاد المغرب للأندلس إلى الأبد.

لا بد من الاستفادة من تاريخ الأندلس لننظر لماذا انتهى الإسلام من الأندلس، ولم يبق بها من المسلمين إلا العدد القليل، وكان ذلك بسبب ما فعله غزاتهم في بلاد الأندلس من إبادة المسلمين إبادة جماعية، وطردهم وتهجيرهم خارج الأندلس.

وبما أن في صفحات التاريخ عبر ومواعظ، فلا بد أن نستفيد مما حدث بالأندلس، ونرى أن ما يفعلهاليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة الشعب الفلسطيني بالقتلوالطرد والتشريد، ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ويجب أن ننتبه لذلك، ونعرف ما هو دور الشعوب والأفراد في قضية فلسطين حتى لا تصبح أندلسَ أخرى.

-

الوضع الآن هو سقوط دولة الموحدين على إثر موقعة العقاب، ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة، وسقطت جيان في سنة ٦٤٣ هـ= ١٢٤٥ م.

هذا ولم يبق في الأندلس إلا ولايتان فقط كبيرتان نسبيا، الأولى هي ولاية غرناطة، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥ % من بلاد الأندلس، والثانية هي ولاية إشبيلية، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠ % من أرض الأندلس.

هاتان الولايتان هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب كما ذكرنا أن يظل الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة، ولا بد من وقفة معها بعض الشيء.

ابن الأحمر وملك قشتالة ومعاهدة الخزي والشنار

في نفس العام التي سقطت فيه جيان، وفيسنة ٦٤٣ هـ= ١٢٤٥ م وحماية لحقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات.

وقبل أن نتحدث عن بنود هذه الاتفاقية وتلك المعاهدة، نتعرف أولا على أحد طرفي هذه المعاهدة وهو ابن الأحمر، فهو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ لكن شتّان بين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا، وبين سعد بن عبادة الخزرجي، وقد سُمّي بابن الأحمر لاحمرار لون شعره، ولم يكن هذا اسما له، بل لقبا له ولأبنائه من بعده حتى نهاية حكم المسلمين في غرناطة.

لما تزوج فرناندو الثالث ملك أراجون من إيزابيلا وريثةعرش قشتالة، ثم اتحدوا معًا وكونواملكة إسبانيا، وكان ذلك في سنة ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤م، واستغل ملك إسبانيا أوضاع الأندلس واستطاع أن يدخلها صلحًا على أن لا يمسَّ المسلمين،

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر مذلة ومنها:

أولا: أن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويا، وكان هذا تجسيدا لحال الأمة الإسلامية، وتعبيرا عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهابة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانيا: أن يحضر بلاطه كأحد ولاته على البلاد، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنيا.

ثالثا: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية، وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماما.

رابعا: أن يسلمه ما بقي من حصون جيّان– المدينة التي سقطت أخيرا– وأرجونه وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وحصون أخرى كثيرة تقع كلها في غرب غرناطة، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها.

خامسا: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك، أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أيا كانت الدولة التي يحاربها.

ومع هذه الشروط المذلة التي ولكن هذا لم يحدث، فما إن دخلوا الأندلس حتى هجَّروا من فيها من المسلمين، ونصَّروا من ظل بها، وأقاموا محاكم التفتيش للبحث عَمَّن يخفي إسلامه، وأبادوا من بها من المسلمين.

ولنستمع إلى أبي البقاء الرندي وهو يرثي الأندلس فيقول:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأيامُ كما شاهدتها دُولٌ مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حالٍ لها شان

يُمزق الدهر حتمًا كل سابغةٍ إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ

وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْكان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان

أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟

وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ ؟

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ ؟

أتى على الكُل أمر لا مَرد له حتى قَضَوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ

دارَ الزّمانُ على (دارا) وقاتِلِه وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ

كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببُ يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ

وللحوادث سُلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له هوى له أُحدٌ وانهدْ ثهلانُ

أصابها العينُ في الإسلام فامتحنتْ حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ

فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ (مُرسيةً) وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ)وأين (قُرطبةٌ) دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ

وأين (حْمص)ُ وما تحويه من نزهٍ ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ

قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ

تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من; ! أسفٍ كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ

حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ

وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ ؟

تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ

يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً كأنها في مجال السبقِ عقبانُ

وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفةً كأنها في ظلام النقع نيرانُ

وراتعين وراء البحر في دعةٍ لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ ؟

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟

لماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ ؟

ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزّهمُ أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ

ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ

يا ربَّ أمٍ وطفلٍ حيلَ بينهما كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ

وطفلةً مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةُ والقلبُ حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

كان ينبغي أن نقف مع تاريخ الأندلس وقفات ، نأخذ منه العبرة والدرس، وتكرر ما حدث فيه من أفعال العظماء، وفي ذات الوقت نتتجنب أفعال الأقزام، تلك التي أدت إلى هذه الحال التي رأيناها آخر عهود الأندلس وفترات السقوط.

إن لكن الناس لم يتعظوا ونسوا تلك المآسي والأهوال حتى حل بهم ماحل بالأندلس وأكثر . وقد تشاءم البعض من قصائد لم ترث من غرناطة إلا صور الرقص والأغاني والعشاق التي سادت في زمن الغفلة وسبقت سقوطها ولم يتنبهوا أو ينبهوا الناس وحكامهم إلى ما حدث في الأندلس ينتظرهم ،وهذا ماحدث . يقول السرجاني: عن هذا الرثاء لهم وذكر من تاريخ النذير لننظر إلى ذاك الرجل الذي كان يرثي سقوط غرناطة ونعي ما يقول في شعره الذي كان يعد كما ذكرنا إعلام هذا العصر الذي يُحَفّز الناس على أفكار معينة، يقول يرثي غرناطة:

غرناطة يا أجمل المدن

لن تَسريَ بعد اليوم نغمات العود الناعمة

في شوارعك المُقمرة

ولن تُسمع ألحان العُشّاق

تحت قصورك العالية

وستسكت دقات الصنوج المرحة

التي كانت تتناغم فوق تلالك الخصبة

وستقف الرقصات الجميلة

تحت عرائشك الوريفة

واحسرتاه

لن يستمع عربي بعد اليوم إلى البلابل

تصدح في مروجك الفسيحة

ولن يُستَروح أريج الريحان وأزهار البرتقال

في ربوعك المؤنسة

لأن نور الحمراء أُطفئ إلى الأبد

فحتى بعد هذا السقوط الشنيع لغرناطة يقف هذا الرجل وبهذه الكلمات الفجة يرثيها، هذا ما كان يهمه في هذه البلاد، نسي الناس لا يهمه الثغور التي خرجت منها الجيوش تجاهد في سبيل الله، ونسوا لا يهمه المكتبات التي أُحرقت، ونسوا اللا المساجد التي دُنّست وحُولت إلى كنائس،ونسوا بل لا يهمه المسلمون الذين عذبوا وقُتلوا بأيدي محاكم التفتيش إلى أن جاء عليهم يوم ذاقوا فيه نفس الكأس الذي شربه أهل الأندلس .لم تكن الأندلس أول ولا آخر مآسينا ولننظر إلى مايحل بنا اليوم وبإخواننا لنفكر ونعتبر ،ولندرس الأسباب والمسببات ولايعتقد أحد أنه ناج من عواقب الأيام فانظر إلى من كانوا يعيشون عيشة أمن واطمئنان ماذا حل بهم من أهوال ومحن لذنب لم يرتكبوه ورب يوم يأتي أشد من ذلك على قوم آمنين لم يعتبروا بما حل بإخوانهم وحينها يعضون أصابع الندم ولكن بعد العدم .

النصيحة الخاطئة والندم

بنقل إلى فقرة النصيحة

أحياناً يأتي العض على أصابع الندم حتى بعد استشارة الخبراء ولذلك يجب استشارة أكثر من جهة واحدة للمقارنة قبل اتخاذ القرار نخاصة إذا كان الأمر يتعلق بصفقات تجارية أو مؤسسات مصرفية .وهذا مع أحد أكبر المصارف العالمية الذي أخطأ الاستشارة فلحقت به خسائر جسيمة .

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

بعض المعلومات الواردة في هذه المقالة أو هذا المقطع لم تدقق وقد لا تكون موثوقة بما يكفي، وتحتاج إلـــى اهتمـــام مـــن قبـــل خبيـــر أو مخـــتص فـــي المجـــال. يمكنك أن تساعد ويكيبيديا بتدقيق المعلومات والمصادر الواردة في هذه المقالة/المقطع، قم بالتعديلات اللازمة، وعزز المعلومات بالمصادر والمراجع اللازمة.

عض المسؤولون عن أحد البنوك السويسرية أصابع الندم بسبب الإستشارة الخاطئة بعد أن أعلن أحد البنوك السويسرية العريقة حينما أعلن ذلك البنك أوضح تقرير مصرف يو بي إس السويسري في بيان له أسباب إفلاس المصرف بأن سوء تقدير درجات المخاطرة في المعاملات المعقدة المرتبطة بالرهن العقاري كانت من أهم أسباب تلك خسارته الفادحة، كما برر المصرف وعزا ذلك إلى رغبة القائمين على قطاع الرهن العقاري في تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح بقطاع الاستثمارات العقارية، طمعاً في الوصول إلى مرتبة متميزة على مستوى العالم.كما اعترف التقرير بأنه رغم دراية مجموعة العمل المتخصصة في إدارة الاستثمارات العقارية بالمخاطر المحيطة بالسوق الأميركية، إلا أنها لم تطالب بتقييم تأثير تلك المخاطر على معاملاتها، كما أنها لم تضع في حسبانها حداً أقصى لتعاملاتها في قطاع الرهن العقاري الأميركية. اجد في نهاية المطاف ان الازمة المالية إذا لم تغير مسارها في الراسمالية من خلال رفع أسعار الفوائد انها مهددة بخسارة عارمة لاتشمل فقط القطاع العقاري بل جميع المجالات فعلي الدول الكبرى الاستفادة من خبرات بنوك عدم الفوائد. ووفقاً للتقرير الصادر، فإن جذور المشكلة لهذا البنك لبنك مصرف يو بي إس تعود إلى العام ٢٠٠٥م، حيث قدمت نصحت مجموعة من الخبراء من خارج المصرف نصيحة خاطئة للبنك بالتعامل مع سندات الرهن العقاري الأميركية، فانساق البنك وراء تلك

التوصية، واندفع بقوة في شراء وتأسيس حقائب استثمارية رفعت من مكانة البنك في الأسواق العالمية بعد بيعها للمستثمرين.وما فاقم من حجم الخسائر أن البنك المصرف قام بالاستثمار بقوة في بعض صناديق الاحتياط حتى إغلاقها بخسارة كبيرة، ليكتشف خبراؤه ء مصرف يو بي إس أن تعاملاتها لم تكن تتمتع بالشفافية الكاملة، بل لم يقم الخبراء بأي دراسة حول نسبة المخاطر المحتملة فيها.وكانت النتيجة خسارة قدرت بمليارات من أصول البنك .وقد تزامن نشر تلك النتائج مع إعلان البنك المصرف التجاري الألماني عن عمل دراسة حول أكثر المصارف تضرراً من أزمة الرهن العقاري الأميركية، وقد وُجِدَ أن البنوك السويسرية خسرت في المتوسط ٤٠% من أصولها المالية، لتحتل بذلك المرتبة الثانية بعد بعض المؤسسات المالية الأميركية، بينما اكتفت المؤسسات المالية الألمانية بتراجع نسبته ١٥% في أصولها، وكانت بريطانيا أقلها خسارة بنسبة ٥%.

وإذا أردنا أن نعدد أسباب الانهيار الاقتصادي الذي أثر على الاقتصاد العالمي في السنوات الأربع الماضية والذي بدأت بوادره في عام ٢٠٠٧ ولازالت تداعياته مستمرة إلى يومنا هذا وربما تستمر لعقد قادم فإن الأسباب كثيرة ،ولكننا سنكتفي بذكر سبب واحد تم تجاهل النصائح التي قدمت بشأنه إلى أن وقعت الواقعة الاقتصادية فعض الجميع على أصابع الندم .

ووفق بعض التحليلات التي حاولت تشخيص الأسباب والمسببات ، فإن النصائح بشأن الرهن العقاري في أمريكا لم يتم الاصغاء إليها جيداً وبدأ تسويق العقارات في أمريكا لمحدودي الدخل بطريقة كانت في مجملها التفافا على قوانين البلد والحد الائتماني ، وكانت عقود الشراء محبوكة بطريقة جشعة تجعل القسط يرتفع مع طول المدة، وعند عدم السداد لمرة واحدة تأخذ فوائد القسط ثلاثة أضعاف عن الشهر الذي لم يتم سداده ، ليس هذا فحسب بل إن هناك بنودا في العقود ترفع الفائدة عند تغيرها من البنك الفيدرالي الأمريكي .

نجحت بعض شركات العقار في تسويق المنازل لمحدودي الدخل ونجحت بالالتفاف على قوانين الحد الائتماني، مما نتج عنه ارتفاع بأسعار العقار، ومن ثم أصبحت منازل محدودي الدخل تقدر بمبالغ

تتعدى قيمة الشراء الحقيقة للمشترين الأوائل ، فبدأ محدودو الدخل بأخذ قروض من البنوك بضمان منازلهم التي لم تسدد بالأساس وكان الاعتماد بصرف هذه القروض على فرق السعر بين المطلوب والقيمة في السوق، ولكن بعد فترة وبعد أن بدأت سلبيات العقود المحبوكة تطفو على الساحة وأصبحت الأقساط الشهرية لا تطاق امتنع كثيرين عن الدفع وبدأت أسعار العقار تهوي للأسفل.

حينما أحست معظم البنوك وشركات العقار بالخطر لجأت إلى طريقة أخرى تخفف بها من المصيبة الاقتصادية القادمة ، فقامت ببيع ديون المواطنين على شكل سندات لمستثمرين عالميين بضمان المنازل. ولكن بعد فترة أحس بعض المستثمرين العالمين وبعد تفاقم مشكلة الرهن العقاريبالخطر لجأ هؤلاء المستثمرون إلى بعض شركات التأمين للتأمين على استثماراتهم ، وذلك بضمان المنازل فيما لو امتنع المواطنون من ذوي الدخل المحدود عن سداد قيمة رهن منازلهم، فوجدت شركات التأمين في أزمة الرهن العقاري فرصةً للربح لذلك قامت شركات التأمين بتصنيف سندات الديون إلى فئتين: الفئة (أ) قابلة للسداد، والفئة (ب) لا يمكن سدادها، ثم بدأت شركات التأمين تلك بأخذ أقساط التأمين على السندات من المستثمرين العالميين.

وباتت المشكلة معقدة ومتشابكة، فالمواطنون من ذوي الدخل المحدود يظنون أن المنزل ملكهم، وشركات العقارات التي لم تستلم قيمة المنازل كاملةً اعتمدت أن المنازل لها، وفي نفس الوقت اطمأنت البنوك أن المنازل لها بحكم ما أخذه محدودو الدخل من قروض بضمان المنازل، وفي نفس الوقت كانت شركات التأمين تعتقد أن المنازل مضمونة لها بحكم التزامها بدفع مبالغ السندات للمستثمرين الدوليين وذلك في حال عدم سداد قيمة الرهن للمواطنين محدودي الدخل.

ما لذي حدث بعد ذلك ؟

توقف محدودوا الدخل عن دفع أقساط رهن منازلهم بعد أن أرهقتهم الأقساط المتزايدة. مما اضطر الشركات والبنوك إلى محاولة بيع المنازل لحل النزاع؛ فأدى إلى احتجاجات أصحاب المنازل المرهونة والذين رفضوا بدورهم التخلي عن منازلهم والخروج منها مما دفع بقيمة العقار إلى الهبوط، ثم اكتشف بعد

ذلك أن قيمة الرهن المدفوعة لم تعد تغطي تأمينات البنوك ولا شركات العقار ولا التأمين. مما أثر بدوره علي سندات المستثمرين الدوليين فطالبوا بحقوقهم من شركات التأمين فأعلنت أكبر شركة تأمين في العالم ايه آي جي عدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها تجاه ٦٤ مليون عميل تقريباً مما دفع بالحكومة الأمريكية إلى منحها مساعدة بقيمة ٨٥ مليار دولار مقابل امتلاك ٧٩,٩% من رأسمالها. ولحقها كثير من البنوك الأمريكية مثل: مورجان ستانلي وغولدمن ساكس. ولا زالت أزمة الرهن العقاري مستمرة. فلا محدودي الدخل يريدون التخلي عن منازلهم والخروج منها. ولا المنازل تساوي قيمه الشراء أو قيمه القروض. فالمنزل الذي سعره ٢٠ ألف دولار مثلاً عليه ديون تبلغ ١٠٠ ألف دولار تقريبا

لاشك أنه كان هناك من الخبراء والمحللين الاقتصاديين من نبه إلى خطورة حرية الاقتصاد الزائدة عن الحد الاندفاع وراء الأرباح غير المدروسة ،ولكن نصائحهم ذهبت سدى حتى أصبح مستصغر الشرر ضراما ، فمرت الأزمة بعدة مراحل في أمريكا وأوربا وبقية دول العالم نلخص بعضها فيما يلي حتى تعي الحكومات والمستثمرون وعامة الناس خطورة اتخاذ خطوات غير مدروسة يعضون بعدها أصابع الندم ولكن بعد فوات الأوان:

فيما يلي المراحل الكبرى التي مرت بها الأزمة المالية التي اندلعت في بداية ٢٠٠٧ في الولايات المتحدة وبدأت تضرب أوروبا.

في

فبراير ٢٠٠٧: زادت حالات عدم تسديد تسليفات الرهن العقاري (الممنوحة لمدينين لا يتمتعون بقدرة كافية على التسديد) في الولايات المتحدة وتسبب ذلك في أولى عمليات الإفلاس في مؤسسات مصرفية متخصصة.

أغسطس ٢٠٠٧:تدهورت البورصات أمام مخاطر اتساع الأزمة فتدخلت المصارف المركزية لدعم سوق السيولة.

أكتوبر – ديسمبر ٢٠٠٧: أعلنت مصارف كبرى عن انخفاض كبير في أسعار أسهمها بسبب أزمة الرهن العقاري.

٢٢ يناير ٢٠٠٨: خفض الاحتياطي الفدرالي الأمريكي (البنك المركزي) معدل فائدته الرئيسية ثلاثة أرباع النقطة إلي ٣,٥٠% وهو إجراء ذو حجم استثنائي، ثم تخفيضه تدريجياً إلي ٢% بين يناير وأبريل.٢٠٠٨

١٧ فبراير ٢٠٠٨:وامتد أثر ذلك إلى بريطانيا التي أممت بنك أحد البنوك البريطانية الكبيرة نورذرن روك.

١١ مارس ٢٠٠٨: تضافرت جهود المصارف المركزية مجدداً لمعالجة سوق التسليفات.

١٦ مارس ٢٠٠٨: جي بي مورجان تشيز يعلن شراء بنك الأعمال الأمريكي بير ستيرنز بسعر متدن ومع المساعدة المالية للاحتياطي الفدرالي.

٢٤ إبريل ٢٠٠٨: قام مصرف يو بي إس السويسري بنشر نتائج التحقيقات الداخلية حول الأسباب الحقيقية وراء خسارته الفادحة جراء أزمة الرهن العقاري الأميركية، والتي أدت إلى شطب ٤٠ مليار دولار من أصوله، في أكبر خسارة يتعرض لها أول مصرف سويسري، والمصنف الثالث أوروبياً، والأول عالمياً في مجال إدارة الثروات الخاصة.

٣٠ مايو ٢٠٠٨: قال مسؤول بوزارة الخزانة الأميركية إن أزمة الرهن العقاري بدأت تخف بعد الجهود التي قام بها الاحتياطي الاتحادي والبنوك المركزية الأخرى لضخ الأموال في المؤسسات المالية. وقال كلي لوري مساعد وزير الخزانة للشؤون الدولية إن الاحتياطي الاتحادي والبنوك الأخرى تنسق جهودها لحماية النظام المالي من الاضطراب بعدما ظهرت أزمة قروض الرهن العقاري سنة ٢٠٠٧م, كما أشار لوري إلى أن المؤسسات المالية أبلغت عن خسائر زادت عن ٣٠٠ مليار دولار بسبب الأزمة المالية،

لكن تم تخفيف هذه المشكلة بتوفير ٢٠٠ مليار دولار من البنوك المركزية؛ مما ساعد البنوك في توفير القروض.

٧ سبتمبر ٢٠٠٨: وزارة الخزانة الأمريكية تضع المجموعتين العملاقتين في مجال تسليفات الرهن العقاري فريدي ماك وفاني ماي تحت الوصاية طيلة الفترة التي تحتاجانها لإعادة هيكلة ماليتهما، مع كفالة ديونهما حتى حدود ٢٠٠ مليار دولار.

١٥ سبتمبر ٢٠٠٨: اعتراف بنك الأعمال ليمان براذرز بإفلاسه، بينما يعلن أحد ابرز المصارف الأمريكية، بنك اوف أميركا، شراء بنك آخر للأعمال في وول ستريت هو ميريل لينش، واتفقت عشرة مصارف دولية على إنشاء صندوق للسيولة برأسمال ٧٠ مليار دولار لمواجهة أكثر حاجاتها إلحاحاً في حين وافقت المصارف المركزية على فتح مجالات التسليف؛ إلا أن ذلك لم يمنع تراجع البورصات العالمية.

١٦ سبتمبر ٢٠٠٨: أمم مجلس الاحتياطي الفدرالي والحكومة الأمريكية أكبر مجموعة تأمين في العالم ايه آي جي المهددة بالإفلاس عبر منحها مساعدة بقيمة ٨٥ مليار دولار مقابل امتلاك ٧٩,٩% من رأسمالها.

١٧ سبتمبر ٢٠٠٨:واصلت البورصات العالمية تدهورها مع ضعف في التسليف في النظام المالي، وقامت المصارف المركزية بتكثيف العمليات الرامية إلي تقديم السيولة للمؤسسات المالية.

١٨ سبتمبر ٢٠٠٨: اشتري البنك البريطاني لويد تي إس بي منافسه إتش بي أو إس المهدد بالإفلاس. السلطات الأمريكية تعلن أنها تعد خطة بقيمة ٧٠٠ مليار دولار لتخليص المصارف من أصولها غير القابلة للبيع.

١٩ سبتمبر ٢٠٠٨: الرئيس الأمريكي جورج بوش يوجه نداء إلى التحرك فوراً حيال خطة لإنقاذ المصارف لتفادي تفاقم الأزمة في الولايات المتحدة.

٢٣ سبتمبر ٢٠٠٨ : الأزمة المالية تطغى على المناقشات خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. الأسواق المالية تضاعف قلقها أمام المماطلة حيال الخطة الأمريكية.

٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨: انهيار سعر سهم المجموعة المصرفية والتأمين البلجيكية الهولندية فورتيس في البورصة بسبب شكوك حول قدرتها على الوفاء بالتزاماتها، وفي الولايات المتحدة، يشتري بنك جي بي مورغان منافسه واشنطن ميوتشوال بمساعدة السلطات الفدرالية.

٢٨ سبتمبر ٢٠٠٨: خطة الإنقاذ الأمريكية موضع اتفاق في الكونغرس. وفي أوروبا، يجري تعويم فورتيس من قبل سلطات بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج، وفي بريطانيا، يجري تأميم بنك برادفورد وبينجلي.

٢٠٠٨: مجلس النواب الأمريكي يرفض خطة الإنقاذ. وبورصة وول ستريت تنهار. كما تراجعت البورصات الأوروبية بقوة هي الأخرى وفي وقت سابق خلال النهار؛ وفي اللحظة ذاتها واصلت معدلات الفوائد بين المصارف ارتفاعها مانعةً المصارف من إعادة تمويل ذاتها. وقبل رفض الخطة، أعلن بنك سيتي جروب الأمريكي انه يشتري منافسه واكوفيا بمساعدة السلطات الفدرالية. وفي البرازيل، تم تعليق جلسة التداول في البورصة التي سجلت خسارة تفوق ١٠%.

بنك ليمان برادرز

كان بنك ليمان براذرز يُعد حتى وقت قريب رابع أكبر مصرف استثماري بالولايات المتحدة، أسسه ثلاثة مهاجرين ألمان كانوا يتاجرون بالقطن عام ١٨٥٠م. ويعمل لدى البنك ٢٥٩٣٥ موظفا بشتى أنحاء العالم.

وكان ريتشارد فولد هو الذي شغل منصب الرئيس التنفيذي في بنك ليمان برادرز، حيث وصف بأنه رائد الخبراء الماليين في مجاله.

وتسبب إفلاس بنك ليمان برادرز بآثار سلبية كبيرة على الأسواق العالمية، فأدى إلى تراجع الأسواق الرئيسية بالعالم، ولم تكن الساحة العربية بمعزل عن ذلك حيث لحقها ضرر كبير مما أدى إلى انهيار عدد من أسواقها.

كما اعتبر المتخصصون الاقتصاديون إفلاس بنك ليمان أشهر حالة في وول ستريت منذ انهيار مؤسسة دركسل برنام لامبرت المتخصصة بالسندات عالية المخاطر عام ١٩٩٠م.

واجه البنك صعوبات جمة جراء أزمة العقار التي عصفت بالولايات المتحدة منذ منتصف العام ٢٠٠٧م.

كما اضطر بنك ليمان برادرز لإسقاط أصول مالية بقيمة ٥,٦ مليارات دولار بالربع الثالث من العام ٢٠٠٧م، وأعلن عن خسارة بلغت ٣,٩ مليارات للربع الثاني من عام ٢٠٠٨م.

وتفاقمت الأزمة المالية في بنك ليمان حتى أشهر إفلاسه بتاريخ ١٥ أيلول، ٢٠٠٨م عقب فشل جهود بُذلت من طرف إدارة البنك لإنقاذه، وتقدم البنك بطلب إشهار الإفلاس إلى محكمة الإفلاس في منطقة جنوب نيويورك.

وخسر سهم بنك ليمان أكثر من ٩٢% من قيمته بالمقارنة بأعلى مستوياته عند ٦٧,٧٣ دولاراً في شهر تشرين الثاني، ٢٠٠٧ م.

[عدل] تداعيات أزمة الرهن العقاري في الولايات المتحدة

واجهت شركة التأمين الأميركية: أميركان إنترناشونال غروب (أيه آي جي)، والتي تعتبر من أكبر شركات التأمين في العالم، مخاطر جسيمة بعد الأزمة المالية التي ما زالت تعصف بالاقتصاد الأميركي إثر الإعلان عن إفلاس ليمان براذرز الاستثماري وفرض بيع بنك ميريل لينش المنافس، وذلك في أكبر صدمة للقطاع المالي منذ الكساد الكبير عام ١٩٢٩م.

واستعان مجلس الاحتياطي الاتحادي (البنك المركزي الأميركي) ببنك مورغان ستانلي الاستثماري ليراجع الخيارات لشركة أيه آي جي للتأمين التي فقدت حوالي ٩٠% من قيمتها منذ مطلع العام الجاري.

وبحث المجلس إمكانية ترتيب قروض تتراوح بين سبعين و ٧٥ مليار دولار لدعم شركة (أيه آي جي) بالإضافة إلى خيارات مالية أخرى، وتحول إلى غولدمان ساكس وجيبي مورغان المستشار المالي للشركة لبحث مجموعة من الخيارات مشيراً إلى أن التسهيل الائتماني الذي سيكون قرضاً مجمعاً من عدد من البنوك هو مجرد أحد الخيارات التي تم بحثها.

كما كشف الاحتياطي الاتحادي عن خطته لزيادة قروضه للبنوك والمؤسسات المالية، وتوسيع نطاق المؤسسات والشركات التي يمكنها الاستفادة من هذه التسهيلات.

وقال رئيس البنك الاتحادي بن برنانكي إنه يناقش مع مشاركين بالسوق نقاط الضعف والهشاشة بالسوق بعد انهيار مؤسسة مالية كبرى، والردود المناسبة من قبل القطاعين الرسمي والخاص على ذلك.

وجاءت هذه المواقف في ظل مخاوف متزايدة من حصول انهيار مالي عالمي نتيجة الأزمة الاقتصادية الأميركية.

وذكر مارك بادو المحلل الإستراتيجي في كانتور فيتزغيرالد آند كو في سان فرانسيسكو أن "القلق بالنسبة لبنك أوف أميركا يتمثل في الدين الذي يكتسبه" مضيفا أن هناك خشية من أن يكون البنك قد قضم قطعة أكبر من قدرته.

ومع سقوط المزيد من الضحايا الجدد والأكبر للأزمة المتزايدة، قال مجلس الاحتياطي الاتحادي للمرة الأولى إنه سيقبل أسهما مقابل قروض نقدية.

وكانت عشرة من أكبر بنوك العالم قد اتفقت على إنشاء صندوق طوارىء بحجم سبعين مليار دولار، على أن يكون باستطاعة أي منهم الحصول على ما يصل ثلث هذا المبلغ.

وفي الأسواق المالية كان سهم بنك أوف أميركا الأكثر تراجعا رغم أن البنك سيتجاوز منافسه سيتي غروب، ليصبح أكبر بنك في البلاد من حيث الأصول من خلال الاستحواذ المقرر على ميريل لينش.

وأغلق مؤشر داو جونز الصناعي منخفضا بنسبة ٤,٤%، في حين تراجع مؤشر ستاندرد آند بورز بنسبة ٤,٧%. وانخفضت أسهم ليمان بنسبة ٩٥% إلى ١٨ سنتا.

طالت تداعيات أزمة الرهن العقاري الأميركية مختلف القطاعات الاقتصادية في الولايات المتحدة وأوروبا وأدت إلى خسائر مالية لا يمكن حصرها وتكبدت البنوك خسائر ضخمة وأعلن إفلاس وانهيار بعضها.

وقالت إن الأزمة الائتمانية ترجع إلى توقف عدد كبير من المقترضين عن سداد الأقساط المالية المستحقة عليهم مما أدى إلى تكبد أكبر مؤسستين للرهن العقاري في أميركا وهما فاني ماي وفريدي ماك خسائر بالغة جعلت وزارة الخزانة الأميركية تضطر لإنقاذهما لأول مرة من نوعها مما كان له دور في إنقاذ الاقتصاد العالمي أيضا.

وأضافت أن المؤسستين الأخيرتين تتعاملان بمبلغ ستة تريليونات دولار وهو مبلغ يعادل ستة أمثال حجم اقتصاديات الدول العربية مجتمعة.

وأكدت أن الأزمة المالية الحالية لم يشهد مثلها العالم منذ قرن من الزمان وستكون لها تداعيات على عدة بنوك وستنهار مصارف أو تعلن إفلاسها.

وتطرقت خبيرة التمويل إلى عدم معرفة المحفظة الاستثمارية لمؤسسات مالية عديدة ولا يعرف مدى الخسائر فيها وتأثرت المؤسسات المالية بعامل الثقة بين المستثمرين مما أثار مخاوف من إحجام المستثمرين عن الاستثمار وتداعيات أخرى.

ورأت أنه لا يمكن الفصل بين أسواق المال سواء الأسهم أو سندات العقار أو العملات أو البنوك فكلها مرتبط بعضه ببعض.

واعتبرت أن من الصعب التكهن بما سيحدث خلال الأيام المقبلة وما سيتخذه مجلس الاحتياطي الاتحادي (البنك المركزي الأميركي) من خطوات لمواجهة الأزمة المالية الحالية.

وأكد الرئيس الأميركي آنذاك جورج بوش سعي إدارته للحد من تأثير إفلاس بنك ليمان برذرز وما يرتبط به من تطورات على الأسواق المالية.

وأشهر مصرف "ليمان برذرز"، رابع أكبر بنك بالولايات المتحدة، إفلاسه في ساعة مبكرة الاثنين عقب فشل الجهود المبذولة لإنقاذه، وقدم البنك إشهار إفلاسه إلى محكمة الإفلاس لمنطقة جنوب نيويورك. وبرر البنك هذه الخطوة بالمحافظة على أكبر حد ممكن من قيمته وحماية أصوله.

وهكذا تكبد ليمان برذرز خسائر تقدر بمليارات الدولارات بسبب استثماراته في سوق الرهن العقاري.

ولجأت سلطات مراقبة المصارف الأميركية إلى إغلاق بنك فيرست ناشيونال بنك أوف نيفادا بفروعه الخمسة والعشرين، وأغلقت أيضا بنك فيرست هيريتج بنك بفروعه الثلاثة.

وبيعت أصول البنكين المملوكين لشركة فيرست ناشيونال بنك القابضة إلى فروع بنك أوماها. وبلغت قيمة أصول المصرفين ٣,٦ مليارات دولار منخفضة عما كانت عليه قبل ستة أشهر حيث كانت قيمتها ٤,١ مليارات دولار.

وأعلن بنك وتشوفيا كورب رابع أكبر بنك في الولايات المتحدة تكبده خسائر ربع سنوية قياسية في الربع الثاني من هذا العام بقيمة ٨,٨٦ مليارات دولار، أغلقت سلطات مراقبة المصارف الأميركية بنك فيرست ناشونال بنك أوف نيفادا بفروعه الخمسة والعشرين، وأغلقت أيضا بنك فيرست هيريتج بنك بفروعه الثلاثة.

وبيعت أصول البنكين المملوكين لشركة فيرست ناشيونال بنك القابضة إلى فروع بنك أوماها الذي سيعيد فتحهما الاثنين بعد إغلاق السلطات لهما يوم الجمعة.

وبلغت قيمة أصول المصرفين ٣,٦ مليارات دولار بنهاية يونيو/حزيران منخفضة عن ما كانت عليه قبل ستة أشهر حيث كانت قيمتها ٤,١ مليارات دولار.

وهذان الإفلاسان الجديدان رفعا عدد المصارف التي أعلنت إفلاسها في الولايات المتحدة منذ بداية العام إلى سبعة.

فأعلن ففي الحادي عشر من يوليو/تموز الماضي أعلن مصرف إن دي ماك في كاليفورنيا إفلاسه في ثالث أكبر حدث من نوعه بالتاريخ الحديث للولايات المتحدة، علما أن أصول المصرف بلغت ٣٢ مليار دولار.

ومن قبله أفلس بنك بير ستيرنز في مارس/آذار ليشتريه بنك جي بي مورغان في صفقة أشرف عليها البنك المركزي الأميركي.

وجاء يأتي تتابع الإفلاسات المصرفية غربي الولايات المتحدة مع استفحال أزمة السوق العقارية وتعثر مؤسسات عدة.

وعقب إشهار بنك ليمان براذرز إفلاسه تفاقمت أزمة المال الأميركية ليصبح أكبر ضحية للأزمة الائتمانية العالمية.

وذكرت صحيفة وول ستريت جورنال أن بنك ليمان الذي كان مبعث الفخر سابقاً يتحرك لبيع ١٠٠% من وحدته لإدارة الاستثمار، ولديه قائمة من المشترين المحتملين وبينهم شركات للاستثمار الخاص مثل: بين كابيتال وهيلمان آند فريدمان وكليتون دوبلبير آند رايس.

وإثر خطوة البنك هذه أعرب مسؤولون عالميون عن مواقف متباينة تشي بمدى تأثير الأزمة على الأسواق العالمية.

فقد أعرب الرئيس الأميركي جورج بوش أن إدارته تعمل من أجل الحد من تأثير إفلاس بنك "ليمان براذرز" وتداعياته على أسواق المال، مبديا تفاؤلا بشأن مرونة هذه الأسواق. محذرا في الوقت نفسه من تغيرات مؤلمة في الأسواق المالية ضمن المدى القصير وعبر عن ثقته في الأسواق على المدى الطويل.

في حين رفض وزير الخزانة الأميركي هنري بولسون أي مساعدات حكومية للبنك الذي عصفت به أزمة الائتمان بالقطاع المالي الأميركي.

واتفق رئيس مجلس الاحتياطي الاتحادي الأميركي المتقاعد ألان غرينسبان مع بولسون حيث أبدى عدم ترحيب بمطالب البعض لإنقاذ ليمان من الإفلاس عبر تدخل الدولة، معتبرا أن إفلاس مصرف كبير ليس مشكلة في حد ذاته "فالأمر مرهون بطريقة إدارة المسألة وكيف ستتم التصفية".

غير أنه استبعد حلا قريبا للأزمة المالية الراهنة التي اعتبرها الأخطر منذ مائة عام. وتنبأ بانهيار العديد من المؤسسات المالية الكبيرة بسبب القسوة الاستثنائية للأزمة المالية.

وفي أوروبا وأوروبيا ووجهت الأزمة بحذر كبير فقال وزير المالية البريطاني أليستر دارلنغ تعليقا عليها إنه ينبغي على الحكومات والأجهزة الرقابية والبنوك المركزية، التعاون لمنح النظام المالي استقرارا وسط الاضطراب المستمر بالأسواق.

بينما طالب وزير المالية الألماني بير شتاينبروك عدم التهويل والمبالغة فيما يتعلق بالوضع في أسواق المال، مؤكدا في الوقت نفسه على أن الأمر يتعلق بأكبر أزمة مالية منذ عشرات السنين، غير أنه استدرك بالقول إن هذا لا يعني تطبيق نظرية الدومينو على المؤسسات المالية في أوروبا ولا يعني بالطبع إغلاق بنوك في أوروبا.

وفي الخليج العربي قلّل مسؤولون عرب من آثار الأزمة على دُوَلهم، حيث قال محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي (ساما) حمد بن سعود السياري إنه لا يرى في الوقت الحالي أي مخاطر على حركة المال في الخليج.

كما علق كل محافظ بنك الإمارات المركزي سلطان ناصر السويدي ومحافظ البنك المركزي العماني حمود بن سنجور الزدجالي بتصريحات مماثلة عند سؤالهما عما إذا لحقت المؤسسات المصرفية في بلديهما أية مخاطر.

وقال محافظ مصرف قطر المركزي عبد الله بن سعود آل ثاني إن البنوك في بلاده ليست لها أموال لدى بنك الاستثمار الأميركي المنهار ليمان أو بنك ميريل لينش في إشارة إلى عدم تأثر بلاده بالأزمة المالية الأخيرة.

وفي الكويت شكك رئيس اتحاد المصارف في أن تتأثر بنوك بلاده بالأزمة، مرجحاً أن ليس لها أية أموال مستثمرة في بنك ليمان براذرز.

أما الأسواق الخليجية فقد شهدت تراجعاً حاداً في تداولات البورصات حيث عزا محللون ماليون هذا التراجع إلى إشهار إفلاس بنك ليمان برذرز رابع أكبر بنك استثمار في أميركا.

كما أنخفضت مؤشرات الأسهم في دول الخليج إلى أدنى مستوياتها منذ سنة ونصف، وذلك مع هروب المستثمرين من الأسواق خشية تأثرها بتداعيات الاضطرابات الأخيرة في قطاع المال الأميركي.

وأغلقت سوق البورصة السعودية منخفضة ٦,٥% مسجلة ٧٢٥٥,١٥ نقطة، حيث فقد مؤشر التداول ٣٤,٣% من قيمته منذ بداية العام ٢٠٠٨ م.

وأغلقت بورصة الكويت، وهي ثاني أكبر بورصة في العالم العربي، بتراجع ٣,٨% ليصل المؤشر إلى ١٢٣٦٠,٢ نقطة أي بخسارة ٤٨٨ نقطة، وهي أكبر خسارة في يوم واحد في سنة ٢٠٠٨ م.

وأما في باقي الدول العربية

أوضحت خبيرة التمويل والاستثمار ورئيسة الإدارة المركزية لسوق المال في بنك مصر إكستيريور الدكتورة عنايات النجار إن إعلان إفلاس مصرف (ليمان برذرز)، رابع أكبر بنك بالولايات المتحدة أثر على أداء جميع أسواق المال سلبيا.

آثار الأزمة في أوروبا

قرر مصرف كوميرتس بنك ثاني أكبر البنوك الألمانية في بداية شهر أيلول الاستغناء عن تسعة آلاف وظيفة في إطار صفقة شراء منافسه دريسدنر بنك.

وبلغت قيمة الصفقة ١٤,٥ مليار دولار وذلك فيما يوصف بأنه أكبر عملية إعادة هيكلة في القطاع المصرفي الألماني منذ أكثر من سبعة أعوام.

وأعلن رويال بنك أوف أسكتلند (آر بي أس) ضمن إعلان خسائر البنوك البريطانية لشهر تموز، ٢٠٠٨ م خسائر بلغت ٦٩١ مليون جنيه إسترليني (١,٣٥ مليار دولار) في النصف الأول من العام ٢٠٠٩ م.

وهبطت أسواق الأسهم الأوروبية بعدما أكد رئيس الوزراء البريطاني غوردن براون قرار السلطات البريطانية تأميم مصرف برادفورد أند بينغلي، كما سلكت بلجيكا الخطوة نفسها مع مصرف فورتيس. المصرفان اللذان تأثرا كثيرا بآثار أزمة الرهن العقاري في الولايات المتحدة،

وخلق ذلك خلقا حالة من التوتر والترقب في الأسواق المالية الأوروبية، ما دعا فرنسا إلى عقد مؤتمر دولي لمناقشة الأزمة الحالية.

هذه الخسائر الفلكية بدأت باجراءات خاطئة وبحرية مفرطة للتجارة وضعف في المراقبة وعدم جرأة في اتخاذ اجراءاترادعة منذ البداية وأخيراً عدم الاستماع إلى نصيحة الخبراء المخلصين والاعتماد على سواهم لسبب أو آخر .

أما لماذا يتأثر العالم بتأثر أمريكا بمشكلة مالية داخلية

الخاتمة

مكرر

ضيق الأفق الندم

بعد أن فقد الأباطرة الرومان السلطة في القرون الوسطى لم يعد أبناء أوروبا يدينون بالولاء لحاكم واحد، إلا أن الكنيسة بدأت تسد الفراغ فأصبحوا ينضوون تدريجيًا تحت ظل الكنيسة التي كانت تمثل القوة الرئيسية في العصور الوسطى المبكرة في أوروبا الغربية؛ فقامت الكنيسة ، بتنصير البرابرة تدريجيًا.. وسافر أناس، أطلق عليهم المنصرون، مسافات كبيرة لنشر النصرانية.وساعد هؤلاء المنصرون على تحضير البرابرة عن طريق إدخال الأفكار الرومانية المتعلقة بالحكم والعدالة في حياتهم.ومع كل يوم يمضي كنت الكنيسة ورجالها يسيطرون على الحياة الدينية والدنيوية وكان لهم التاثير الأكبر على كل نواحي الحياة بما في ذلك تنصيب الملوك ،فقد تولّى البابوات والأساقفة، وآخرون من كبار النصارى، وظائف حكومية عديدة،. وجمعت الكنيسة الضرائب واحتفظت بالمحاكم التشريعية لمعاقبة المجرمين. فضلاً عن أن مباني الكنسية كانت بمثابة مستشفيات للمرضى ونزل للمسافرين.وأصبحت المؤسستان الكنسيتان . الكاتدرائية والدير . مركزين للتعليم في العصور الوسطى المبكرة. وكانت الكاتدرائيات كنائس للأساقفة، وكانت الأديرة لمجموعات من الناس، يطلق عليهم اسم الرهبان، قد تخلوا عن الحياة الدنيا اعتقادًا بأنها الطريق لخدمة الله بالصلاة والعمل. وساعد رهبان بعض الأديرة ورجال الدين في الكاتدرائيات على استمرار القراءة والكتابة باللغة اللاتينية، وحافظوا على عدد كبير من المخطوطات القديمة النفيسة. كما أنهم قاموا بتشييد معظم المدارس في أوروبا.

وصلت العصور الوسطى المبكرة إلى أوجها خلال العهد الطويل لشارلمان. فقد عمل شارلمان على حماية الكنيسة من أعدائها، والحفاظ على وحدة الشعب الأوروبي في ظل الكنيسة. وفتح شارلمان معظم أوروبا الغربية، ووحد أوروبا لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية.

استغاث ابن العربي حاكم برشلونة المسلم بشارلمـان في عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة. فما كان منـه إلا أن سـار علـى رأس جـيش عبـر بـه جبـال البرتـات، وحاصـر مدينـة بمبلونـا المسـيحية، وعامـل البشكنس مسيحي أسبانيا الشمالية الذين لا يحصـى عددهم معاملة الأعداء، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها. غير أن الفتن الإسلامية التي وعد ابن العربي بإثارتها على الخليفة والتي كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيـوش قرطبـة، وترامـى إليـه أن السكسـون ثـائرون عليـه وأنهـم يزحفـون وهـم غضـاب علـى كولـوني Cologce، فرأى من حسن السياسة أن يعود بجيشه إلى بلاده، واخترق بهم في وصف طويل رفيع ممرات جبال البرانس. وبينما كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسفال Roncesvalles من أعمال نافاري إذا انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكنس، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨)، وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذي أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت أغنية رولان Chancno de Roland. وسير شارلمان في عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس، واستولى به على شريط ضيق في شمالي أسبانيا الشرقي وضمه إلى فرنسيا Francia.

استسلمت لـه برشلونة، وأقرت أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦). وكان شارلمان في هذه الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥)، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (٧٨٩)، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠-٨٠٥)، ثم أخلد في السنة الرابعة الثلاثين من حكمه والثالثة والستين من عمره إلى السلام[٤].

كانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة في الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة، وفي الشئون الدنيوية قومس (باللاتينية: Comes) (رفيق للملك أو كونت. وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان «مبعوثي السيد» (باللاتينية: missi dominici) الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين، ويطلعون على أعمالهم، وأحكامهم، وحساباتهم، ويمنعون الربا، والاغتصاب، والمحاباة، واستغلال النفوذ، ويتلقون الشكاوي، ويردون المظالم، ويحمون "الكنيسة، والفقراء، والذين تحت الوصاية، والشعب أجمع" من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته. وكان

العهد الذي عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن توضع ال«ماجنا كارتا» لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون[٤].

[عدل] تشريعات شارلمان

تعد القوانين الست والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في العصور الوسطى. فهي لا تكون مجموعة منتظمة، بل هي توسيع القوانين "الهمجية" الأقدم منها عهداً وتطبيقاً على الظروف والمطالب الجديدة. ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللمباردي: فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى، والتحكم الإلهي، والمحاكمة بالاقتتال، والعقاب ببتر الأعضاء، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير –وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة. ولم تكن هذه كلها قوانين، بل منها ما كان فتاوي

وكان شارلمان سخياً غاية السخاء على الكنيسة، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم. وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس؛ وإن ما في أقواله من القوة لينفي عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية. فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين في البلاد الأجنبية، وكان يصر في مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة في معاملة رعاياهم المسيحيين(٣٦). وكان للأساقفة شأن كبير في مجالسه، وجمعياته، ونظامه الإداري، ولكنه كان ينظر إليهم، رغم احترامه الشديد لهم، على أنهم عماله بأمر الله، ولم يكن يتردد في أن يصدر أوامره لهم، حتى في المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق. ولقد ندد بعبارة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد في أبرشيته، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم، وقضى على ما يحدث في الأديرة من تمرد، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع "الدعارة، والسكر، والشره" بين الراهبات. سأل القساوسة في أمر وجهه لهم عام

٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين "أننا نرى" بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل، ليزيدوا أملاكهم، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدي لهذه الأغراض نفسها، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورثتهم الشرعيين". على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة، وأمر بأن يؤدي إلى الكنيسة عشر غلة الأرض، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج، والوصايا، وأوصى هو نفسه بثلثي ضياعه لأسقفيات مملكته(٣٧)، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا "هبات" قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة.

[عدل] الإمبراطورية الرومانية المقدسة

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجلّ الأفكار في تاريخ الحكم: ألا وهي استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تستند إلى كل ما كان لروما الإمبراطورية والبابوية من هيبة، وقداسة، واستقرار. ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التي لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً. ولسنا نعرف من الذي لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا

ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة الرومان، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها. وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة احتفال فخم بعيد الميلاد. فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضعه على رأس الملك. ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجبه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج، فنادوا ثلاث مرات: "ليحي شارل الأفخم، الذي توجه

الله إمبراطـوراً عظيمـاً للرومـان لينشـر بيـنهم السـلام!". ومسـح رأس الملـك بالزيـت المقدس، وحيـا البابـا شـارلمان ونـادى بـه إمبراطـوراً وأغسـطس، وتقدم إلـيهم بمـراهم الـولاء التـي ظلـت محتفظـاً بهـا للإمبراطـور الشرقي منذ عام ٤٧٦.

وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودي مع هارون الرشيد، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس. وردّ الإمبراطور الشرقي على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد، وانتهى الأمر في عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية.

أرسل نابليون حملته إلى أسبانيا وأصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية. أي بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس تقريبا.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية وهو (الكولونيل ليموتسكي) أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا كتب قال: " كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة وكان الإمبراطور نابيلون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية غير أن هذا الأمر أهمل العمل به بسبب الإضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.

ولكن الرهبان الجزويت أصحاب دواوين التفتيش الملغى عمدوا على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقاماً من القرار الصادر وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

يقول الكولونيل ليموتسكي وبينما كنت أسير في إحدى الليالي لاجتاز شارعاً يقل المرور فيه من شوارع مدريد إذ باثنين مسلحين قد هجما عليّ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح وتبيت

الليل ساهرة على حفظ النظام فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب. وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش فأسرعت إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد وقصصت عليه النبأ فقال المارشال سولت لا شك بأن من يقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع وهاجم دير الديوان واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة.. "

قاوم القساوسة ذلك وحدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى تم الدخول عنوة ثم يتابع قائلاً " أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً وعلى جنودهم وحراسهم توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراس هزازة وسجاجيد فارسية وصور ومكاتب كبيرة وقد صنعت أرض هذه الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهى القصور الفخمة التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع يوقد أمام صور الرهبان ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد ".

ويكمل الكولونيل ليموتسكي قائلاً : كادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها. فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش. فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت "دي ليل" استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟!!. قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً. فماذا تريد يا لفتنانت؟!.. قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة – وكنا نرقب الماء – فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط "دي ليل" من شدة فرحه، وقال ها هو الباب، انظروا، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضئ أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: يابني: لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.قلت له، يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك!؟!.

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء. ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممداً بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل

بشرية ما زالت في أغلالها.كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.(ولنلاحظ أن هذا كان مايزال يحدث حتى بعد ٤٠٠ سنة على إنشاء دواين التفتيش لإرغام المسلمين على ترك دينهم)

يقول الكولونيل ليموتسكي كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم. يقول الكولونيل ليموتسكي هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً.كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

ويقول الكولونيل ليموتسكي: وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً وسحقها سحقاً وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك. ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً ثم أخذ ينهب ما بالدير...

هذه الشهادة لأهوال محاكم التفتيش يشيب لها الولدان

"كان هدفها تنصير المسلمين بالقوة بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية في تلك الفترة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم رهبان الكنيسة الإسبانية ثوارًا وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم .

ولما جاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، مزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة، ففي يوليو ١٥٠١ م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرًا خلاصته "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال". (دولة الموحدين – الصلابي نقلًا عن مصادر أخرى)

لم يقف الأمر عند حد التهجير والتنصير، وإنما تلى ذلك أن قام رئيس الأساقفة الأسباني كان يُدعى كِنِيس وكان صليبيا حاقدا قام بحرق ثمانين ألف كتاب إسلامي من مكتبة قرطبة وإشبيلية وغرناطة في يوم واحد.

وهو نفسه الذي قام بعد ذلك بما سُمّي في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام، فكانوا إذا وجدوا رجلا يدّعي النصرانية ويخفي إسلامه، كأن يجدوا في بيته مصحفا، أو يجدوه يصلي، أو يصوم أو كان لا يشرب خمرا، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذابا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل ويفسخون الفك، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت.

كانوا أيضا يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.

كل هذه الآلات الفتاكة وغيرها شاهدها جنود نابليون حين فتحوا أسبانيا بعد ذلك، وقد صوروها في كتاباتهم، وعبروا عن شناعتها بأنهم كانوا يصابون بالغثيان والقيء، بل والإغماء من مجرد تخيل أن هذه الآلات كان يُعذّب بها بشر، وقد كان يُعذّب بها مسلمون، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

"ومما يذكر.. أن هناك عذابًا اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويُجلسونها على قبر من لقبور، يضعون رأسها بين ركتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخزن شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنّية لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتُترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعًا ورعبًا.

لقد قاموا النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها

من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدوا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها...

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.فإذا عُلم أن رجلًا اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلا لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابعوا النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته.

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب "الأوتودافي" وذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة". (دولة الموحدين – الصلابي نقلًا عن مصادر أخرى)

هذه المأساة التي آثرت أن لا أذكر كثيراً من أساليب التعذيب التي جرت والتي تقشعر لها الأبدان وبالإمكان الرجوع إلى ذلك من واقع كتب التاريخ خاصة أن في أسبانيا اليوم من يتحدث صراحة عن تلك الفترة المظلمة .

وما يهمنا أن نذكر أن سقوط الأندلس لم يكن بالسقوط المفاجئ، فقد كان هذا متوقعا منذ أكثر من مائتي عام قبل الهزيمة ، إلا أنها وبمدد من بني مارين مرة، وبخلاف النصارى مرة أخرى مع بعضهم البعض، صمدت وصبرت بعض الشيء، لكن الذي حدث في النهاية هو الذي كان متوقعا

لما ازدهرت الأندلس بفضل صدق الأولين وإخلاصهم جاء من بعدهم من الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة ، وارتبطت فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة والانحطاط الكبير في الأهداف،نسوا قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١)فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ(١٢)لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء:١٢،١٣،١١].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذُلّ كما لم تعملوا للعزة وللكرامة.

فلننظر إلى مثل هذا ونقارنه بأحوال الشباب الذين انحطتّ أهدافهم، حتى أصبح حلم حياتهم أن يُحدّث فتاة من الفتيات أو يخرج معها، أو يبادلها حبا غير مشروع لا يرتضيه هو لأخته أو لابنته.

لننظر حين يُصَوّر مثل هذا الشعر هذا الحب على أنه أسمى درجات الحب، فيضحي الرجل من أجله، ويسمو عنده فوق كل حب، حتى يسمو عنده فوق حب الدين وحب الله وحب رسوله وحب الجهاد وحب الوالدين وحب الوطن وحب الفضيلة، بل وقد يضحي بحياته انتحارا إذا فارق محبوبه.

فأي انحدار هذا؟! وأي انحطاط هذا؟! وأي سفاهة وأي تفاهة أكبر من هذا؟ وقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ} [التوبة:٢٤].

وليس ببعيد عنا ما فعله زرياب وأمثال زرياب في تاريخ الأندلس، وكيف قادوا الشباب إلى هذه الميوعة التي أسقطتها في النهاية وإلى الأبد.

العامل الثاني:

ترك الجهاد في سبيل الله، وهو أمر ملازم لمن أُغرق في الترف؛ فالجهاد سنة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزة ويموتون في عزة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنّة ويُخلّدون فيها.

افتقدت الأندلس من كانوا ينتغون الدار الآخرة ولم ينسوا نصيبهم من الدنيا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أينوافتقدوا يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومن كان على شاكلتهم حين ذُلوا وأُهينو لما تركوا الجهاد في سبيل الله، يقول تعالىظنوا أن تغيير الحال من المحال ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(٣٨)إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة:٣٨،٣٩].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتزمين بالمنهج الإسلامي أن يضحوا بأرواحهم ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإن حقيقة الأمر على عكس ذلك تماما؛ إذ لو عاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجد، وفي سلطان وملك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنّة خالدين فيها بإذن الله.

العامل الثالث:

يتبع العاملين السابقين عامل الإسراف في المعاصي، فجيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنكم لا تُنصرون على عدوكم

بقوتكم ولا عُدتكم، ولكن تُنصرون عليه بطاعتكم لربكم ومعصيتهم له، فإن تساويتم في المعصية كانت لهم الغلبة عليكم بقوة العُدّة والعتاد.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسولهم ﷺ كُتب عليهم الهلكة والذلّة والصغار، يقول رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ».

وإذا كان هذا حال محقّرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فما تزال تجتمع عليه حتى تهلكه، فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعن، وأكل المال الحرام، فأي نصر يُرجى ويُتَوقّع بعد هذا.

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرها الكثير مثل:

– الفُرقَة والتَشرذُم.

– موالاة النصارى واليهود والمشركين.

وقد قال سبحانه وتعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة:١٢٠]. وقال أيضا: {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ المُعْتَدُونَ} [التوبة:١٠]. وأيضا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١]. وآيات غيرها كثير.

– لقد وسد الأمر لغير أهله في الأندلس وكان ذلك واضحا جدا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضا ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.– الجهل بالدين

وقد وضح جيدا قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحَكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوّة بعد هذا العلم، ووضح أيضا أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي

عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة،واستبد حكامهم برأيهم وأهملوا مبدأ الشورى، والذي هو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها الناس، وكيف اعتدوا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

ومثل أيضا ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لإشبيليّلة، وقد تبعه الناس في ذلك ظنا منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأيّ جهل بالدين أكثر من هذا؟!

الدرس الثاني: أمل النصر لا تخبو جذوته أبدا

بعد الدرس الأول والوقوف على عوامل وأسباب السقوط كان هذا الدرس الثاني، وهو ما نستقيه من تاريخ الأندلس، حيث إنه لا يغيب الأمل أبدا في نصر الله، فإن الله دائما ما يقيض لهذه الأمة من ينصرها، ومن يجدد لها أمر دينها.

وقد حدث مثل ذلك كثيرا في تاريخ الأنلس، كان منه ما حدث في نهاية عهد الولاة، وذلك بقيام عبد الرحمن الداخل، ثم ما حدث أيضا في نهاية الإمارة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر، وهكذا في كل عهد تجد من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، تجد يوسف بن تاشفين، وتجد يعقوب المنصور الموحدي، وتجد يعقوب المنصور المارِيني، وغيرهم الكثير.

وقد يتساءل البعض قائلا: لقد انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلية، فأين ذاك القيام، الذي من المفترض أن يكون بعد هذا الانتهاء، طالما كانت قد جرت السنة على ذلك؟!

وفي معرض الرد على مثل هذا السؤال نسوق حدثا في غاية الغرابة، فقد حدث قبل سقوط الأندلس الأخير بنحو أربعين سنة حادثا عجيبا، وأعجب منه هذا التزامن الذي فيه، فقد فُتحت القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ= ١٤٥٣ م أي قبل سقوط الأندلس بأربعين عاما، فكان غروب شمس الإسلام على أوروبا من ناحية المغرب يزامنه شروق جديد عليها من ناحية المشرق، واستبدل الله هؤلاء الذين باعوا، وأولئك الذين خانوا من ملوك غرناطة في الأندلس بغيرهم من العثمانيين المجاهدين الفاتحين الأبرار، الذين فتحوا

القسطنطينية وما بعدها، وقد بدأ الإسلام ينتشر في شرق أوروبا انتشارا أسرع وأوسع مما كان عليه في بلاد الأندلس وفرنسا.

وإنها وأيم الله لآية من آيات الله سبحانه وتعالى تبعث الأمل وتبثه في نفوس المسلمين في كل وقت وكل حين، مبشرة ولسان حالها: أمة الإسلام أمة لا تموت.

الدرس الثالث: فلسطين اليوم أندلس البارحة

كان الدرس الثالث من تاريخ الأندلس هو الأخطر من نوعه، وتبدو معالمه في سؤال ربما يكون قد شغل أذهان البعض كثيرا، وهو: لماذا انتهى الإسلام بالكليّة من بلاد الأندلس؟!

فبلاد الأندلس (أسبانيا والبرتغال) هي اليوم من أقل بلاد العالم في عدد المسلمين، والذين بلغ عددهم فيها مائة ألف مسلم فقط، أي أقل من عدد المسلمين في مدينة من مدن أمريكا.

ففي مدينة دالاس الأمريكية وحدها يصل عدد المسلمين إلى مائة ألف مسلم، وهي بعد لم تكن قد حكمت بالإسلام، بينما تعداد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) وبعد أن حُكمت ثمانية قرون بالإسلام لا يزيد عن مائة ألف مسلم، وهو أمر في غاية الغرابة.

ومن هنا كان هذا السؤال: لماذا انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكليّة كأفراد وشعوب ولم ينته من البلاد الأخرى، والتي استُعمرت استعمارا صليبيا، طال أمده في بعض الدول مثل الجزائر التي احتُلت ثلاثين ومائة سنة، ومصر التي احتُلت سبعين سنة، وفلسطين احتُلت مائتي سنة في زمن الصليبيين، وغيرها من الدول الإسلامية التي غُلبت على أمرها، ورغم ذلك لم يندثر المسلمون أيا كانت طريقة اندثارهم ولم يتغيروا، وظلوا مسلمين وإلى الآن؟!

وللإجابة على هذا التساؤل لننظر أولا ما كان يفعله الاستعمار الأسباني في بلاد الأندلس، فقد كان الاستعمار الأسباني استعمارا استيطانيا إحلاليا، ما إن يدخلوا بلدا إلا قتلوا كل من فيه من المسلمين في حرب إبادة جماعية، أو يطردونهم ويهجّرونهم إلى خارج البلد، ثم يُهجّروا إليها من النصارى من أماكن

مختلفة من الأندلس وفرنسا من يحل ويعيش في هذه المدن وتلك الأماكن التي خلفها المسلمون، وبذلك لم يعد يبقى في البلاد مسلمون.

وحكم البلاد وعاش فيها بعد ذلك نصارى وأبناء نصارى، على عكس ما كان يحدث في احتلال البلاد الإسلامية الأخرى مثل مصر والجزائر وليبيا وسوريا وغيرها، فإن الاحتلال في هذه البلاد كان بالجيوش لا بالشعوب، واحتلال الجيوش ولا شك مصيره إلى ردة وزوال.

وإن مثل هذا ليضع أيدينا على شيء هو في غاية الأهمية، ذلك أن الاحتلال الاستيطاني هذا الذي حدث في بلاد الأندلس لم يتكرر في أيٍ من بلاد العالم إلا في مكان واحد فقط، وهو أيضا يخص المسلمين، وهو فلسطين.

وإن ما يحدث الآن فيها وعلى أرضها ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ما يفعله اليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة في الشعب الفلسطيني بالقتل والطرد والتشريد، وإصرارهم (اليهود) على عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم، ثم الإكثار من بناء المستعمرات، كل ذلك وغيره ما هو إلا خطوة من خطوات إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني.

فقد شُرّد الشعب الفلسطيني وبات مصيره في طي النسيان، بات العالم أجمع ينسى قضيته يوما بعد الآخر، بل بات محتملا أن ينسى هو نفسه (الشعب الفلسطيني) قضيته، وأخشى والله أن ينسى الفلسطينيون المشردون القضية تماما كما نسيها أهل الأندلس الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وإلى تونس والجزائر بعد عام أو عامين، أو حتى بعد عشرة أو مائة عام، فقد مر الآن على سقوط الأندلس خمسمائة عام، فمن يفكر في تحريرها؟!

وهكذا وعلى هذا الوضع يسير اليهود ويجمعون ويُهجّرون شتاتهم إلى بلاد فلسطين لإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني.

فكانت قضية فلسطين شديدة الشبه بالأندلس، وتُرى لماذا عُقد اتفاق السلام الأخير بين اليهود وبين الفلسطينيين، ومن بين كل بلاد العالم هناك يعقد في إحدى مدن الأندلس القديمة في مدريد؟!

كانت مفاوضات السلام تدور في أوسلو وترعاها أمريكا وروسيا وغيرها من البلاد، ومع ذلك أُقيمت في "مدريد" وفي إزالة علامات التعجب أن ذلك كان بسبب أن المفاوضات قامت في سنة ١٩٩٢ م *، وهي ذكرى سقوط الأندلس، حيث كان قد مر على سقوطها خمسمائة عام.

ففي تلك الأثناء كانت شوارع "مدريد" مكتظة بالاحتفالات والمهرجانات، حيث هزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين في هذه الموقعة القديمة منذ خمسمائة عام، وكأنهم يبعثون برسالة مفادها: ها هو التاريخ يتكرر، وها هي أحداث الأندلس تتكرر من جديد في فلسطين، وها هي الانتفاضة التي تحدث في فلسطين تُقتَل كما قُتلت من قبل انتفاضة موسى بن أبي غسّان في غرناطة، ها هو التاريخ يتكرر، لا داعي للحرب ولا داعي للجدال والمحاورات الكثيرة؛ فإن مصيركم هو ما حدث في الأندلس من قبل.

أبو البقاء الرندي (٦٠١ – ٦٨٤ هـ / ١٢٠٤ – ١٢٨٥م) وقصيدته في رثاء الأندلس:

التعريف به:

هو صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرندي، أبو البقاء.

وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطيب وهو مشهور في المشرق بأبي البقاء.

وهو أديب شاعر ناقد قضى معظم أيامه في مدينة رندة واتصل ببلاط بني نصر (ابن الأحمر) في غرناطة.

وكان يفد عليهم ويمدحهم وينال جوائزهم وكان يفيد من مجالس علمائها ومن الاختلاط بأدبائها كما كان ينشدهم من شعره أيضاً.

وقال عنه عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة كان خاتمة الأدباء في الأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ونثره فقيهاً حافظاً فرضياً له مقامات بديعة في أغراض شتى وكلامه نظماً ونثراً مدون... "الموسوعة الشعرية"

مملكة غرناطة ودورها في سقوط إشبيلية

لم يبقَ في الأندلس بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب من المدن الإسلامية سوى ولاية غرناطة وولاية إشبيلية، وكان حاكم غرناطة قد عقد معاهدة مع ملك قشتالة، وكان من نصوص المعاهدة أن يحارب مع ملك قشتالة أيًّا كانت الدولة التي سيحاربها، ووصل الأمر إلى مساعدة ملك قشتالة في حصار إشبيلية، لتسقط هذه المدينة الإسلامية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م.

سقوط مملكة غرناطة

بعد أن سقطت إشبيلية نقض النصارى الهدنة مع غرناطة، واتجهوا ليحاصروها، ومن ثَمَّ استعان الأندلسيون بيعقوب بن منصور المريني وولده يوسف ليساعدوهم في الانتصار على أعدائهم النصارى، ولكن أثناء مساعدتهم لهم شعر الأندلسيون بالخوف على ملكهم بعد رد الهجمات عليهم أن يأخذه المرينيون الذين هبوا لمساعدتهم ،وبدلاً من وضع يدهم بيد إخوانهم المسلمين الذين جاؤوا لينقذوهم ضاق أفقهم وغلبت عليهم الأنانية فاستعانوا بأعدائهم على إخوانهم بالنصارى ضدهم، لا بل إنهم احتلوا سبتة في بلاد المغرب ،وبذلك انقطعت المساعدات بلاد المغرب للأندلس إلى الأبد.

لا بد من الاستفادة من تاريخ الأندلس لننظر لماذا انتهى الإسلام من الأندلس، ولم يبق بها من المسلمين إلا العدد القليل، وكان ذلك بسبب ما فعله غزاتهم في بلاد الأندلس من إبادة المسلمين إبادة جماعية، وطردهم وتهجيرهم خارج الأندلس.

وبما أن في صفحات التاريخ عبر ومواعظ، فلا بد أن نستفيد مما حدث بالأندلس، ونرى أن ما يفعلهاليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة الشعب الفلسطيني بالقتلوالطرد والتشريد، ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ويجب أن ننتبه لذلك، ونعرف ما هو دور الشعوب والأفراد في قضية فلسطين حتى لا تصبح أندلسَ أخرى.

-

الوضع الآن هو سقوط دولة الموحدين على إثر موقعة العقاب، ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة، وسقطت جيان في سنة ٦٤٣ هـ= ١٢٤٥ م.

هذا ولم يبق في الأندلس إلا ولايتان فقط كبيرتان نسبيا، الأولى هي ولاية غرناطة، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥ % من بلاد الأندلس، والثانية هي ولاية إشبيلية، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠ % من أرض الأندلس.

هاتان الولايتان هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب كما ذكرنا أن يظل الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة، ولا بد من وقفة معها بعض الشيء.

ابن الأحمر وملك قشتالة ومعاهدة الخزي والشنار

في نفس العام التي سقطت فيه جيان، وفيسنة ٦٤٣ هـ= ١٢٤٥ م وحماية لحقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات.

وقبل أن نتحدث عن بنود هذه الاتفاقية وتلك المعاهدة، نتعرف أولا على أحد طرفي هذه المعاهدة وهو ابن الأحمر، فهو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي

صاحب رسول الله ﷺ لكن شتّان بين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا، وبين سعد بن عبادة الخزرجي، وقد سُمّي بابن الأحمر لاحمرار لون شعره، ولم يكن هذا اسما له، بل لقبا له ولأبنائه من بعده حتى نهاية حكم المسلمين في غرناطة.

لما تزوج فرناندو الثالث ملك أراجون من إيزابيلا وريثةعرش قشتالة، ثم اتحدوا معًا وكونواملكة إسبانيا، وكان ذلك في سنة ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤م، واستغل ملك إسبانيا أوضاع الأندلس واستطاع أن يدخلها صلحًا على أن لا يمسَّ المسلمين،

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر مذلة ومنها:

أولا: أن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويا، وكان هذا تجسيدا لحال الأمة الإسلامية، وتعبيرا عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهابة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانيا: أن يحضر بلاطه كأحد ولاته على البلاد، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنيا.

ثالثا: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية، وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماما.

رابعا: أن يسلمه ما بقي من حصون جيّان- المدينة التي سقطت أخيرا- وأرجونه وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وحصون أخرى كثيرة تقع كلها في غرب غرناطة، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها.

خامسا: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك، أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أيا كانت الدولة التي يحاربها.

ومع هذه الشروط المذلة التي ولكن هذا لم يحدث، فما إن دخلوا الأندلس حتى هجَّروا من فيها من المسلمين، ونصَّروا من ظل بها، وأقاموا محاكم التفتيش للبحث عَمَّن يخفي إسلامه، وأبادوا من بها من المسلمين.

ولنستمع إلى أبي البقاء الرندي وهو يرثي الأندلس فيقول:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأيامُ كما شاهدتها دُولٌ مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حالٍ لها شان

يُمزق الدهر حتمًا كل سابغةٍ إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ

وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْكان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان

أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟

وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ ؟

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ ؟

أتى على الكُل أمر لا مَرد له حتى قَضَوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ

دارَ الزّمانُ على (دارا) وقاتِلِه وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ

كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببُ يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ

وللحوادث سُلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له هوى له أُحدٌ وانهدْ ثهلانُ

أصابها العينُ في الإسلام فامتحنتْ حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ

فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ (مُرسيةً) وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ)وأين (قُرطبةٌ) دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ

وأين (حْمص)ُ وما تحويه من نزهٍ ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ

قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ

تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من; ! أسفٍ كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ

حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ

وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ ؟

تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ

يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً كأنها في مجال السبقِ عقبانُ

وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفةً كأنها في ظلام النقع نيرانُ

وراتعين وراء البحر في دعةٍ لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ ؟

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟

لماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ ؟

ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزّهمُ أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ

ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ

يا ربَّ أمٍ وطفلٍ حيلَ بينهما كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ

وطفلةً مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةُ والقلبُ حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

كان ينبغي أن نقف مع تاريخ الأندلس وقفات ، نأخذ منه العبرة والدرس، وتكرر ما حدث فيه من أفعال العظماء، وفي ذات الوقت نتجنب أفعال الأقزام، تلك التي أدت إلى هذه الحال التي رأيناها آخر عهود الأندلس وفترات السقوط.

إن لكن الناس لم يتعظوا ونسوا تلك المآسي والأهوال حتى حل بهم ماحل بالأندلس وأكثر . وقد تشاءم البعض من قصائد لم ترث من غرناطة إلا صور الرقص والأغاني والعشاق التي سادت في زمن الغفلة وسبقت سقوطها ولم يتنبهوا أو ينبهوا الناس وحكامهم إلى ما حدث في الأندلس ينتظرهم ،وهذا ماحدث .

يقول السرجاني: عن هذا الرثاء لهم وذكر من تاريخ النذير لننظر إلى ذاك الرجل الذي كان يرثي سقوط غرناطة ونعي ما يقول في شعره الذي كان يعد كما ذكرنا إعلام هذا العصر الذي يُحَفّز الناس على أفكار معينة، يقول يرثي غرناطة:

غرناطة يا أجمل المدن

لن تَسريَ بعد اليوم نغمات العود الناعمة

في شوارعك المُقمرة

ولن تُسمع ألحان العُشّاق

تحت قصورك العالية

وستسكت دقات الصنوج المرحة

التي كانت تتناغم فوق تلالك الخصبة

وستقف الرقصات الجميلة

تحت عرائشك الوريفة

واحسرتاه

لن يستمع عربي بعد اليوم إلى البلابل

تصدح في مروجك الفسيحة

ولن يُستَروح أريج الريحان وأزهار البرتقال

في ربوعك المؤنسة

لأن نور الحمراء أُطفئ إلى الأبد

فحتى بعد هذا السقوط الشنيع لغرناطة يقف هذا الرجل وبهذه الكلمات الفجة يرثيها، هذا ما كان يهمه في هذه البلاد، نسي الناس لا يهمه الثغور التي خرجت منها الجيوش تجاهد في سبيل الله، ونسوا لا يهمه المكتبات التي أُحرقت، ونسوا اللا المساجد التي دُنّست وحُولت إلى كنائس،ونسوا بل لا يهمه المسلمون الذين عذبوا وقُتلوا بأيدي محاكم التفتيش إلى أن جاء عليهم يوم ذاقوا فيه نفس الكأس الذي شربه أهل الأندلس .لم تكن الأندلس أول ولا آخر مآسينا ولننظر إلى مايحل بنا اليوم وبإخواننا لنفكر ونعتبر ،ولندرس الأسباب والمسببات ولايعتقد أحد أنه ناج من عواقب الأيام فانظر إلى من كانوا يعيشون عيشة أمن واطمئنان ماذا حل بهم من أهوال ومحن لذنب لم يرتكبوه ورب يوم يأتي أشد من ذلك على قوم آمنين لم يعتبروا بما حل بإخوانهم وحينها يعضون أصابع الندم ولكن بعد العدم .

الفرق بين الاستهزاء والسخرية .

(أن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله.والسخر: يدل على فعل يسبق من المسخور منه والعبارة من اللفظين تدل عن صحة ما قلناه وذلك أنك تقول استهزأت به فتعدى الفعل منك بالباء والباء للإلصاق كأنك ألصقت به استهزاء من غير أن يدل على شيء وقع الاستهزاء من أجله، وتقول سخرت منه فيقتضي ذلك من وقع السخر من أجله كما تقول تعجبت منه فيدل ذلك على فعل وقع التعجب من أجله) .

الفرق بين السخرية واللعب:

(أن في السخرية: خديعة واستنقاصا لمن يسخر به، ولا يكون إلا بذي حياة. وأما اللعب: فقد يكون بجماد، ولذلك أسند سبحانه السخرية إلى الكفار بالنسبة إلى الأنبياء كقوله سبحانه: وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ [هود: ٣٨]).

الخاتمة

المراجع

- مرجع (١) عن دراسة كولين سافري عن الندم / مركز بالديمرما دكتور فراس كاظم الجعبري
- الندم احساس قوي جدا، وله القدرة على التدمير. و منذ اواخر التسعينات من القرن الماضي، استفادت دراسات الندم من وجود تقنيات متطورة للتصوير العصبي. وقد عثرنا على دلائل بان اجزاء الدماغ المسؤولة عن التفكير والمشاعر تصبح نشطة عندما يمر الانسان بحالة الندم. وعلى وجه الخصوص،
- فهناك منطقة تعرف باسم orbitofrontal cortex OFC،(وهي منطقة في الفص الجبهي تقع فوق مدار العين) قد تكون مسؤولة عن مهمة مقارنة النتائج الحقيقية، مع البدائل المتصوّرة.
- واظهرت مسوحات الدماغ زيادة في نشاط منطقة (OFC) عندما يشعر الناس بحالة الندم. الا ان المرضى الذين حدثت لهم اضرار في هذه المنطقة من الدماغ، لا يشعرون بالندم، ولا يتعلمون (من تجربتهم) بعد الشعور به.
- وتناقش غالبية الأدبيات المتعلقة بالندم التأثيرات السلبية له. فهو يعتبر حالة شديدة الاجهاد، وقد تقود الى حدوث امراض في البدن. كما انه قد يزداد شدة مع الكآبة، او انه يسبب حدوث الكآبة. وترتبط حالات الندم المضخَّمة مع نوعية الحياة المتدنية في السنوات المتأخرة. وإن حدث وان اخفق احدهم في تعلم العبرة من الندم، فان النتيجة تكون الشعور بالاحباط، والسلوك المدمر للذات، او.. كما في حالة ساكن مدينة ليفربول.. إنهاء الحياة.
- فوائد الندم
- الا ان احدى الدراسات ركزت على فوائد الندم. وقدمت كولين سافراي الباحثة في جامعة فكتوريا وزملاؤها في جامعة إلينوي، في نتائج الدراسة المنشورة في مجلة «موتيفيشن أند إيموشين»، ادلة على ان الناس يضعون الندم في منزلة عليا.
- وفي احد جوانب الدراسة وضع مشاركون في واحد من الاستبيانات، الندم في مرتبة محبّذة، واشاروا الى ان شعورهم بالندم قادهم الى فهم احداث الحياة، ومكنهم من ايجاد بلسم شاف لأخطائهم التي وقعوا فيها. وفي جانب آخر من الدراسة، سأل الباحثون المشاركين التفكير في١١

من المشاعر السلبية.. مثل الخوف، الغضب، القلق، والعار.. اضافة الى الندم. وكان على المشاركين الموافقة او عدم الموافقة على نصوص مكتوبة، على سبيل المثال: ان المشاعر مساعدة لي لمعرفة كيفية التصرف في المستقبل او لتحسين علاقاتي مع الآخرين. واحتل الندم اعلى المراتب قيمة من بين كل المشاعر السلبية المدروسة.

- العبرة الاجتماعية
- الندم له مهمة اجتماعية عالية الاهمية ايضا. فاننا لا نتعلم فقط من اخطائنا فحسب، بل ومن اخطاء الآخرين. كما اننا نتعلم من النتائج الأفضل عندما ننظر الى أقراننا وزملائنا او الى جيراننا الذين يقومون باختيارات جيدة او سيئة. وقد يؤدي هذا الى الحسد او الارتياح. وفي كلتا الحالتين.. فانه يساعدنا على كيفية تحسين اوضاعنا.
- وتشدد الأدبيات على اهمية الندم لدى اتخاذ القرارات. وقوة الندم قد تفسر لماذا يكون البعض منا قادرا بشكل كبير على التقييم الموضوعي للاخطار والفوائد. وبدلا من ان ننظر الى الأمام لتفحص افضل مصالحنا فاننا ننظر عادة الى الخلف. اننا نتأمل في الامور التي حصلت وتلك التي لم تحصل في الماضي. ولهذا وعندما نختار شريك حياتنا او وظيفتنا، او استثماراتنا المالية، او علاجنا الطبي فاننا ننتقي الخيار الذي سنكون الأقل ندما عليه.
- وإدارة الندم بشكل مثمر، قد تشكل عنصرا حيويا في الصحة العقلية، وفي نوعية الحياة الجيدة، وفي الاحساس الايجابي بالرفاه. وان كان هذا صحيحا فعلا، فان من الافضل مواصلة التركيز على الابحاث والعلاجات (في هذا المضمار).

مراجع

- منطقة بوكا (http://www.socialpsychology.org/ ديفيد أموديو)
- علماء يتوصلون إلى خلايا المخ المرتبطة بالاختيار تمكن علماء من تحديد الخلايا العصبية أو خلايا المخ التي يبدو أنها تضطلع بدور في كيفية اختيار شخص ما مواد أو بضائع مختلفة. وقال باحثون من كلية هارفارد الطبية في بوسطن إن خلايا في أجزاء مختلفة من المخ تستجيب لخواص مثل اللون والطعم والكمية. وتوصل الدكتور كاميلو باداوا شيوبا وجون آساد وهو أستاذ مساعد في بيولوجيا الأعصاب إلى الخلايا العصبية التي تشارك في تحديد القيم التي تساعد الناس في الاختيار. وقال بادوا شيوبا إن الخلايا العصبية التي تم تحديدها تحول إلى رموز القيمة التي يحددها الأشخاص للمواد المتاحة حين يجرون اختيارات بناء على تفضيلات ذاتية،

وهو السلوك الذي يطلق عليه الاختيار الاقتصادي. وحدد العلماء الذين نشروا هذه النتائج في دورية نيتشر مكان الخلايا العصبية في منطقة في المخ يطلق عليها "OFC" بينما كان يدرسون قرود المكاك الآسيوية التي كان عليها أن تختار بين نكهات وكميات من العصائر. وربطوا اختيارات القرود بنشاط الخلايا العصبية في تلك المنطقة وبالقيم المحددة للأنواع المختلفة للعصائر فقد كانت بعض الخلايا العصبية نشطة للغاية حين اختارت القرود ثلاث قطرات من عصير العنب على سبيل المثال أو عشر قطرات من عصير التفاح. وحولت خلايا عصبية أخرى إلى رموز قيمة عصير البرتقال فقط أو عصير العنب. وقال بادوا شيوبا إن اختيار القرد قد يكون معتمدا على نشاط هذه الخلايا العصبية. وكان بحث أجري في وقت سابق وتناول منطقة "OFC" أظهر أن الأذى الذي يلحق بهذه المنطقة مرتبط على ما يبدو باضطراب الأكل والمجازفة الإلزامية والسلوك الاجتماعي غير المألوف. وبحسب هؤلاء العلماء تظهر النتائج الجديدة ارتباطا بين نشاط منطقة "OFC" وعملية التقييم العقلي التي تتضمن سلوك اختياري.

- وقال شيبوا إن هناك إمكانية ملموسة لأن تكون أوجه قصور مختلفة في الاختيار ربما ناتجة عن ضعف أو اختلال وظيفي في نشاط هذا القطاع من الخلايا العصبية على الرغم من أن هذه الفرضية بحاجة إلى اختبارها.
- المرجع طبيب نت http://www.tbeeb.net/ask/showthread.php?t=6807
- وقد عثر العلماء على دلائل بأن أجزاء الدماغ المسؤولة عن التفكير والمشاعر تصبح نشطة عندما يمر الإنسان بحالة الندم، وهناك منطقة تسمى
- orbitofrontal cortex OFC،
- وهي منطقة في الفص الجبهي تقع فوق مدار العين يقول العلماء إنها قد تكون مسؤولة عن مهمة مقارنة النتائج الحقيقية، مع البدائل المتصوّرة.
- ربما لأن مسوحات الدماغ أظهرت زيادة في نشاط منطقة (OFC) عندما يشعر الناس بحالة الندم.
- ومقابل ذلك فالمرضى الذين حدثت لهم أضرار في هذه المنطقة من الدماغ، لا يشعرون بالندم، ولا يتعلمون من تجاربهم.

- إحدى الدراسات ركزت على فوائد الندم. وقدمت كولين سافراي الباحثة في جامعة فكتوريا وزملاؤها في جامعة إلينوي، في نتائج الدراسة المنشورة في مجلة «موتيفيشن أند إيموشين»، أدلة على أن الناس يضعون الندم في منزلة عليا.
- وفي احد جوانب الدراسة وضع مشاركون في واحد من الاستبيانات، الندم في مرتبة محبّذة، وأشاروا إلى أن شعورهم بالندم قادهم إلى فهم أحداث الحياة، ومكنهم من إيجاد بلسم شاف لأخطائهم التي وقعوا فيها.
- بالنسبة لي فالندم هو شعور مؤقت ينتهي بتأمل الموقف وفهمه حتى يستطيع العقل ان يدرك الصواب من الخطأ وإلا مضت أيامنا ندما على ما فات .
- وراجع ناهد سعيد باشطح
- http://www.alriyadh.com/iphone/article/492167
- فضل سالم (مجلة البشاير)
- السبت 21 مايو ٢٠١١.139450 http://www.elbashayer.com/new 4:38:0
- http://www.elbashayer.com/news-139450.html
- مرجع محمد الفاتح من كتاب روائع من التاريخ العثماني...
- مرجع عن الطلاق عبدالله الجعيثن
- دراسة الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء المرجع ظاهرة العنوسة .. الأسباب والعلاج الكاتب : عبده قايد الذريبي
- مرجع ٢٠مصدر قصة الأم مع الإبن العاق :منتديات ترانيم الأمل – من قسم :منتدى القصص والروايات
- مرجع عن فوائد الندم :
- http://www3.0zz0.com/2011/12/04/21/152313739.jpg
- تعتبر البراكين من الظواهر الطبيعية الفريدة التي استرعت انتباه الإنسان منذ القدم وهي تلعب دورا عظيما في العمليات الجيولوجية التي تؤثر على تاريخ تطور القشرة الأرضية وتشكلها . وذلك لأن أغلب أجزاء القشرة الأرضية تأثرت بالعمليات الاندفاعية وخضعت في تشكيلها إلى مساهمة العمليات الاندفاعية.

- وتفيد دراسة البراكين في التعرف على مراكز الهزات الأرضية ودراسة البراكين فرع من فروع الجيولوجيا والذي أصبح قائما بذاته يعرف باسم علم البراكين . Volcanology البراكين يصاحبها تكون معادن وخامات هامة جدا من الناحية الاقتصادية.
- البركان هو تضاريس برية أو بحرية تخرج أو تنبعث منه المواد المصهورة الحارة مع الأبخرة والغازات المصاحبة لها على عمق من القشرة الأرضية ويحدث ذلك خلال فوهات أو شقوق.
- وتتراكم المواد المنصهرة أو تنساب حسب نوعها لتشكل أشكالا أرضية مختلفة منها التلال المخروطية أو الجبال البركانية العالية.
- يعتبر البركان ناتجا مباشرا من نواتج النشاطات النارية التي تحدث في باطن الأرض ويمكننا وصفه بأنه مكان يحدث به فوهة أو شق تنطلق منها المواد المصهورة الحارة مع ما يصاحبها من بخار وغازات وحمم ورماد بركاني ونتيجة لاندفاع هذه المواد وتجمعها وتراكمها تتكون كتلة مخروطية الشكل وقد تأخذ مع مرور الزمن اشكال الجبال البركانية والتلال المخروطية.
- وتقسم البراكين الموجودة في العالم إلى ثلاثة أنواع براكين نشيطة وبراكين هامدة وأخرى تعطي دخانا وأبخرة
- وسنتعرف خلال تحقيقنا هذا على اشهر البراكين وأخطرها وسنجول في أروقة العالم البركاني علنا ندرك حجم وكبر هذا العالم ومدى أهميته وخطورته في نفس الوقت.